صائب خليل

# المصباح الوحيد في الشارع

## محاولة لرؤية العراق

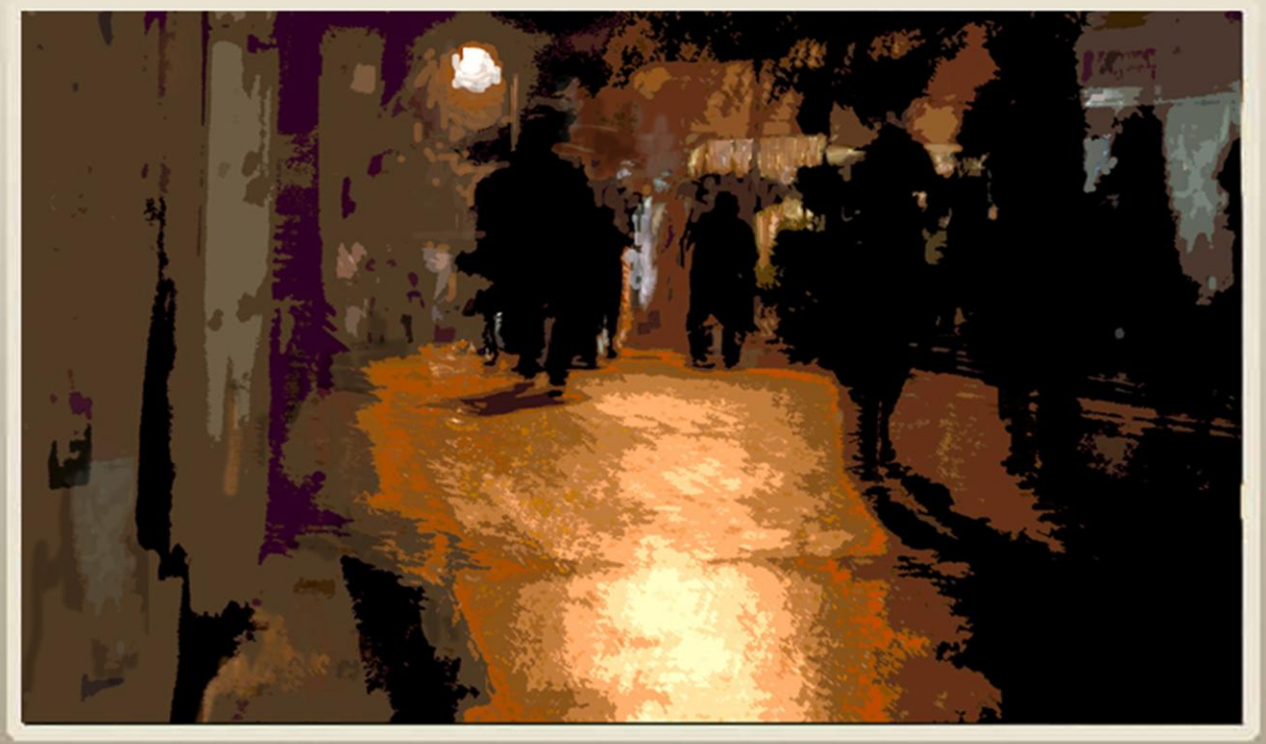

شكر وتقدير

اتقدم بالشكر الجزيل لشاعر العرب الأكبر الأستاذ يحيى السماوي ألذي أحرجني بكرمه بإصراره على قيامه بالتصحيح اللغوي للكتاب رغم ظروفه الصحية الصعبة التي كان يمر بها، فشرف كتابي بتقديره له بجهده وبمعاناته، ولكل ذلك أنحني له ممتناً ومبجلاً!

صائب خليل

**المصباح الوحيد في الشارع**

محاولة لرؤية العراق

* المصباح الوحيد في الشارع
محاولة لرؤية العراق
* صائب خليل
* الطبعة الأولى ٢٠٠٨ م
* جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
* منشورات «أقواس» في هولندا
* العنوان:

* Saieb Khalil
* The Only Lantern In The Street
The Netherlands



صائب خليل

# المصباح الوحيد في الشارع

## محاولة لرؤية العراق

منشورات أقواس

## المثقفون أحفاد الزرقاء

حين رفضت «كساندرا»، أميرة طروادة الزواج من «زيوس»، كبير آلهة اليونان، أراد هذا الأخير لها عقاباً مميزاً، فأعطاها القدرة على «التنبؤ بالكوارث» مشفوعة بعدم تصديق الناس لها. وهكذا حذرت «كساندرا» أهلها من الحصان الخشبي فلم يصدقوها حتى كان الأوان قد فات.

المثقفون في العالم هم أحفاد أميرة طروادة الأسطورية «كساندرا» وقريبتها زرقاء اليمامة. وهم ليسوا بأفضل حظاً من جدتيهم، حيث يرون أبعد من غيرهم كما فعلتا، ويعتصرهم الألم في حيرتهم في كيفية إيصال ما رأوه إلى شعوبهم المشغولة عن المستقبل بحياتها اليومية، كما اعتصرهما.

صرخ مثقفو الهند يحذرون من الطائفية دون جدوى، فقد تقسمت الهند إلى هند وباكستان وأخرى. وصرخ ألمان وفرنسيون وبريطانيون: أوقفوا «هتلر»، لكنه «سار طويلاً قبل أن تقتفي العدالة أثره مترددة متعارجة». وصرخ أحفاد «كساندرا» في إندونيسيا، لكنهم لم يتمكنوا من منع المذبحة التي جاءهم بها «سوهارتو»، وصرخ المثقفون في العراق بعدها وأشاروا إلى مذابح إندونيسيا لكنهم كانوا أضعف من لعنة كبير آلهة اليونان فلم يتمكنوا من منع كارثة ١٩٦٣ وما تلاها، وصرخ مثقفو الاتحاد السوفييتي «إن الدكتاتورية سوف تمزقنا» كما صرخ إيطاليون ويونانيون «إن الفاشية ستحطم البلاد» وصرخ أسبان «إن الحرب الأهلية قادمة».

هكذا شعر المزيد والمزيد بالألم الذي شعرت به الزرقاء حين قال لها قائد الجيش الفاتح إنه خدع عينيها، فأجابته «بل إن قومي خذلوني».

لكن، الكثير من المثقفين الشجعان نجحوا في إيصال الكلمة إلى شعوبهم وتجنيبها الكارثة. إلا أنهم جنود مجهولون يراهم الناس عند الفشل ولا يروهم أن هم نجحوا. فانتصاراتهم أحداث يصعب رؤيتها لأنها احتفالات صامتة ليس لها لمعان الألعاب النارية التي تملكها الكوارث ولا فرقعتها. مع ذلك نعرف بعض الأمثلة: في تيمور صرخوا حتى لم يعد يمكن تجاهلهم، فأوقفت إندونيسيا عند حدها، ومثقفون شجعان صرخوا في أميركا الوسطى حتى فضحوا جرائم «نيكروبونتي» في بلادهم، وآخرون تنادوا لينقذوا رئيسهم من براثن المتآمرين في فنزويلا، وصرخ عرب في بلجيكا حتى عرف العالم بجرائم مجرم الحرب شارون وكادوا يسوقوه إلى المحكمة، وصرخ مثقفون شجعان أكراد ليضعوا بائع الموت الهولندي خلف القضبان وغيرهم كثير.

وما يعزي أحفاد «كساندرا» والزرقاء أنهم اليوم مجموعة كبيرة وليسوا أفراداً معزولين كما كان حظ جدتيهم. مجموعة تتحاور وتناقش وتتجادل للوصول إلى الحقيقة البعيدة، وتتعاون لإيصالها إلى بقية الناس. البعض يكتب، والبعض يقرأ ويرسل ما يراه مفيداً لينشره في كل مكان، وبعض آخر قليل يجهد في الظل لتوفير خطوط الاتصال بين الكتابة والقراءة والنشر، فلا تكاد تعرف له اسماً ولا يضغط عليك برأيه، وهؤلاء اليوم هم صانعوا مواقع الانترنيت، الجنود المجهولون في فريق اليمامة الحديث. فريق يقوم كل عضو فيه بعمل مختلف لكن الجميع يفكر ويجتهد ويفرح حيناً ويتألم أحياناً. فالمثقفون اليوم، وإن كانوا كثر ما يصابوا بنفس خيبة أمل «كساندرا» والزرقاء، لكنهم لا يشعرون مثلهما بالوحدة والضعف، ولعل لعنة «زيوس» قد قاربت نهايتها.

تحية لكم يا أحبتي وأصدقائي وأقربائي من قراء وكتاب، وتحية خاصة وانحناءة لأصحاب المواقع، ولنكن مخلصين لما ورثناه من جدتينا الزرقاء





و«كساندرا» ولنسعد ونفخر بهذا الموروث المتميز رغم ما يحويه من كثرة في الألم وبعض الفرح، ولنُعمل فكرنا وجهدنا لنزيد النجاح ونكثر الفرح ونقلل الفشل والألم. ولكن قبل كل شيء لنعتز بنجاحاتنا وبدورنا ولنعمل على إدامة الحركة فيه بالدعم المادي للمواقع والمعنوي لكل من يقدم لنا ما نشعر أنه قدم لنا فائدة، جعلنا نرى العالم أوضح، وللنشر فائدته قدر ما نستطيع.

أخفضوا أصواتكم ولا تقولوا لأحد لكي لا يزعلوا... ولكن ألسنا فريقاً متميزاً؟

٢٠٠٦/١/١٤

## اليسار والإسلام: فرصة للتعاون في الوقت الصعب

قد يكون ذلك غريباً على الكثير من الأسماع لكني اعتقد أن على اليسار أن يفكر مليا بطرق للتعاون بشكل افضل مع السياسيين الإسلاميين. وقد لا يروق هذا الكلام للكثيرين على الجانبين، لكن الحقيقة هي أن هناك ما يجمع الطرفين أكثر مما يفرقهما، وان تفاهما نافعاً للجميع أمر ممكن وهام جداً.

فمبدئياً، إذا كان لليسار أن يكون مخلصاً لانتمائه إلى القطاع الأوسع من الشعب، فالقطّاع الأوسع بلا شك، هو قطّاع مؤمن، ومن واجب اليسار أن يجد صيغة للتعامل والتفاعل معه، وإلا فانه يعزل نفسه في نواد ثقافية تجتر نفسها. والحقيقة أن اليسار السياسي قد أدرك ذلك منذ سنين وعدّل موقفه السياسي من الدين بشكل واضح ليتخذ موقفا محايدا منه في أدبياته. كذلك اتخذ الغالبية العظمى من القياديين الإسلاميين موقفاً إيجابياً من اليسار بشكل عام وأبدوا روحاً تعاونية تختلف عن التعصب التاريخي المعروف، وبدا واضحاً أن هناك أسس للتفاهم والتعاون.

لكن التحدي الكبير هو إيجاد صيغ سياسية عملية لذلك التعاون والتفاهم وصبه في مصلحة البلد، دون المساس بالأسس المبدئية التي يقوم عليها اليسار، وكذلك الأمر بالنسبة للإسلاميين السياسيين. أي أن التحدي بالنسبة للجانبين هو تحديد نقاط التفاهم بين الطرفين وجعل تلك النقاط اللاعب الرئيسي في التعامل والتركيز عليها بدلاً من نقاط الخلاف، مع احتفاظهما بمصداقية مواقفهما وشفافيتها أمام جماهيرهما.

ومن المهم أن يدرك الطرفان ويعترفا بوجود خلافات هامة بينهما، لكي





يمكن الوصول إلى النقطة التالية، وهي الاتفاق على «إدارة تلك الخلافات» بشكل محدد واضح، بدلاً من أية محاولة حتمية الفشل لإخفائها تحت البساط.

أن ما أدعو له ليس اتفاقاً ليمرر كل طرف أخطاء ونواقص الجهة المقابلة، بل أولاً للاتفاق على الأهداف المشتركة التي تتمنى جماهير الطرفين تحقيقها، وكذلك وقوف كل بجانب الآخر حين يهاجم أحدهما بلا حق.

لا أتحدث هنا بالطبع عن الإسلام التكفيري الإرهابي، بل الإسلام النقي الذي اعتقد أن الغالبية الساحقة من المسلمين تؤمن به. أما من يعتقد أن الإرهاب من طبيعة الإسلام والمسلمين فلا بد أن ينزلق إلى أيديولوجية عنصرية مضادة لعموم الشعب العربي وغيره من المسلمين.

ما هي أسس للتعاون بين اليسار والإسلام السياسي؟

قبل كل شيء، ليس من المطلوب للتعاون أن تتفق مع الجانب المقابل على كل النقاط، بل وحتى ليس الكثير من النقاط، فيكفي أن تجد بعض النقاط المشتركة لتبني عليها ما يمكن بناؤه. وبرأيي أن نقاطاً مشتركة هامة متوفرة بين اليسار والإسلام، وان هناك أهدافاً مشتركة يمكن استعمالها أساساً لتفاهم ما. فرغم العديد من الخلافات الهامة، إلا أنني أرى أن اليسار والإسلاميين يمكن أن يتعاونا بثقة في مسألة محاربة الفساد إلى درجة بعيدة، فللطرفين سمعة جيدة لدى عموم الشعب في هذه الناحية، ويجب دراسة إمكانية زيادة التفاهم والثقة.

فمن المتوقع أن تكون الانتخابات القادمة ساحة للصراع بين الشرفاء واللصوص، بين من يريد أن يبني العراق الممزق ومن يريد أن ينهب ما بقي منه، أكثر مما بين العلمانيين والدينيين، أو بين الديمقراطيين وغير الديمقراطيين أو بين الليبراليين والمحافظين. فالفترة القادمة ستشهد حملات السرقات

الكبرى لما بقي من ثروات الشعب العراقي، بعد أن حضّر لها الإرهاب الجو المناسب بلفت الانتباه عنها.

نقطة الالتقاء الهامة الأخرى، هي أنه من الناحية المبدئية يمكن التفاهم مع الإسلاميين (أو بشكل عام الأحزاب الدينية) على خطوط حمراء في الدفاع عن مصالح الفقراء، عن التأمين الاجتماعي، عن ما يسمى «الشبكة الحامية» للأفراد من السقوط في مهاوي الفقر المدقع (اقتباساً من شبكة السيرك التي تتلقف اللاعب أن أفلتت يده، لتحميه من الموت) والضغط على إضافة تلك النقاط إلى أجندة النقاش العام، في الدستور وفي سن القوانين وفي المناقشات البرلمانية والجهود الإعلامية وغيرها من النشاطات الموجهة للمسار السياسي في العراق. فكل من الاشتراكية والدين يستندان مبدئياً على حق الجميع في عيش كريم، ويجب تأكيد ذلك والاستفادة منه.

إن تجارب شعوب أخرى تبين إمكانية ذلك أيضاً. ففي أميركا الوسطى كانت السلطات الموالية للولايات المتحدة تغتال القساوسة متهمة إياهم بالشيوعية لتشابه مواقف الطرفين في وقوفهما بجانب الفقراء. وكان أول عمل قام به البابا السابق، والذي حصل على البابوية في ظروف أقل ما يقال عنها أنها مشبوهة، هو زيارة تلك الدول لتغيير مواقف الكنيسة وحثها على التحالف مع السلطات المقربة من الأمريكان ضد مطالب الفقراء.

وفي الإسلام، نلاحظ مثلا أن السيد الخميني قد أدرك أن العداء بين الإسلام والاشتراكية ليس أساسياً، لذا قام بخطوته المفاجئة، وهي دعوة موسكو (وقت كورباتشوف) إلى الإسلام، بينما لم يتخذ خطوة مماثلة للولايات المتحدة بل كان يصفها بالشيطان الأكبر، بالرغم من عبارة «بالله نؤمن» المكتوبة على الدولارات الأمريكية من ناحية، والإلحادية العلنية للاتحاد السوفيتي السابق من الناحية الأخرى.

ليست العلاقة سيئة بين اليسار والإسلام السياسي حالياً، وارى أن





يستغل ذلك لتطويرها بمبادرة قد يكون لها اثر تأريخي هام على توجيه مستقبل العراق الذي يمر بظروف مأساوية، وينتظر أن يمر بظروف أصعب في المستقبل القريب، وهذا ما يجعل استغلال أية فرصة لتقارب الخيرين من أبنائه، بعيداً عن اللصوص الكبار والقتلة، واجباً وطنياً هاماً، يجب عدم التفريط بأية فرصة لتحقيقه. أن على من يؤمن بنبل مبدئه، أن يبذل الجهد الفكري والعملي لإيجاد طريق لذلك المبدأ ليرى النور، حتى لو كان بالضغط وإحراج الآخرين لكي يتبنوا مبدأه.

٢٠٠٥/٨/٢

# فتوى السيد الأخيرة

بينما كانت الرجال تصرخ وتضرب صدورها، والنساء يعلو عويلهن وينخفض بغير انتظام، كان الرجل يغسل جثة «السيد» ويعطرها بهدوء تقطعه بين الحين والحين تشنجات بكاء مخنوق. لقد كان يسيطر عليه شعور بالجلال والرهبة أمام هذا الجسد المسجى أمامه، حتى ليكاد يتردد في كل مرة يمد يده إليه خشية أن يوقظه من موته الذي بدا أشبه برحلة اعتيادية سيعود منها السيد قريباً.

لم يكن للسيد تلك الهالة الدينية فقط، بل كانت تضاف إليها قدسية الرجل الزاهد بأمور الدنيا، والجريء في الحق. كان له حضور عظيم الأهمية في الوضع السياسي المضطرب للبلاد، وكان له الدور الأكبر في نجاة البلاد من حرب أهلية لا تبقي ولا تذر.

انتبه الرجل فجأة إلى أن كف السيد اليمنى كانت منقبضة بشدة. وبعد جهد كبير تمكن من فتح أصابعها المتصلبة، فوجد فيها ورقة كان السيد يعصرها كأمانة يخشى أن تضيع منه. فتح الرجل الورقة فإذا بها أشبه ما تكون برسالة كتبت بخط السيد. تلفت الرجل يميناً ويساراً قبل أن يبدأ القراءة، لكنه توقف ولف الورقة على عجل ثم هرول بها إلى الخارج.

بعد ساعة كان الجمع المتزايد مازال مشغولاً باللطم والصراخ تحت لفح الشمس الحارقة، حتى سرت دمدمة وإشارات بالأيادي تدعو الناس إلى الصمت والسماع. كان هناك رجل يقف أمام الميكروفون الرئيسي الذي كانت تلقى منه الأناشيد الحزينة، يحاول أن يقول شيئاً. ولما صمتت آخر النساء الصارخات، تكلم الرجل فقال:





«أيها الناس، أيها الناس... لقد ترك لنا السيد المبجل قبل أن يذهب عنا إلى جنات الخلد رسالة وأوصى أن تقرأ لكم في اقرب وقت ممكن، وليس خير من هذا الوقت وانتم مجتمعين حول جسده الطاهر، فاستمعوا..».

«بسم الله وعلى بركة الله فقد وجدنا في ما يجري من أحداث عظام داعياً لنا للتفكير بجدية بما آلت إليه حال المؤمنين في ا لبلاد، وبعد التوكل على الله، اختلينا ثلاثة أيام بلياليها ووصلنا إلى ما هو آت، وهو فتوانا ووصيتنا الأخيرة لكم، فاستمعوا وافتحوا عيونكم وآذانكم وأذهانكم لما سنقول لعل فيه الخير لكم.

وبعد فقد وجدنا أن المؤمنين اعتادوا استشارتنا في كل أمر، حتى كسلت أذهانهم عن التفكر، وترهلت عقولهم عن التمييز، وعجزت إرادتهم عن القرار، وهذا ما لايريده الله سبحانه وتعالى للمؤمنين به ولا نرضاه لهم. فليس للمرجعية أن تقوم للإنسان المؤمن مقام عقله، بل لترشده في أمور دنياه بقدر ما يتعلق الأمر بفرائض دينه ومبادئه وقيمه، وهذه قدرنا عليها أن شاء الله.

أما في اختياراتكم الحياتية من سياسة وغيرها، فنقول لكم غير عابئين في الحق بلومة لائم. فنحن لا نستحي من الصدق. فنقول عما لا نعلمه، إننا لانعلمه. وألا نكون كمثل طبيب يشير في بناء الجسور أو بناء يشير في العلاج، وليس هناك من بشر يعلم كل شيء، «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» صدق الله العظيم.

لقد منّ الله على المؤمنين، بهدايتهم إلى كتابه العزيز وسيرة رسوله لتعينهم وتكون ملهمة لهم في تفكيرهم وتدبر ما صعب من أمورهم، وترشدهم إلى السراط المستقيم. وأما لما عداها من أمور الحياة فلقد وهبهم الله عيون ترى وآذان تسمع وعقول تفكر ليتدبروا أمورهم، والله أكرم الواهبين، فليجهدوا بما آتاهم ربهم من عقل وبصيرة.

لقد رأيت في حال المؤمنين عجباً. لقد كان المؤمنون في حياة الرسول وبعده اقرأ القارئون وأجرأ المفكرون واعلم العلماء، وما كانوا ليرضون أن يغلبهم الغير في جد جهادهم وفي صدق قرارهم وفي حزم أمرهم. لكن الحال صار غير الحال. فصار المؤمنون ينظرون أئمتهم ترشدهم الطريق فلا يكلفوا أنفسهم عناء تفكير أو مسؤولية قرار حين كان غيرهم يقرأ ويتفكر ويجادل ويتشاور ويقرر. فبقي المؤمنون في مكانهم وتعلم غيرهم كيف يفكّر. بقي المؤمنون مكانهم وتعلم غيرهم كيف يميز الصحيح من الخطأ. بقي المؤمنون مكانهم، وتعلم غيرهم كيف يجادل ويدافع عن معتقده.

أن الله لايرضى أن تكون أمته من الجهلة التابعين. فليس من الإسلام أن تسير أمته كقطيع من الغنم خلف راعيها بلا تفكّر أو تدبّر. فـ«كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»، صدق رسول الله. وكيف يكون منكم راعياً من لاقدرة له على رؤية طريقه، ولا إرادة له للثبات عليه؟ لقد وصف الله المؤمنين فقال «أمرهم شورى بينهم» وكيف يُشار ويشاور من لم يتعلم التفكير ومسؤولية القرار، فهل انتم مؤمنون؟

يا أيها الناس. لو أراد الله سبحانه وتعالى للبشر أن يتبعوا أئمتهم بلا تفكير ولا تمحيص، لاكتفى بأن وضع العقول في رؤوس الأئمة وحدهم. لكنه عز وجل خلق الملايين من العقول والعيون والآذان، ولم يخلقها عبثاً، حاشا الله أن يفعل ذلك. نقول لكم الحق، أن من لاينتفع بعقله كل الانتفاع، فإنه يغضب الله، إذ يهمل خير ما أعطاه له من كنوز ونِعم، فماذا انتم بها فاعلون؟

قال سبحانه وتعالى: ﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ ولكل زمان قوته وخيله. وخير الخيل اليوم كلمة حق صحيحة يضرب بها المؤمن فتصيب دقتها في الظلم مقتلاً. فماذا أعددتم لذلك اليوم؟ لم يولد الرامي رامياً، لكن التدرب والجهاد في التعلم هو ما ميزه عن غيره.





كذلك لم يلد إنسان ومعه معرفته وهداه، بل الهدى لمن فكر واجتهد وجاهد في سبيله. ﴿أن الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا والذين اهتدوا زدناهم هدى﴾ صدق الله العظيم.

أن مشاركة كل منكم في تقرير مصير أمته، واجب شرعي، فالله لا يحب من يرى الحق والباطل فلا يقف بجانب الحق بوجه الباطل، والساكت عن الحق شيطان اخرس. لكن أحدكم لن يستوف ما حق عليه حتى يعمل كل ما استطاع سبيلاً لكي يكون قراره صحيحا صائبا، فان فعل، فلا جناح عليه أن اخطأ، وسبحان من لايخطئ. أما من كسل عن البحث والتفكير فيتحمل وزر خطأه إلى يوم القيامة، وعلى قدر جهودكم تؤجرون. فوالله أن خطأ المؤمن المجاهد للعلم، فهو خير وابرك من إصابة المؤمن الكسول المعتمد على غيره من الناس.

لذا توجب على كل منكم قبل أن يختار في أمر جلل، أن يقرأ أن كان في وسعه أن يقرأ وان يسمع أن كان له أن يسمع وان ينظر أن كان له أن ينظر. فإن قرأ فمقدار عشر صفحات لاغش فيها لعشرة أحزاب. ثلاث لأقرب الأحزاب إلى نفسه، وثلاث لأبعد الأحزاب عن نفسه، وثلاثة يختارهم ممن لايحبهم ولايكرههم، وواحدا يختاره لصدفة صادفها أو لمشورة سمعها أو عبارة قرأها، على أن لاتكون من ضمن التسعة السابقة الذكر، وان تزيدوا فهو خير لكم. أما من عجز منكم عن القراءة، أو اختار عنها، فسماع ربع ساعة أو يزيد لعشرة أحزاب، يختارها كما ذكرنا آنفاً، على أن يستمعها من السن أصحابها بلا ناقل من البشر، وان تزيدوا، زادكم الله علماً وقوة.

أنكم أن فعلتم ذلك، ازددتم إيماناً بالحق، وازددتم فهماً وتمييزاً. وزال شككم بيقين. فمن بقي منكم على رأيه، فقد زاده ما يمكنه من مقارعة حجج غيره، وان رأى الحق في غير ما كان يعتقد، فلتكن له شجاعة

المؤمنين الأوائل في أن يلحق بالحق حيث كان، حتى لو كان ذلك بعيداً عن جماعته وأصحاب دينه ولو لحين، فانه بذلك يحضهم على تعديل ما اعوج منهم، ويكون لهم ناصراً على أنفسهم. وخير للدين أن يخسر الحكم اليوم أن كان في أصحابه اعوجاج ليعود غداً سليماً معافى، من أن يكسب الولاية وهو معوج فيبقى على اعوجاجه أبداً.

أيها الناس.. لسنا نعلم أن كان الله سيمنّ علينا أن نقرأ فتوانا الأخيرة هذه لكم وجهاً لوجه، فإن كان فهو خير. وإن جاء أجلنا قبل ذلك، وقرأها عليكم بعض أصحابنا فلعل شكاً سيصيبكم أن وصلتكم بلا تحريف وتحويل. فإن حدث فاعملوا عقولكم وتفكروا وتبينوا وتشاوروا، فمن وجد ما جاء فيها معقولاً نافعاً، فهي فتوى صحيحة وليتوكل على الله، ومن لم يجدها كذلك فليدعها وليتفكر لنفسه في رشاد لنفسه. أيها الناس، لا تبحثوا عن ختمي في اسفل الورقة، فلم أضع عليها ختمي، بل ابحثوا عنه في رؤوسكم، فهي خير مميز انعم به الله عليكم، والله يوفقكم لخير دنياكم وأخرتكم».

٢٠٠٥/٩/٢٧





## نسركم يقتات على الجيف أيها السادة!

قبل حوالي ثمان سنوات، حين كنا نسكن في مدينة «ايندهوفن» في جنوب هولندا، ذهبت وزوجتي لزيارة شاب عربي وزوجته التي كانت تدرس اللغة الهولندية مع زوجتي. كانت أمسية ممتعة، فالشابان كانا مثلنا حديثي العهد بالغربة وكانت همومنا وقلقنا متماثلة، وجر حديث الغربة إلى مواضيع أخرى عن الحياة وفلسفتها ومثلها.

حينها قال مضيفي إنه يعتبر «النسر» مَثَلَه الأعلى! فهو طائر عظيم يعيش في الأعالي حيث الهواء النقي والماء الصافي، بعيداً عن ضوضاء المدن ووسخها.

وهنا راودتني عادتي المتعبة في إلقاء الحجر في البركة الهادئة لإثارة الأمواج، وربما المرح، فقلت له مشاكساً: «ولكن ألا تعلم أن النسر يقتات على الجيف؟».

سقطت جملتي على رأس الرجل كالصاعقة!! ماذا تقول؟ أنت تمزح! النسر لا يمكن أن يقتات على الجيف. ولماذا يفعل ذلك؟ إنه طائر قوي وسريع وله بصر حاد ويستطيع بلا شك أن يصطاد الحيوانات الحية فلماذا يقتات على الجيف؟

ربما.. لا أدري لماذا... لكنه يفعل ذلك. هل أنت متأكد من أنه النسر؟ ربما كان الصقر أو نوع آخر من الطيور التي تشبه النسر؟ فأنا أقصد النسر.. ذلك الطائر الكبير الذي يعيش في الجبال...

انتبهت زوجتانا اللتان كانتا تشتركان بحديث آخر، ورأيت نظرة قلق في عيني زوجته.

إنه النسر ليس غيره.. هو يقتات على الجيف. أنا متأكد من ذلك!

النسر! على الجيف؟ أنت تهينه!

أهينه؟ (ضحكت).. ربما كانت الجيف بالنسبة لنا ولمقاييسنا ومفاهيمنا أمراً وسخاً حقيراً، لكن ربما لو أتيح لك أن تسأله لتغزل بها وباللذة التي يشعر بها عند أكلها.. إنها طبيعته!

لم ير صاحبي بداً من الإذعان للمنطق القاسي، خاصة وأن زوجتي أسندت كلامي ببعض التفاصيل، فاعترف بأنه لم ير في حياته النسر على الطبيعة، كما أنه لم يسأل عنه أحداً يعرفه عن قرب. كان يعرفه عن طريق الشعر وبعض الأفلام فقط.

أعترف بأني فوجئت بأن صاحبي كان يبتلع الحقيقة بصعوبة هائلة.. شعرت بتأنيب الضمير وأنا أرى تعابير الخيبة على وجهه.. فقد كان النسر بالنسبة له رمزاً ومثلاً أعلى! لقد كان صديقه الذي يعينه في كل مرة تهتز بها الأرض من تحت قدميه، ويهدده الانهيار في غربته القاسية.. أما العيش على الجيف، فيرمز إلى الاعتماد على الانحطاط للبقاء على قيد الحياة. تلك الحقيقة المادية البسيطة والواضحة بالنسبة لي كانت مرّة مؤلمة بالنسبة له وكان امتصاصها عسيراً وبطيئاً. لقد بقي مشهد حيرته في البحث عن طريق لمناورة تلك الحقيقة وإنقاذ رمزه عالقاً في ذاكرتي كل تلك السنوات.

أتذكر تلك الحادثة اليوم كلما دخلت في نقاش مع من بقي يصر على صدام رمزاً له. فأنا أذكر في أوائل التسعينات حين كان الألم يعتصرنا ونحن نرى أن قسماً ليس بقليل من العرب يقف مؤيداً لجلادنا. وكان عزاؤنا أنهم لا يعرفون الحقيقة. ومن أين للحقيقة أن تصل إلى العربي الذي يعيش خارج العراق ولا يعرف من صدام غير ما ينقله التلفزيون العراقي، ولا يهمه من الأخبار غير إطلاق صدام بضعة صواريخ على إسرائيل انتقاماً





لإخراجه من الكويت؟

كنا نقول أن الحقيقة ستصل قريباً، وسنقوم نحن، الملايين الأربعة من مشرديه في العالم، بإيضاحها.

لكننا فشلنا على ما يبدو، رغم طول السنين وكثرة الدلائل والبراهين. لقد صمدت الحاجة إلى الرمز بوجه أشد المشاهد وضوحاً وبشاعة. جاء الأمريكان، وسقط النظام وكشف المزيد من الحقائق، لكن صور المقابر الجماعية وأفلام الإعدام والاستهتار والوحشية لم تتمكن من الوصول إلى قلب أو عقل المتشبثين بالوهم. توقفنا عن جمع الحقائق وعرضها، فلم تكن الذخيرة المناسبة لاختراق تلك القلعة العاطفية المحصنة ضد المنطق.

لكن الاحتلال لم يكشف حقائق صدام فقط، فسرعان ما فاحت رائحته المميزة فانحاز المزيد من العرب إلى صدام، بل أن ذلك شمل بعض العراقيين أيضاً وخفتت نبرة الحديث عن جرائمه. صاروا يتحدثون عن الخيار بين الاحتلال وبين صدام، كأن قدر العراق محدود بين هذين الظلامين، وكأن الشعب العراقي المعروف بتاريخه وشهدائه، لم يعد له من يرد الاحتلال عنه إلا «سَفَلَته».

مجموعة أخرى تتحدث عن «الكرامة»، أعظم القيم، وضرورة إنقاذها من يد الاحتلال حتى ولو على يد صدام. ومن عرف العراق ولو قليلاً يعرف أن الكرامة لم تذبح يوماً مثلما ذبحت في عهد صدام، والكرامة لم تنحط يوماً إلى مثل قيمتها في عهد صدام.

على الانترنيت، أقرأ وجهة نظر «إسلامية» تقول: رغم أننا نعلم أن لصدام الكثير من المساوئ، إلا أن الحق يجب أن يُقال، وهو أنه في آخر حكمه منع الخمر في العراق.. الخ.

هذا «المسلم» يرى أن بإمكان مجرم أن يذبح ما يشاء من المسلمين ويغتصب من يشاء من المسلمات ويثير أكبر الحروب بين المسلمين بتكليف

من أعداء المسلمين، ثم يبرئ نفسه أمام المسلمين بمنع الخمر... وربما الاحتفال بالعيد.

البعض الآخر يجد في هدية صدام البالغة ٢٥ ألف دولار لعائلة كل شهيد فلسطيني سبباً لتمجيده، خاصة وأن بقية الحكام العرب كانوا أجبن من أن يقف أحد منهم مع الفلسطينيين ولو بالكلام. لست آسف طبعاً على أي مبلغ يذهب في مساندة الشعب الفلسطيني في صراعه المرير لتحرير وطنه، لكن المبلغ الكبير وحده، وتركيزه حيث الضوء أشد، كفيل بكشف الزيف في ذلك اللباس من الوطنية والإنسانية والإسلام. أو تحتسب في الإسلام حسنة سرقت من جائع؟

أي شيء يمكن أن يفسد قضية رأسمالها الضمير والحق والعدل، أكثر من ربطها بجلاد ارتبط اسمه بالظلم والإرهاب والدم؟

إنها ليست إلا المتاجرة القديمة بالقضية الفلسطينية، فمن لا غيرة له تجاه أبناء شعبه، لا غيرة له تجاه أشقاءهم.

لقد كشفت الحقائق وزالت الأعذار، ولا يسعني إلا أن أقول لكل هؤلاء: «آسف أيها السادة... فنسركم يقتات على الجيف!»

٢٠٠٣/١٢/٣





# الإيحاء بالدونية

اذكر منذ ثلاثين عاماً لقطة تلفزيونية صغيرة «للسيّد النائب» صدام حسين، حين كان يزور معملاً، أضنه كان للنسيج في بغداد، حين وقف قرب عامل عربي يسأله عن حاله وحال العمال العرب في المعمل. (أرجو أولاً أن لايفهم من مثالي هذا أي تعصب ضد العمال العرب إطلاقاً).

العامل العربي قال للسيد النائب: كويس، بس كان أحسن.

ليش جان أحسن؟ تسائل النائب ببعض التوتر.

سيدي، صاروا يعاملونا مثل العراقيين!

لا أذكر كيف استمر الحديث لكني أذكر أن «السيد النائب» تنرفز للموقف المحرج الذي وضعه فيه العامل المصري البسيط بغير قصد طبعاً. فهنا يشتكي شخص من غير أهل البلد لأنه صار يعامل كأهل البلد!

لو حدث هذا في أوروبا، أو أية بلاد لها أبسط احترام لشعبها، لقامت الدنيا ولم تقعد. لكن تلك العجيبة حدثت في بلاد العجائب فلم تثر انتباه أحد!

ففي بلاد العجائب يكون المواطن أدنى الناس، فيجب أن يبقى يشعر في داخله انه أدنى من الآخرين في الخارج وفي بلاده أيضاً، لأنه أن لم يفعل، سيصبح مشاكساً ويطالب بحقوق مساوية للآخرين، وهذا مرفوض تماماً.

اشهر إجراءات الإيحاء بالدونية في عراق صدام كان إجبار الأهل على دفع «ثمن رصاصات» قتيلهم الذي تعدمه الحكومة، لإعطائهم الإحساس المهين للغاية بأنهم ساهموا في قتله، وانهم رضخوا لمشيئة قاتله.

تجري هذه الأيام محاكمة روبرتو، الجندي الأمريكي الذي قتل اثنين من

زملائه، ويتعرض إلى احتمال حكم بالإعدام. أما زميله الجندي الآخر الذي احرق بدبابته عائلة صديقي لطيف، فمعفي من المساءلة! فروبرتو قتل أمريكان، أما زميله فلم يقتل إلا عراقيين!

لعل العراقي لم يشعر في بلاده خلال مئات السنين الماضية بغير ذلك الإحساس بالدونية، إلا ربما لبضعة سنين لايمكن أن يكون لها تأثير طويل المدى أن وجدت. من الطبيعي إذن أن يسري الإحساس بالدونية فينا من جيل إلى جيل، ويغور عميقاً إلى العظام فيصعب على العقل تصحيحه! انظروا إلى عراقي من عامة الناس حين يطلب منه أن يتكلم في مكان عام أو أمام التلفزيون. نحن نخسر في هذا الامتحان أمام جميع شعوب الأرض، أغنيائها وفقرائها، متطوريها ومتوحشيها بلا استثناء!

من أكثر الممارسات انتشاراً في السجون في كل مكان، ما يعرف بـ«تليين السجين»، وتتمثل بالسعي إلى تحطيم روح السجناء وتثبيت إحساسهم بتفاهة قيمتهم، خاصة عندما يتعلق الأمر بموقف سياسي يأمل السجانون فيه إجبار السجين على تقديم معلومات يرفض تقديمها. ذلك أن رفضه يتأسس على قيمه الإنسانية التي يضعها لنفسه، والتي يخجل من التنازل عنها. فإن أزيلت القيمة التي يضعها السجين لنفسه، لم يعد له مبرر لتحمل التعذيب فيعترف.

الإحساس بالدونية يدخل عميقاً فيصبح معتاداً ولا يعود المرء يحس به. ولكي يفعل ذلك فهو بحاجة عادة إلى محفز خارجي، كأن يأتي شخص من خارج المكان، أو يسافر إلى الخارج بنفسه، أو يقرأ كتاباً قيماً.

كمثل للأول: اصطحبت ابن خالتي الذي جاء لزيارتنا إلى بغداد من مدينة صغيرة إلى فرن الصمون صباحاً لنشتري. وقفت سيارة شرطة أمام الفرن ونزل منها شرطي وأراد أن يأخذ صموناً دون أن يقف في الصف. بهت ابن خالتي واعترض، وتحول الموقف إلى مشادة ووصلت إلى مركز الشرطة ولم تخلص إلا بالشافعات. أبن خالتي قال لي مستغرباً ومستهجناً:





يعني انتم في بغداد لا تمانعون أن يأتي أحد ويأخذ دوركم؟

وكمثل للثاني: مرة كنت أداعب طفل صديقي الهولندي فاحتضنته من ظهره مقيداً يديه، فقال لي راجياً أن لا افعل ذلك لأن الطفل يشعر هكذا بالضعف وعدم الأمان!

أما بالنسبة للكتاب، فأول كاتب أثار بقوة إحساسي بأننا تخلينا في أعماق أنفسنا عن الإحساس بالمساواة كان الكاتب اليهودي الأمريكي العظيم نعوم جومسكي. فحين سألوه أن كان قصف أميركا لأفغانستان مقبولاً قال: أن كنا نعطي الحق لأنفسنا في قصف أفغانستان، على أساس أن ضرب برجي التجارة جاء منها، فيجب أن نعطي الحق لنيكاراغوا في أن تقصفنا! كان جومسكي يشير إلى أعمال تخريبية ضخمة في نيكاراغوا في الثمانينات، أدانت بها المحكمة الدولية الولايات المتحدة وأمرتها بدفع تعويضات، لكن الأخيرة أهملت الأمر.

حين تقرأ مثل هذا الكلام، فإنك تبتسم مستغرباً قليلاً، وأول ما يتبادر إلى ذهنك هو أن الرجل يبالغ جداً ويغرق في المثالية، إذ يطالب بحق «نيكاراغوا» الصغيرة، بقصف «الولايات المتحدة» ذاتها! لكنك وبعد أن تبحث في ذهنك عن ما يؤيد استنكارك لمبالغته، ويبرر استغرابك مقارنته، فلا تجد أي سبب عادل لذلك، عندئذ، تشعر كم هو عميق إحساسك بالدونية، وأنت تضن نفسك المثقف المعتز بنفسه، الرافض للتميز والمنتبه لكل شاردة وواردة.

يكرر جومسكي مقارناته التناظرية التي لاترحم هذه في كل كتاباته وأحاديثه، فإن قرأت له أو استمعت له، أحسست أن العدوى إصابتك، فصارت تلك المقارنات أول ما يخطر ببالك وأنت تقرأ خبراً أو تصريحاً، وتحس انك امتلكت سلاحاً فتاكاً لتقييم الأحداث والانتباه إلى المغالطات والتجاوزات والمراوغات التي يحاول القوي بها دائماً أن يفرض على الأضعف إحساساً بالدونية، ويوحي له بأن الكيل بمكيالين أمر طبيعي لايتعارض مع العدالة.

حين تم تثبيت مسوّدة الدستور، بغير رضى الكثيرين، قرأت خبراً بأن السفير زلماي كان «يطمئن العراقيين الرافضين للدستور إلى إمكانية تغييره!».

حين قرأت هذا قفزت خميرة جومسكي المقارنة إلى رأسي وتساءلت: «ماذا لو طمأن سفير العراق في أميركا الشعب الأمريكي الرافض لوثيقة ما إلى أن بإمكانه تغييرها مستقبلاً؟» لاشك أن الكثير من الأمريكان سيفتح فاه مستغرباً، وان الحكومة الأمريكية ستوصل سعادة سفيرنا إلى أقرب مصح عقلي، لأن مثل هذا التصريح ليس من اختصاص السفير إطلاقاً، لكن الحكومة العراقية لم تفتح فمها، بل ربما هزت رأسها موافقة! صحيح أن لا العراق ولا نيكاراغوا بحجم وقوة أميركا، لكن المفروض أنهما كذلك في سيادتهما وأمام القانون الدولي.

المصاب بالإحساس بالدونية يتنازل عن حقوقه بسهولة أكبر ويتهرب من مواجهة الحقائق التي تدعوه للدفاع عنها. تعلم العراقي (ربما أكثر من غيره) أن يتقبل الإهانة بالتربية، ثم بالمدرسة ثم بالخدمة العسكرية بالنسبة للبنين، ودكتاتورية الذكور في البيت بالنسبة للبنات، ثم في العمل من قبل رئيسه.

لنبدأ في الطفولة: في ورقة إعلانية في مركز طبي للأطفال في هولندا قرأت عدة نصائح للأهل أذكر منها واحدة على وجه الخصوص: تحدث للطفل عندما تخرج معه. لاتقده من يده فقط، بل أخبره عن المكان الذي ستذهبون إليه وأعط كلامه اهتماماً وجدية. أين ذلك منا في العراق وغيره؟

طفلة عراقية في مركز اللاجئين كانت في الليل تبكي خوفاً من المدرسة التي ستبدأ غداً وستذهب إليها لأول مرة في هولندا. في اليوم التالي بعد الظهر، ينتعش وجه «هدى» وهي تقول بسعادة عظيمة: «هنا ما يضربون! كل واحد يحجي وية اللأخ وما يضربون»! في الأيام التالية كنت أرى هدى تقف منذ الصباح الباكر في انتظار موعد المدرسة وهي تقفز مرحاً.

في المدرسة العراقية، تسيطر تربية «فارس الصف» كما يسميها صاحبي





الفنان نديم الكوفي، والتي يتقدم فيها طالب واحد على انه الممتاز، والباقي لا دور لهم إلا ملئ خلفية اللوحة.

بالمقارنة مع أوروبا، فإن المتفوق فيها في المدرسة يعامل أفضل قليلاً ولكن لايعطى كل تلك الأهمية ولا يكون ذلك على حساب شعور الآخرين إطلاقاً، وان أبدى ما يدل على غروره واستصغاره لرفاقه، فإنه يوقف عند حده.

ليست كل عمليات الإيحاء بالدونية واضحة ومباشرة. فمثلاً الطريقة التي كان يتكلم بها الرئيس في التلفزيون، ثم صارت سياسة مقصودة شملت مذيعي الأخبار. فهؤلاء يمثلون وجه الحكومة، ولذا أوصتهم الحكومة على ما يبدوا بالصرامة والوجه القاسي المهين لمشاهده. فلست اذكر أن مذيعاً للأخبار ابتسم يوماً في تلفزيون العراق منذ الثمانينات وحتى النهاية.

الأم تشبعت بالشعور بالدونية، توحي به إلى ابنتها، فالشعور بالدونية يتوارث عن طريق التربية، والمدير لايفوت فرصة ليلقن درساً قاسياً لمن يتجرأ على «وضع رأسه برأسه»، أي أن يساويه. فالإيحاء بالتفوق للذات هو الوجه الآخر للإيحاء بالدونية للمقابل.

وفي الدين نجد فكرة «العلوية» عند الشيعة، تثبت فكرة الدونية عند الغالبية العظمى من الناس. أما لدى السنة، فرغم أن الموضوع اقل انتشاراً لكنه أكثر حدة حينما يتواجد. ففي التكيات رأيت الناس يزحفون على ركبهم العارية وهم يقتربون من الشيخ ليقدموا له النقود. والمؤمنين من اليهود يصدّقون بأنهم فوق الآخرين لأنهم من «شعب الله المختار»، فلا يسمح لأحد من خارج النسل اليهودي أن يصبح يهودياً، وأما في المسيحية فالبابا الذي نصّب تواً خاطب الناس قائلاً بأنه يراهم «خرافاً ضالة» وأنه جاء ليرشدهم إلى الطريق في الصحراء.

أما في السياسة، فالملوك والنبلاء والأغنياء اعتمدوا تماماً على الإحساس بالدونية لرعاياهم لاستمرار استغلالهم لهم، ومعظمهم راضين. وحيثما وجدت الاستعمار وجد الإيحاء بالدونية سوقاً رائجة: فيكتب كاتب في

الحوار المتمدن أن مسؤولاً تركياً قال في الثلاثينات من القرن العشرين: «على الأكراد أن يرضوا بالعيش كخدم لنا»، وما أقربها إلى عبارة موشي ديان حين قال: «على العرب أن يرضوا بالعيش كالكلاب أو أن يرحلوا».

أختتم مقالي هذا بمقارنة حادثين بينهما نصف قرن. الأولى لأخي الذي جاء إلى هولندا لاجئاً فحدثنا عن مدرس في جامعة بغداد، كلية الهندسة، القسم المدني، قال لطلابه مرة، يمتدح نفسه وصعوبة أسئلته في الامتحان القادم مفتخراً، أن خيّرهم لن يحصل فيه على ٣٠ بالمئة!

مقابل ذلك وعلى عكس تربية «فارس الصف» اذكر حادثة وقعت لي في الصف الأول الابتدائي، (كانت مدرسة العزيزية في الرمادي أن لم اكن مخطئاً) أي قبل ٤٥ عاماً، واضن أني لا أذكر من تلك الفترة غير هذه القصة: صباح يوم فوجئنا، نحن الشطار، بالأستاذ يوسف، معلمنا، وهو يقول: يا طلاب، آني البارحة غلطت، وأعطيتكم واجب المفروض أن أعطيه لكم اليوم. يعني اللي ما حالّين الواجب اليوم، هم الشطار!

سرت في الصف فرحة بين «الشطار الجدد» وشعروا بالفخر ربما لأول مرة في حياتهم المدرسية، بل راحوا يعاكسونا، نحن «الكسالى» لأننا عملنا الواجب. حاول الأستاذ يوسف بالطبع أن يوظف هذه الفرحة وهذا الاعتزاز بالنفس وأفهمهم أن هذا الأمر لهذا اليوم فقط، وانهم أن أرادوا أن يستمروا شطاراً فعليهم أن يحلوا الواجب مستقبلاً. لقد حاول الأستاذ يوسف أن يكسر هذا الإحساس بالدونية لدى طلابه بفكرة عبقرية ولا اعلم إلى أي مدى نجح في ذلك، لكنها كانت محاولة رائعة.

أستاذ أخي الجامعي كان يتلذذ بتحطيم نفسية حتى طلابه الجيدين لينتج حاقدين على المجتمع، أما أستاذي يوسف فكان بلا شك يسهر مفكراً كيف يعيد الثقة حتى لطلابه الكسالى ليصنع منهم بشراً سعداء مسعدين!

٢٠٠٥/١١/٦





## إنتقم من الخطأ

في نهاية مقالي السابق تساءلت: هل من إمكانية لتوجيه عقلاني حضاري إنساني لكل طاقة الغضب والانتقام المتفجرة في داخل نفوسنا لتعصف بالاتجاه الصحيح لتخدم أسمى أمانينا؟ وهنا أحاول أن أقترح جواباً لهذا السؤال الذي اعتبرت اختيار الجواب عنه خطير الأهمية لمستقبل العراق في هذا الوضع شديد الغليان. قد يبدو الجواب مثالياً طوباوياً للبعض من القراء، وقد يبدو ممكناً للبعض الآخر. ولكن حتى المثالية والطوباوية تملك دوراً مؤشراً مرشداً في حياة الإنسان والشعوب. دوراً موجهاً إلى هدف يفاد من الاتجاه إليه والاقتراب منه حتى إن كان الوصول إليه صعباً أو مستحيلاً ضمن المستقبل القريب.

على أية حال، فإن ما أدعو إليه ليس خيالاً صرفاً، بل أمر واقع يومي في حياة الشعوب التي لم تبتل بما ابتلت به شعوب مثل شعب العراق وغيره من دكتاتورية واحتلال وإرهاب. واقع أقرأه كل يوم في الصحف وأشاهده كل يوم على شاشة التلفزيون.

أقرأ في الصحيفة أمامي عن امرأة هولندية فقدت طفلتها حين كانت تمر أمام مقهى يدور فيها شجار «لامعنى له» فأصابت الطفلة رصاصة طائشة قتلتها. أسست الأم مع بعض المتعاطفين معها جمعية ضد «العنف الذي لامعنى له». حين تستمع إليها لا تجد في كلامها أثراً للغضب على الرجل الذي سحب الزناد فأصاب طفلتها! إنها توجه كل غضبها إلى المخدرات والمبالغة في تناول الكحول وحياة الليل في شوارع أمستردام فيقود الناس كالسائرين في منامهم إلى الجريمة.

أية قدرة بشرية هذه لإعادة توجيه الغضب وقيادته إلى المجرم الحقيقي الذي لا شكل له، الذي اختطف منها طفلتها «بلا معنى»، وهل هناك أكثر وحشية من القتل «بلا معنى»؟

أية قدرة إنسانية هذه التي تتمكن من رفض ما يوحي به الهيجان والحزن ويختاره عدواً، لتستمع إلى صوت العقل وهو يشير بسبابته إلى المجرم الحقيقي ـ الخطأ ـ الذي تلبس القاتل وحرك إصبعه ليرسل الموت إلى قلب ابنتها؟

يمكننا أن نروح عن أنفسنا، حين نعرف وجه القاتل فنوجه خيالنا الغاضب إليه ونقول لأنفسنا «لو وقع في قبضتنا» وكيف سنذيقه العذاب على ما فعل وكيف نمزق وجهه ونتلذذ بعذابه. نفعل ذلك فنرتاح قليلاً... فكيف يا ترى تريح هذه المرأة نفسها وقد وضعت أمامها عدواً لا وجه له لتحطمه في خيالها ولا جسم له لتمزقه بسكينها الخيالية فتشفي غليلها؟

وذاك الرجل الذي أصيب بالإيدز فقرر أن ينتقم من المرض وليس من المرأة التي أوصلته إليه، فراح يدور في البلاد ينصح الناس كيف يمكنهم أن يمنعوا هذا الداء من الحياة. وامرأة قتل السرطان زوجها فراحت تدور بلا كلل في كل مكان تجمع المال لمركز بحوث لمحاربة هذا المرض الفتاك...

آخر ما شاهدته من أمثلة كان في البرنامج الإخباري «نت ورك» في الأسبوع الماضي حيث ظهر رجل كان ابنه وزوجة ابنه قد قتلا في حادث سير وكان السائق القاتل مخموراً. كان الرجل يجهد من أجل اقناع الوزير المعني بتغيير القانون لتشديد عقوبة من يسوق مخموراً لأكثر من مرة. لم يفلح كثيراً مع الوزير فكتب إلى البرلمان وحصل على مقابلة مع نائبين برلمانيين احدهما في حزب رئيسي، وهاهو ذا في البرنامج يحاول أن يصل إلى الناس لإقناعهم بما يريد. كان مصراً على حقده، ليس على السائق الذي قتل ولده وزوجته، ولكن على الخطأ الذي اودى بحياتهما الشابة.





وهاهي «سندي شيهان» يقتل ابنها في حرب العراق التي لاتراها ذات معنى لأميركا إلا تحقيقاً لمصالح المال، فلا تحقد على العراقيين الذين قتلوه بل على الخطأ الذي تسبب في مقتله، فتجمع أهالي الضحايا وتسبب لمشعلي الحرب، والحريصين على إدارتها بشكل مدمر للعراق وللجنود الأمريكيين، الكثير من الإحراج والقلق، وتبدو مصرة على الاستمرار في مسعاها لوقف هذه الحرب ولوقف التدخل الأمريكي حتى النهاية، فتسكن في الخيمة أمام البيت الأبيض، ثم أمام منتجع الرئيس وتكتب في الصحف وتنظم المسيرات الاحتجاجية وتحاضر في الندوات فتجبر إدارة الرئيس والصحافة أن تعترف بوجودها وتثير مشكلتها وتضعها في دائرة الضوء. لاشك في أنها عانت ما عانت، ولاشك في أنها أحست أحياناً باليأس وفكرت بالعودة إلى منزلها لتلعق أحزانها، لكن صورة ابنها كانت تطاردها وتجبرها على أن تستمر في حربها مع السبب الذي أودى بحياته، حتى تنتصر عليه.

كيف تمكن كل من هؤلاء من جمع كل هذا الغضب والألم في رؤوسهم، قبل إطلاقه موجهاً إلى قلب الهدف، وليس إلى الأشباح التي يلبسها فتتراقص حوله؟ كيف لعقلهم أن يصر على تحديد عدوه بنفسه غاضاً بصره عما يأمره به قلبه وهو يفور اهتياجاً؟

ان شعباً يزدهر فيه أمثال هؤلاء قادر بلا شك على أن يتجاوز أية أزمة تحل به!

وإذا كان البعض هنا قد تمكن من الامتناع عن الانتقام ممن تلبسهم الشر فأصابوه بالآلم، فلم يعجز الناس في بلادي الجريحة عن الامتناع عن الانتقام من الأبرياء حينما لايجدون أمامهم غير هؤلاء هدفاً لغيضهم وثورتهم؟ ألسنا ندين بدين مليء بالحث على السيطرة على النفس والغضب وتبين الأمر كي لايصيب غضبنا الأبرياء فنقعد نادمين بعدما لاينفع ندم؟ إن كان إمساك المجرمين وتقديمهم للعدالة لينالوا جزاء ما جنت ايديهم، علامة

قوة وجرأة ورجولة فإن قتل الأبرياء من الناس والانتقام من الأبرياء ليس إلا ضعفاً مقززاً.

أقول: أما تسببت أخطاؤنا وضعفنا بما يكفينا من آلام لنوجه إليها انتقامنا بدلاً ممن تتلبسم من أشخاص تستبدلهم في كل مرة لتزيح انتباهنا عنها. ألم يحن الوقت لنوجه انتقامنا إلى من يستحقه فعلاً، وإلى من يكون ذلك الانتقام منه مؤثراً فعالاً؟ أيمكننا أن نقنع أنفسنا بالانتقام من الخطأ نفسه بدلاً من ملابسه؟ أم أن تلك مثالية عسرة المنال بالنسبة لنا؟

٢٠٠٦/١٢/١





# ما أيسر بيت قلته؟

## هدية مشاغبة إلى الحزب الشيوعي العراقي بعيد ميلاده

قبل فترة كتبت مقالة انتقد فيها اختفاء اليسارية في مواقف الحزب الشيوعي العراقي مقارنة بأكثر الأحزاب اليسارية اعتدالاً حتى في أوروبا (http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp&aid=49036)

وكانت ردود الفعل إيجابية أكثر من المتوقع حتى من الشيوعيين أنفسهم.

وقتها جاءني «العتب» الوحيد من صديق شيوعي يلوم موقفي ويراه ظالماً يجافي الواقع وأن الحزب يتخذ مواقف يسارية واضحة. والحقيقة أني كنت أشعر بخيبة أمل من المواقف، أو بالأحرى من اللامواقف المتتالية غير المفهومة للحزب الشيوعي الذي كنت آمل منه أن يمثل ضغطاً يسارياً يدفع بالموقف السياسي العراقي شديد اليمينية إلى توازن ما، ويمثل تهديداً لتلك الجهات بسحب جماهيرها منها أن هي بالغت في إغراق البلاد في السياسات اليمينية والكوارث الاقتصادية التي تصحبها عادة، حين تكون الساحة لها وحدها كما في العديد من الأمثلة في البلدان المتخلفة.

كان أملي متواضعاً جداً ومناسباً لحجم وظروف العراق، لكني لم أر في المواقف المتكررة حتى الحد الأدنى لليسارية بحيث أن فكرة اليسار وخطر الخصخصة ومحاذير العولمة، وكلها تجارب عالمية كثيرة وواضحة لمن يريد أن يقرأ، لم تكن حتى مطروحة على الساحة السياسية العراقية لا في المفاوضات ولا في كتابة الدستور ولم يحسب لها أي حساب حيث لم

يكن هناك من يطرحها، وكما قيل «لاخير في أفضل الأفكار أن لم يكن لها من يمثلها».

وبالرغم من أن صحافة الحزب الشيوعي كانت غنية بمثل هذه المقالات والدراسات، وأحاديث ممثليه في الإعلام لا تخلو من إشارات يسارية، إلا أن صوت اليسار هذا بقي على صفحات الجرائد ومواقع الإنترنت وأحياناً على شاشة التلفزيون، ولم يجد مكاناً على الواقع السياسي كموقف حزبي ولم يمثل خياراً للناس في الانتخابات. فالحزب كحزب لم يقل كلمة يسارية صريحة إلا نادراً ولم يشترط أية شروط يسارية في محادثاته وتوافقاته، حسب علمي. و«حسب علمي» هذا مهم، فإن كانت مثل تلك الشروط موجودة فالمفروض أن تكون معلنة للناس وإلا كانت عديمة المعنى في سريتها. والحقيقة أني لم أر في مواقف الحزب خلال السنوات الثلاثة منذ سقوط صدام ما يشير إلى انه أكثر يسارية من مقتدى الصدر!

العراق كان وما يزال يمر بأزمة خطيرة ويواجه تهديدات مصيرية من قوى هائلة، أجنبية وعراقية تهدف إلى امتصاص ثروته ونهبها، لذا كان الأمل بممثل لليسار يتواجد على الساحة ليراقب وينبه ويكون مصباحاً في الظلام، وتهديداً يحسب له بعض الحساب، كان أملاً هاماً جداً. ولذلك كانت خيبة الأمل كبيرة أيضاً.

لذا، فعندما عاتبني صديقي مدافعاً عن مواقف حزبه، أثار في داخلي كل تلك الخيبة الكبيرة وذلك الفرق الشاسع بين ما هو مؤمل وبين ما حصل. وحين قال بأن مواقف الحزب كانت يسارية ومرضية في ظروف العراق والحزب، لم أجد ما أجيبه به حتى أسعفتني ذاكرتي بموقف مماثل من تأريخ الأدب العربي:

كان الشاعر حسان بن ثابت يشكو النابغة الذبياني أن هذا كان يمتدح الخنساء أكثر منه، رغم أن شعره كان قوياً لايقل عن شعرها حسب رأيه.





التفت الذبياني إلى الخنساء وقال لها: كلميه أنت يا خنساء. فالتفتت الخنساء إلى حسان وقالت له: ما اشعر بيت قلته؟ فأجابها ببيت (لم اعد اذكره)، فراحت تعدد له نقاط الضعف قائلة قلت كذا ولو انك قلت كذا لكان افضل، وقلت كذا وفي ذلك كذا من الضعف ولو أنك قلت كذا لكان أقوى.. الخ حتى عددت له عشرة نقاط ضعف في بيت واحد كان يعتز به أكثر من أي بيت آخر قاله!

التفت إلى صديقي وقلت له: ما أيسَرَ موقف اتخذه الحزب؟ تفاجأ صاحبي بالسؤال ولم يعط جواباً محدداً، ولو كان هناك جواب محدد لموقف يساري واضح في قضية هامة كان للحزب فيها دور يقفز إلى الذاكرة لما احتار صاحبي. قال أن الوضع في العراق خطير ولا أحد يهتم باليسار واليمين. فقلت له وما دور الحزب في هذه الحالة؟ هل كان للحزب أي جهد لإثارة اهتمام الناس باليسار واليمين وخطورة ذلك الاختيار، وهل هناك دور يستطيع فيه الحزب أن يفعل للعراق خير من هذا الدور؟ أن ينبه الناس إلى الخطر الآخر، ويسهم في تجنيب العراق أن يؤخذ على حين غرة لتوجيه اقتصاده توجهاً لاعودة منه، في عقود طويلة الأجل طويلة الألم، وتنبيه الناس ليضطر الآخرين من السياسيين إلى اخذ مصالح الناس بنظر الاعتبار وان يخشونها؟

وما هذا الإغراق في الاستسلام لفكرة أن لا أحد يهتم بالسياسة الاقتصادية، وأن أحداً لايدرك خطر اليمين وان لا أحد يهتم حقيقة باليسار وان أحداً لن يصوت له وأن علينا أن نكون «واقعيين» ونتصرف حسب حجمنا؟ أما كانت هناك فرصة كبيرة لكسب أصوات الرافضين للطائفية والإرهاب واللصوص معاً لو كان للحزب صوت واضح؟

ذهب صاحبي منزعجاً من انه لم يتمكن من الدفاع عن حزبه كما يود، وانتهى الأمر عند هذا الحد.

قبل أيام ذهبت لزيارته فدعاني لقراءة بيان أصدرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي عن اجتماع اعتيادي. والحقيقة أني وجدت في البيان تطور نحو الأمام في التغلب على «الخجل من اليسارية» الذي كان يبدو مسيطراً على الحزب. فلم يكتف البيان بالاعتراض على خفض البطاقة التموينية بل جاء ناقداً محذراً من الـ «استجابة لنصائح وضغوط صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وأعضاء نادي باريس» وأن ذلك سيؤدي إلى «طرد الدولة من ميدان الاقتصاد، والتدمير التدريجي للطاقات الإنتاجية المحلية» وكذلك طالب بـ«العمل على إيقاف عمليات الخصخصة في الظروف الراهنة» وكل تلك العبارات تطور واضح بالنسبة إلى قراءتي للسياسة السابقة للحزب الشيوعي العراقي الذي كان يبدو أكثر حرصاً على علاقاته الشخصية بالشخصيات السياسية العراقية من حرصه على موقف مبدئي ولو بالحد الأدنى، والذي يفترض أن يعطيه شكلاً مميزاً عن الأحزاب الليبرالية، بل أنه كان يبدو حريصاً على أن لا يبدو مختلفاً عنها في شيء.

انفتح النقاش ثانية فقال صاحبي: لم وجهت نقدك لنا نحن فقط؟ إلا ينطبق كل ما قلت على بقية الأحزاب أيضاً؟ فأجبته لأني اعتبر النقد «معروفاً» وأرى الأقربون أولى بالمعروف.

وهذه المقالة أيضاً ليس الإضرار هو المقصود منها بل ما هي إلا هديتي إلى الشيوعيين العراقيين بمناسبة ميلاد حزبهم الثاني والسبعين. من المتوقع أن لاتروق تلك الهدية للعديد ممن أرسلها لهم لكني أحببت أن أرسل شيئاً أراه افضل من التحيات والتهنئات والبطاقات الملونة. شيء أن لم يستطع أن يغير أفكاراً فربما يثير نقاشاً ومراجعةً خاصة في هذا الوقت في انتظار مؤتمر الحزب الشيوعي العراقي الثامن.

آمل أن يتخذ الحزب إجراءات تعزز شكله اليساري ولا أقول الشيوعي أو حتى الاشتراكي. فأنا لا ادعوه إلى التأميم وحصر وسائل الإنتاج بالدولة





والتضامن الأممي.. الخ، بل إلى الموقف اليساري البسيط الذي تتجرأ على اختياره الكثير من الأحزاب حتى في الدول الرأسمالية ويلتف حوله الكثير من الناس، حتى من الكارهين للشيوعية والاشتراكية. أن بعض اليسارية ليس مرفوضاً بشدة حتى من أميركا، فقد تعودت التعامل معه عند الضرورة. وحتى أميركا نفسها لا تخلو من قوانين يسارية الطابع وإن كانت تهاجم باستمرار.

أن ما أدعو إليه أن يزيد الحزب احترام يساريته أكثر مما يفعل الآن فلا يتنازل عنها مقابل أي شيء غامض، أو حتى لاشيء. ما أرجوه أن تترجم تلك «الآراء» التي نشرت في بيان الحزب الذي ذكرته أعلاه إلى شروط في المفاوضات وإلى حملات توعية مبدعة تستفيد من الخبرة المتراكمة لليسار العالمي في هذا المجال، وإلى احراجات وضغط على القوى السياسية التي تدعي الدفاع عن مصلحة الشعب. أن تترجم إلى مواقف ونشاطات تضع العراقيل أمام ناهبي العراق الجدد وتدفعهم إلى التنازل على الأقل عن بعض طموحاتهم خوفاً من توجه الجماهير إلى البديل اليساري، وهو ما حصل في أوروبا بعد الحرب الثانية.

ما أتمناه هو أن يكون رضا اليساريون العراقيون عن أحزابهم اصعب منالاً وان يشترطوا على أنفسهم الشروط القاسية التي اشترطتها الخنساء على أشعارها لتفخر بها، ففي الموقف الصعب الذي يمر به العراق لايصلح التساهل مع الذات الذي كان لحسان بن ثابت مع شعره.

أخيراً أتتمنى أن يقبل صاحبي وحزبه هديتي المشاغبة هذه، وان يكون لهما قريباً جواب يفخران به حين يُسأل أحد منهما مستقبلاً: ما أيسر موقف وقفته؟

٢٠٠٦/٣/٣١

# لا ديمقراطية إلا في العراق: عشرة أدلة!

هذه أدلتي العشرة على أن ديمقراطية العراق تتقدم بمراحل على بقية العالم:

١ ـ الحق الوطني والحق الانتخابي: في العالم الديمقراطي كله يتم توزيع مقاعد البرلمان حسب نتائج الانتخابات، إلا العراق. ففي العراق اكتشفنا أن هناك إضافة إلى «الحق الانتخابي» فهناك «الحق الوطني»

الغير معروف في بقية أنحاء الديمقراطية. والحقيقة أنهم هناك يبدأون بقياس «الحق الوطني» من خلال الانتخابات، ليتحول إلى «حق انتخابي»، ثم هم يهملون «الحق الوطني» العظيم ويركزون على «الانتخابي».

أما لدينا فالأمر مختلف، ففي العراق يحتفظ كل إنسان (خاصة أن كانت تسانده قوة عسكرية) بـ«حقه الوطني» حتى لو لم ينتخبه أي إنسان. و«الحق الوطني» هذا أقوى من «الحق الانتخابي»، والدليل أن القيادة السياسية للأحزاب المختلفة تجتمع بعد الانتخابات لتشكيل حكومة «وطنية»، «لاتتجاهل» «الحق الانتخابي»!

٢ ـ المقاعد التعويضية: لكي لا يظلم أحد، في العراق نطبق، حسب تعبير فريد ايار، الناطق الرسمي للجنة الانتخابات المستقلة، ولأول مرة في العالم نظام «المقاعد التعويضية». وهذه المقاعد الـ ٤٥ توزع بطريقة لايفهمها إلا الله والراسخون في الديمقراطية. أنا شخصياً مثلاً حاولت البحث عن وثائق عن هذا النظام فلم أجد. وفي مرتين وجدت مقابلتين للدكتور فريد ايار يبدأ فيها بشرح النظام ليتوقف في منتصف المقالة معترفاً





بصعوبة شرح النظام ويتركني حائراً.

بعد الانتخابات، أشارت العديد من الأحزاب إلى انهم تفاجأوا أن نظام المقاعد التعويضية خدم الكتل الكبيرة على حساب الصغيرة. وكونهم تفاجأوا ولم يستطيعوا أن يعرفوا أن النظام يفضل الكتل الكبيرة مسبقاً، يدل على انهم مثلي، لم يفهموا هذا النظام المتطور، بل تظاهروا بذلك حين قبلوه.

في بقية أنحاء الديمقراطية ما زالوا يطبقون أنظمة بسيطة متخلفة يستطيع أن يفهمها كل من هب ودب.

٣ ـ الشفافية التامة: لاحاجة للحديث عن شفافية السياسة العراقية، فهي شفافة إلى درجة أن لا أحد يستطيع أن يرى منها شيئاً!

٤ ـ السفير الأمريكي يحضر جميع جلسات مفاوضات تشكيل الحكومة: كما ترى فإن شفافيتنا عالمية لاتقتصر على المواطنين. ورغم ذلك فهو لايتدخل، فهو رجل صديق فقط، كما قال رئيسنا، وإن تدخل فبالنصح فقط، ليس لأن سياسيينا عاجزين عن إدارة حوار وتكوين حكومة، بل من أجل تمضية الوقت.

٥ ـ حرية النقد: هذه أيضاً لاتقتصر على المواطنين في العراق فالسفير الصديق الآنف الذكر يهاجم الوزراء في الحكومة ويتهمهم بالطائفية «ولا حد يكلمه». في بقية العالم يطردون السفير فوراً عادة، أو يستدعيه وزير الخارجية للتنبيه والاحتجاج، أما لدينا فيزعل رئيس الوزراء قليلاً، ثم يتقبل «النقد» برحابة صدر.

٦ ـ الخطوط الحمراء: تدور الآن في هولندا معركة الانتخابات البلدية التي ستجري بعد أقل من أسبوعين. أن كل من حزب ليفبار روتردام وحزب العمل قد وضع خطوطاً حمراء على الآخر متعهداً لناخبيه أن لايشكل حكومة معه لعدم الثقة المتبادل بينهما واختلاف وجهات النظر مما يعرقل

إمكانية تشكيل حكومة محلية ذات إدارة فعالة قادرة على وضع برنامج سياسي وعلى إصدار القرارات.

عندنا نخجل من الخطوط الحمراء فهي «مراهقة سياسية» كما قال أحد سياسيينا، وأننا تجاوزناها و«عفى عليها الزمن» كما قال آخر. أحزابنا تفتخر أنها مستعدة أن تتفق مهما كانت الخلافات ومهما كان شكل الحكومة غريباً.. المهم أن يجلس كل واحد على كرسي وزارة. إننا لانقلق على موضوع برنامج الحكم وإصدار القرارات فالـ «رجل الصديق» موجود لخدمتنا ليلاً ونهاراً.

٧ ـ دقة نتائج الانتخابات: ليس أدل على ذلك من حقيقة أن نتائج الانتخابات في أنحاء الديمقراطية تعلن خلال ساعة أو ساعات من إغلاق الصناديق، أما لدينا فندققها وندققها وندققها ولا تعلن النتائج إلا بعد أكثر من شهر. والحقيقة أن بعض «الأصدقاء» لايمتلكون صبرنا. ففي التصويت على الدستور الذي جرى مؤخراً مثلاً، أعلنت رايسا النتائج قبل المفوضية مما اغضب الدكتور ايار قليلاً وقال أن كونداليزا لا يمكنها أن تعرف النتائج قبله. ثم أعلنت النتائج بعد أيام فكانت بالصدفة كما قالت كونداليزا.

٨ ـ في انتخاباتنا لا أحد يخسر: وهذا في العراق وحده دون غيره في العالم! انظروا مثلاً إلى الحزب الديمقراطي في أميركا. فاز مرتين بنصف أصوات الأمريكيين تقريباً لكنه مع ذلك خسر. وفي هولندا الأقرب إلى نظامنا البرلماني تعتبر الكتلة الثانية خاسرة، وكثير ما يتم تجاهلها من قبل الكتلة الأولى وتكوين حكومة مع آخرين.

أما في العراق فجميع الكتل الكبيرة فائزة، حتى التي حققت تراجعا عن الانتخابات السابقة أو حققت اقل مما تتوقع كثيراً! لذا فإن «الكتل الفائزة» تجتمع اليوم لتشكيل حكومة «وطنية». ونفكر حالياً بمشروع ديمقراطي ثوري مضمونه أن لاداعي للانتخابات، فالكتل الكبيرة معروفة مسبقاً وكل ما





عليها أن تذهب لتشكيل حكومة كل أربعة سنين، وأبوك الله يرحمه!

٩ ـ الجمعية وفية لأعضائها: وبشكل لامثيل له في العالم الديمقراطي! فهي لاتتخلى عن أي عضو حتى أن كان متهماً بسرقة مليار دولار، وكلما طلبت لجنة النزاهة إزالة الحصانة عنه، يغادر «ممثلوا الشعب» البرلمان لكي لايكتمل النصاب، حماية له وتضامناً وتأييداً مواقفه. الحق يقال أن إيطاليا تقترب حالياً منا في هذه النقطة، لكن طريقها مازال طويلاً، ثم أننا سنحرص على تطوير ديمقراطيتنا للحفاظ على تفوقنا.

١٠ ـ انتخاب ديمقراطي عالمي للحكومة: إلى درجة أن وزير الداخلية العراقي يجب أن يرضى عنه حتى دافع الضرائب الأمريكي!

والحقيقة أن الأدلة أكثر من ذلك لكني تعبت من الكتابة... إضافة إلى ذلك فإنها في تزايد مستمر. فـ «الهوة» بيننا وبين بقية العالم الديمقراطي المتخلف في اتساع مستمر، وهم مشغولون بمحاولة «ردم الهوة» بيننا وبينهم، وكما قال المطرب المرحوم عزيز علي: «واللي عمره طويل يشوف!».

٢٠٠٦/٢/٢٨

# دع الخجل وابدأ النفاق: دعوة عاجلة

السادة المنافقون المحترمون،

بمناسبة تولي الحكومة العراقية الجديدة لمهامها، نتوجه إليكم بالدعوة لاستغلال الفرصة والتقدم إلى أعضائها بما تجود به قرائحكم من مديح وتبجيل وتعظيم.

ورغم أننا نعتقد واثقين أن في كل إنسان مواهب نفاق قد تكون مدفونة، إلا أننا نوجه دعوتنا بشكل خاص للصحفيين والكتاب والشعراء والفنانين، ونخص منهم بالذكر مؤلفي وملحني الأغاني والرسامين، كما أن هناك فرص جيدة للنحاتين ومصممي مواقع الانترنيت والكرافيك بالحاسبات.

ومن ميزات الوضع الجديد وجود رجلين في السلطة بدلاً من واحد، يعني أن الفرص مضاعفة، وأنتم تفهمون.

كلنا ثقة أن لاتخيبوا آمالنا، مذكرين إياكم بان عمر هذه الحكومة بضعة اشهر فقط، لذا توجب التوكيد على السرعة. بالنسبة للرسامين نقول لا تلحوا بالفن فالناس لن ترى الفرق، المهم الحجم، وبالنسبة لكتاب الأغنية لاتهتموا للمعوقات البيروقراطية مثل الوزن الشعري، ولاتهمكم دقة الكلمات كثيراً ما دامت إيجابية، أما بالنسبة للملحنين فنصيحة اللجنة أن يركزوا على الألحان ذات الإيقاعات الراقصة، على أن لاتتنافى مع تقاليد مجتمعنا.

لانكتمكم أننا لسنا راضين أن يظهر السيدين الرئيسين (رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء) كبشر اعتياديين فيجب أن يتم إبراز عبقريتهما وتميزهما،





ليجمع الرهبة مع اللطف، أي «رحمن رحيم» لكن «شديد العقاب»، أما كيف يتم إنجاز ذلك فنتركه لكم. ألستم فنانين؟

ودعما من اللجنة الإعلامية للمبدعين فإننا سنوزع كتيبا تم تأليفه خصيصا لمساعدتهم على التغلب على العقبات الفنية والنفسية المعرقلة لعملهم، وعنوانه «دع الخجل وابدأ النفاق»، نقتطف لكم منه مايلي:

ذكر المواطنين بحياتها قبل الديمقراطية

يجب التركيز على الإيجابيات فشعبنا بحاجة لذلك. فيمكنكم إبراز إنجازات الحكومة الجديدة بمقارنتها بفترة مجلس الحكم، وفترة صدام مثلا، وطبعا لن تجدوا صعوبة في ذلك، لأن الأمور في هاتين الفترتين كانت من السوء بحيث انه مهما حدث يمكن اعتباره إنجازاً.. ركزوا على الإرهاب والكهرباء والحرية والديمقراطية، فإذا جاءت الكهرباء ساعة إضافية لفترة أسبوع، فيجب إظهارها كأنها تطور ستراتيجي، لكن إذا عادت لحالها السابق بعد أسبوع فيفضل تجاهل ذلك، لان ذلك لن يسهم في رفع الروح المعنوية للشعب.

### رسمه بالملابس المختلفة

لأجل إعطاء الشعب إحساس بأن القادة يمثلون كل ألوان الطيف العراقي نهيب بكم أن ترسموا السيد الطالباني ليس فقط بلباسه الكردي، ولا فقط بلباسه الأوربي الحديث، ولكن أيضاً وهو يلبس العقال وربما السدارة. أما السيد رئيس الوزراء فليظهر أيضاً كيزيدي مثلاً، فقد نحتاج إلى أي صورة لتناسب زيارات القادة لاي مكان.

### بقايا الجداريات السابقة والفلك

ورغم أننا على ثقة بأنكم تفهمونها وهي طايرة، لكننا نريد أن ننبه إلى إمكانية استخدام بقايا جداريات صدام في الساحات العامة والفلك لصنع

جداريات سريعة للسيد الرئيس ورئيس الوزراء، وكذلك المرشدين الروحيين للديمقراطية، ولن أقول لكم أكثر.

### بحاجة إلى الهتافين في اللقاءات

ورغم أننا نركز على ما هو مبدع وجديد، إلا أننا لن نستنكف قبول ما هو قديم، مثل مقاطعة القادة بالهتافات اثناء الخطب السياسية، ويمكنكم اعتبارها عودة إلى التراث. مع ذلك لاتقولوا «بالروح بالدم.. الخ» بل جدوا لنا كلمات تختلف قليلاً ولو بنفس اللحن. أننا نتوقع أن تستلهموا من سبقكم من مداحي صدام حسين، وفي نفس الوقت ننبه إلى أننا نتطلع إلى إبداعات جديدة. فكما تعرفون، لايجب أن يبدو الأمر مشابهاً لدعايات صدام بشكل مفضوح لأنه سيكون ذو أثر عكسي. لقد اتفقنا مع الرئيس انه لن يمسك ببندقية ويطلق منها النار أمام المتظاهرين ولن يتلكم بلهجة تكريتية، كما أنه لن يذهب لفتح الثلاجات في البيوت، ولن يقول «سلمونا عل ما شفناهم»، فيمكنكم انتقاد تلك المظاهر بلا قلق.

### ركزوا بين السطور

ركزوا جيداً على تصريحات الرئيسين، فقد وضعا فيها الكثير من الحكمة بين السطور خصيصاً من أجل تسليتكم وتنمية روح الاكتشاف والإبداع لديكم، ولتكن كلمات أغنية نجاة الصغيرة: «لو لم نجده عليها لاخترعناه» ملهماً لكم في عملكم في هذا المجال. ألستم مبدعين؟

### القائد الضرورة

يجب أن يفهم الشعب أنه يعيش على بركة الرئيسين وأنه بدونهما سيضل الطريق في الصحراء السياسية، وسيكون عرضة للاستغلال من قبل الإرهاب والفساد والإمبريالية والصهيونية.. وألا أقول لكم اتركوا الإمبريالية والصهيونية حالياً حتى إشعار آخر.





### لكل عملة وجهها الآخر

للمبتدئين في الصحافة بشكل خاص، نذكرهم بأن لكل عملة وجهين. لذا فيمكن بشكل عام دائماً تصوير أي خطأ على أنه حكمة عميقة، وأي خسارة على أنها مربح كبير، وأية هزيمة نصر ماحق. أما كيف تكتشفون الوجه الآخر، فهناك العديد من التكتيكات الممكنة، وأهمها الاسترشاد بالحكمة القائلة: «مصائب قوم عند قوم فوائد». فإذا ما سبب قرار للرئيس خسارة لطبقة من الشعب، لاسمح الله، ابحثوا عن طبقة أخرى استفادت من ذلك وركزوا عليها!

لكن تطبيق هذه الحكمة ليس سهلاً دائماً، فيجب أن يبدوا «الشعب» كله رابح دائماً. وعلى أية حال لن تكونوا أقل مهارة من الجيل السابق الذي كان يستطيع إظهار أي قرار على أنه إنجاز كبير، حتى لو كان إلغاء لقرار سابق، كان هو الآخر «إنجاز كبير» وقت إقراره.

### القنابل الإعلامية الذكية

نظراً لغنى ألوان العراق وتنوع سكانه قررت اللجنة كذلك أن تتبع أسلوب «الإعلام الموجه الذكي». فمثل القنابل الذكية الموجهة بدقة، يجب توجيه رسائل مختلفة لمختلف فئات الشعب. وهذا يطرح فرصاً إضافية وتحديات إضافية للإعلام. فمثلاً عندما تكتب عن الرئيس بالكردية اكتب كيف أنه استطاع بذكائه التغلب على العرب واصبح رئيسا عليهم، أما عندما تكتب عنه بالعربية فيمكنك أن تقول أن العرب تصرفوا بذكاء وقشمروا الأكراد بمنصب رمزي لايحل ولايربط. طبعاً لن تقولوا ذلك بهذا الشكل بالضبط، والمثل يقول «لاتوصي حريص».

أما بالنسبة للسيد رئيس الوزراء فسيكون في بعض مقالاتكم أول من استطاع فرض قوانين الإسلام في العراق، وفي مقالات أخرى سيكون أكثر حداثة من العلمانيين، وسيقوم سيادته، خصيصاً لمساعدتكم في عملكم،

بزيارات متكررة، ليس فقط للجوامع والحسينيات، لكن أيضاً لمعارض الفن الحديث وسيقوم بحضور عروض الفرقة السمفونية العراقية وتأسيس فرقة باليه عراقية جديدة. وفي مثل هذه الحالات سيتم إبلاغكم قبل فترة كافية لإعداد المقالات والأغاني المناسبة لتنشر وتبث فور قيام سيادته بالزيارات.

**نقد من هم حول الرئيس مسموح به ومحبذ**

أخيراً، وليس آخراً، نود أن نذكر هنا أننا نعيش في الديمقراطية وإننا لن نحجب حرية النقد، فنحن نؤمن بالشفافية، لكن طبعا لايجب أن تبالغوا في ذلك فتتحول نواياكم الطيبة إلى أدوات بيد أعداء الديمقراطية والفدرالية والإسلام. يمكنكم مثلاً أن توجهوا النقد إلى الوزراء وأعضاء الجمعية الوطنية على «أخطائهم» فذلك مسموح، بل هو محبذ أحياناً لأنه يبين عسر المهمة التي يضطلع بها السادة في القيادة لمعالجة نواقص من حولهم. نتمنى من الله أن يوفقنا ويوفقكم لما فيه خير كل الشرفاء في الوطن.

٢٠٠٥/٥/٣





# عهد شرف ضد التملق

عندما سأل صحفي البروفسور جومسكي: كيف يمكننا وقف الإرهاب؟ أجاب: بالتوقف عن المساهمة فيه أولاً. وبنفس هذا المنطق كتب الدكتور نصر حامد أبو زيد متسائلاً: تفكيك الاستبداد هل هو ممكن؟ ليجيب قائلاً: في تقديري أن تفكيك الاستبداد مسألة بسيطة وسهلة فحواها أن نكفّ عن «الهتاف».

التعظيم المبالغ تذلل لا علاقة له بالاحترام. فلا يقول أحدنا لأي من الذين يحترمهم ويقدرهم فعلاً كلمات مثل «جلالة» أو «سمو» أو «قداسة».

أن أي مخاطبة للمقابل بكلمة لايستعملها المقابل معك تعبر عن تذلل، إلا في حالة احترام الكبير والأب والأم ومثلها، وهنا تستعمل كلمات احترام بسيطة لا أثر للتمجيد فيها.

لذا فأنا ادعوا الصحفيين خصوصاً والناس عموماً إلى توقيع هذا التعهد أدناه لبدأ حملة للتخلص من هذا الوباء.

**حملة ضد التملق:**

إننا الموقعون أدناه نعلن رفضنا لأسلوب التمجيد في الخطاب واشمئزازنا منه، ونتعهد بتجنب الخطاب المتملق مع أصحاب السلطة، وبعدم استعمال الكلمات التعظيمية مثل:

فخامة، سعادة، دولت، سيادة، جلالة، قداسة، سمو، الموقر، المعظم.

وما شابهها في حديثنا مع أصحاب السلطة أو إشارتنا إليهم لأنها تساهم في فصلهم عن الناس وبث الخوف منهم وتسهيل بناء الدكتاتورية والإبقاء

عليها في أرواح الناس وأرواح المسؤولين.

إننا نعتبر أن استعمال تلك الكلمات لايعبر عن الاحترام بل عن الخوف وعدم الثقة لذا فإن اضطررنا يوماً إلى اللجوء إليها فإننا نعلن الآن ومقدما أن ذلك ليس بسبب احترامنا لمن نوجهها إليه بل لأننا مجبرون إلى ذلك لسبب أو لآخر، ولذا فهي إشارة سلبية إلى من نوجهها إليه.

٢/ ٢/ ٢٠٠٦





# الوحي زار حاكم العراق في المنام

إن كنت يا صاحبي حائراً لماذا يحكم المالكي العراق بهذا الشكل فاستمع إلى هذه القصة التي حدثت في الليلة الأولى لإسلامه الحكم في العراق، فلربما زال بعض حيرتك:

بعد نهار طويل مرهق مليء بالمفاجآت رأى الله سبحانه وتعالى حيرة عبده المطيع نوري المالكي وقلقه فقرر أن يزيل الهم عنه ويثبت فيه عزمه ليخزي أعداءه المتكالبين عليه ويرشده إلى الصراط المستقيم لتطبيق القانون بعدالة على جميع العراقيين بلا استثناء، ابتداء من أول يوم حكمه، أرسل له الوحي في المنام ويرشده إلى الطريق القويم وينصحه بما يجب عمله.

بعد البسملة والاستغفار والشكر لنعم الله، رفع الوحي رأسه ونظر في عين رئيس الوزراء وقال:

«وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْل» وأما بعد فوجب على حاكم العراق المبايع من الناس، تطبيق القانون بصرامة وعدل وبلا تمييز على الرعية. ولتعلم يا نوري بن المالكي أن الناس سواسية كأسنان المشط، فلا تكل بمكيالين واتق الله.

لذا حق لك وعليك أن تسجن جميع اللصوص وتحاسب جميع المشجعين على الطائفية والإرهاب وتحقق في كل من شككت في سوء عمله أو قوله، ولتنفذ أمر الله: «فمن يعمل مثقال ذرة خير يره ومن يعمل مثقال ذرة شر يره».

لكن وجب تنبيهك وأنت تقوم بما يأمرك الله به لتقيم القسط وتحق الحق

وتبطل الباطل أن تتبين ما يلي:

أن تتجنب إعدام أو سجن أو محاسبة أي سني من شعبك وإلا كنت طائفياً ظالماً. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وكذلك يأمرك الله أن تتجنب إعدام أو سجن أو محاسبة أي شيعي وإلا كنت خائناً مشاركاً في المؤامرة الأموية للقضاء على آل البيت فاستحققت غضب الله ولعنته إلى يوم القيامة.

واجتنب كذلك محاسبة ومعاقبة المسيحيين واليزيديين والصابئة وإلا كنت متعصباً دينياً، فخالفت أمره تعالى «لكم دينكم ولي ديني» وحق عليك حكم المخالفين.

ودع عنك محاسبة أي كردي أو تركماني أو آشوري أو ارمني وإلا كنت قومياً شوفينياً، والقومية والشوفينية بدع وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

واجتنب محاسبة أي سياسي من الأحزاب الأخرى وإلا صرت متحزباً ضيقاً تعمل على «إقصاء الآخر» فإن أنت فعلت عاقبك الله فملأ وجهك وجنبك بالخطوط الحمر يوم القيامة.

وإياك إياك أن تكلم بعثياً ممن «لم يثبت عليه الجرم» ونخص بالذكر من كان اختصاصه في الأمن العامة فتقطع أرزاقه، فإن كنت فاعلاً كنت اجتثاثياً وكسبت ذنوبه، لا أراك الله إياها. فإن دعوة البعثي الذي لم تثبت عليه تهمة، ليس بينها وبين الله حجاب.

ولتبق بعيداً عن أولئك الوزراء الذين حذروا يوماً من إيران فاكتسبوا عصمة رباعية: السيادة الوطنية والمكانة القومية والحصانة الطائفية والثقة الأمريكية. المعصومون لايسرقون حتى أن كانوا لصوصاً، لكنهم قد يأخذون! فمن حاسبهم إنما أراد الإساءة إليهم لإغراض سياسية «معروفة» بسبب تصريحاتهم ومواقفهم فقط.





أما أكبر الكبائر فمحاسبة أو التحقيق مع الأمريكان أو البريطانيين فاجتنبها مهما فعلوا ولا تقرب العراقيين الحاملين لجنسية أمريكية، فهذا طيش لايأتيك إلا بما لاتحمد عقباه، فإن أنت فاعل أخزاك الله في الدنيا دون الآخرة، كما فعل بالذين من قبلك، ولكم يا أولي الألباب في غيركم عبرة وعظة لعلكم تفقهون.

وإن كان لك أن تحاكم أحداً فلا تفعل لأهل الجاه والسطوة ومن كان عظيم الأذى، لأنك أن فعلت ونفذت حكمك كان ذلك حقداً انتقاماً فتكثر عليك اللعنات، وان عفوت كان منك ضعفاً وسقوطاً فتكثر عليك السكاكين.

وأخيراً أن أنت أغفلت أهل الجاه فإياك ومحاسبة الضعيف قليل الأذى فتصبح منافقاً فتهلك ومن معك: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد»

وفيما عدا هؤلاء ممن نهى الرحمن عنهم، فلك أن تطبق العدل في طول البلاد وعرضها وعلى من تشاء من عباد الله في أرض العراق فلا تأخذنك في الحق لومة لائم!

استيقظ المالكي فزعاً فرأى نوراً يتجه نحو السقف فيختفي. استغفر ربه وحمده وشكره على هديه ونعمته وأقام الليل يقرأ القرآن ويتفكر في أمره حتى لاحت تباشير الفجر فصلى وخرج ليحكم بما أمره الوحي به.

وباقي قصتنا تعرفها يا صاحبي... أرجو أن قد أزلت بعض حيرتك، ولك مني سلام.

١٣/ ١/ ٢٠٠٧

## إلقاء اللوم على البيادق: إلى أين نوجه أنظارنا في العراق؟

ليس ضرورياً للمقالة الممتازة أن تكون صحيحة كاملة، فيكفي أن تثير حواراً حيوياً قد يفضي إلى نتائج. مثل هذا الوصف ينطبق على المقالة الجميلة التي كتبها صديقي الكبير لطيف والمعنونة «ثمن الرقاد»(*).

يحدثنا لطيف عن أخيه العائد من أميركا في الستينات إلى قريته البسيطة (الكروية في جلولاء أن لم أكن مخطئاً)، وكيف أنه أثار أبيه والقرية حينما «كفر» وقال أن العلم وصل إلى القمر، فحصل جراء ذلك على ضربة «كلاش» من أبيه الذي طرده. اعتذر «حسن» صباح اليوم التالي عن زلة لسانه وانتهى الأمر هنا.

يذكر لطيف الحادثة بألم ويبين لنا كيف أنا في الشرق كنا نرقد ونحافظ على رقادنا بينما العالم كان قد وصل إلى القمر، لندفع فيما بعد «ثمن الرقاد» غالياً.

يتساءل لطيف بحق عن الجهل المنتشر في الشعوب العربية، وحتى اليوم قائلاً: «هل كان مثال أبى بعيداً عن قطاعات واسعة من شعوبنا العربية وحتى اليوم؟».

نعم يتساءل بحق، ولكنه لايوجه مصباحه إلى حيث يجب. أنه يوجهه نحو الجهلة الأميين من العرب وغيرهم من سكان هذه المنطقة. فرغم مساهمة هذا الجهل الكبيرة في أن تدفع هذه الشعوب ثمن رقادها كبيراً، لكن مسؤولية ذلك الرقاد لا تعق على عاتق هؤلاء وحدهم، بل انهم ليسوا أهم المسؤولين عن ذلك.





عندما أقارن بين العراق وهولندا، يثيرني الفرق بين العامل هنا وهناك، لكن يثير اهتمامي أكثر الفرق بين المثقف هنا وهناك. الفرق بين الفلاح العراقي والهولندي، أو حتى الغجري الهولندي، واضح تماماً، لكن الفرق بين المثقفين فرق خفي، يختبئ تحت ملابس متشابهة وتصفيفات شعر متشابهة وحركات متشابهة، وحتى شهادات متشابهة.

لكن الفرق واضح لمن يتأمله. فرق في نظرة المثقف إلى نفسه أولاً. المثقف الغربي يعي أولاً وقبل كل شيء حقوقه كاملة ويعي حدودها. لايسمح لأحد أن يدوس عليها ويمتنع عموماً عن أن يدوس حقوق أخرى.

«حسن»، اعتذر من والده، وذهب ربما يبحث عن عمل وبقيت الكروية بعد مجيئه كما كانت قبله. لو كان حسن مهندساً أمريكياً فلعله كان قضى ليلته يفكر ليس فقط بكيف يراضي والده، ولكن أيضاً كيف يغير هذا الوضع في قريته وأهله. لو كان حسن بريطانياً أو هولندياً، لما رضيت له كرامته أن يرى خطأً كبيراً حيث يعيش دون أن يحاول إصلاحه. فحسن، لو كان غربياً، لكان قد تعلم منذ صغره الاعتماد على النفس، وعلى استلام القيادة عند وجود فرصة لذلك، ولبذل جهداً في محاولات متتالية ليغير عالمه إلى شيء اجمل، ولتمتع وهو يرى ثمار جهده في وجوه أهله وفي حديقة جديدة دفع شباب القرية إلى إنشائها أو نظام لنقل الأزبال من القرية يتناوب عليه شخصان كل يوم، أو نظّم مسابقة غير مألوفة لمدرسة أطفال القرية...

في كتابه الرائع «منبعا الأخلاق والدين» يرجع هنري بركسون منشأ الأخلاق إلى كون الإنسان كائن مزدوج نصفه فردي ونصفه الآخر اجتماعي. فلا هو تام الاجتماعية كالنمل، ولا هو منفرد بعائلته كالنمور، فهو ضعيف جداً بمفرده ولن يكون قادراً على البقاء. هذا الازدواج خلق

شكل الحياة البشرية وأعطاها لونها وخصوصيتها وتركيبها، وما الأخلاق إلا حل اخترعه الإنسان لمشكلة الولاء المزدوج للإنسان لكل من فرديته من جهة واجتماعيته التي لا غنى له عنها من الجهة الأخرى.

إذا اتفقنا مع برغسون فإن اجتماعية الإنسان تمثل نصف كيانه البشري. لكن الحياة المشوهة التي عانى منها البشر خاصة في الظروف الدكتاتورية والاستعمارية والاضطهاد عامة، ضغطت أكثر ما ضغطت على هذا النصف وشوهت نموه ليصيبه الضمور وليصبح الإنسان معوقاً اعرجاً، ثم ليتعود هذا العوق حتى لا يعود يراه.

لقد شجعت أنواع الأنظمة غير الديمقراطية وحتى الديمقراطية الناقصة هذا القتل للجانب الاجتماعي عن وعي تام. فأخطر ما يمكن أن تتهم به في نظام دكتاتوري هو الانتماء إلى حزب، أو حتى إلى تجمع أو نقابة لايسيطر عليها الدكتاتور، بل يصل الأمر في الطوارئ إلى منع تجمع أكثر من شخصين أو ثلاثة في مكان واحد!

يقول جومسكي، إننا لو قرأنا التأريخ جيداً لوجدنا أن معظم الإنجازات التي حققتها البشرية أنجزت عن طريق مجاميع من الناس، لكن التركيز دائماً في التأريخ والقصص على بطولة الأفراد الإعجازية كسبب للإنجازات.

أرسل فارس، صديقنا المشترك رسالة إلى لطيف ولي يشير فيها إلى ما قرأه للدكتور الوردي في (لمحات اجتماعية من تأريخ العراق) عن الكواكبي والأفغاني وفهمهما للنهضة العربية الذي يرتكز بالأساس على مقاومة الاحتلال البريطاني لمصر بشكل مباشر، حتى ظهور وبروز تلميذ الأفغاني (محمد عبده) الذي رأى مقاومة الاحتلال على مرحلتين الأولى نهوض العربي من الداخل، من داخل نفسه، بتخلصه من جهله ووصوله إلى نفس المستوى العلمي والفكري والإنساني للمحتل، ثم تبدأ المرحلة الثانية، المقاومة.





يسأل فارس أخيراً: إلا تعتقدان أننا بحاجة شديدة أن نكون متعلمين، للحد الأدنى، لكي نعرف بأية تقنية عبر الأمريكان المحيط ليحتلوا العراق!!

في رأيي أن «تعلم الحد الأدنى» ليس تعلماً تكنولوجياً بل اجتماعي - سياسي. فيمكننا أن نتعلم تقنية عبور المحيط أو حتى الوصول إلى القمر، ومع ذلك قد نكون متخلفين، خاصة إذا كان قياسنا للتقدم هو القدرة على الحياة بشكل حضاري وليس القدرة على عبور المحيطات لضرب بلاد أخرى، فلم يكن ذلك ينقصنا على الإطلاق يوم كان صدام يسوقنا كالخراف إلى مذابح الغزو، الواحدة تلو الأخرى. فلو كان لدينا من الحضارة الاجتماعية ما يكفي لمنع دكتاتور من استلام مقاليدنا، أو على الأقل تحديد قدرته على الإساءة إلينا لوصلنا إلى القمر مرتين. ليس هذا كلام جزاف، فلقد كانت الحرب العراقية الإيرانية في إحدى مراحلها، يوم كان صدام يطلق صواريخه المجنونة (أرض - أرض) على أهالي طهران ويفخر بجعلهم يباتون في الطرقات خارج المدينة، كانت الحرب تكلف العراق مليار دولار في اليوم الواحد!

أو تعلمون كم كانت كلفة إنشاء مركز الفضاء الأوربي؟ ١٠ مليارات دولار فقط!! كلفة ١٠ أيام من الصواريخ الإجرامية تلك في حرب بلهاء. البعض حول الثروات في بلاده إلى سعادة وعلوم وقوة، والآخر حولها إلى نيران تحرقه وتحرق من حوله.

ليس النقص في العلم بل في الخيار السياسي الاجتماعي والأخلاقي. لم يكن العراق أكثر الدول تخلفاً علمياً، ولو كان أكثر علماً بمرتين مما كان لتم إحراقه بنفس الطريقة، ولم يكن السبب في تلك الكوارث جهل البسطاء من أمثال والد لطيف بل في الطبقة المتعلمة التي لم يعلمها أحد بحقوقها وحدودها بل وواجبها في اختيار طريقها في الحياة مثلما تعلمت الحساب والقراءة والجغرافيا والفيزياء، وقبل هؤلاء جميعاً. فالاستقلالية ورفض

الانقياد عناصر أساسية في نضج الشخصية الإنسانية. ولو لاحظتم طفلاً بين سنته الأولى والثانية، لوجدتموه يتزايد عناداً ورفضاً يوماً بعد يوم. والحقيقة انه لا يرغب في المشاكسة لنفسها، بل هو يبني أحد أهم أسس شخصيته واستقلاله بالتمرن على كلمة «لا»! لكن الحياة غير الصحية تخرب كل ما تعلمه بعد ذلك وتشوه تطور نصفه الاجتماعي.

لست بصدد إلقاء اللوم على أحد، فالخطأ المتوارث جعلنا فريسة سهلة نسبياً لتعاون طامعي الخارج ودكتاتورية الداخل. إنما ما أريد التنبيه إليه هو أهمية تربية الإنسان ليكون مدافعاً شرساً عن حقوقه كاملة، ورافضاً الاعتداء على حقوق غيره. وما آسف له أن من تعلم في الخارج اكتفى عادة بتعلم ما يقدم له من دروس دون أن تثير فضوله تلك الحركة الاجتماعية التي خلقت الدوافع والظروف اللازمة لتقدم الأمم التي درسوا في بلادها. لم يثر فضولهم وإعجابهم وغيرتهم الشيء الغريب الذي يسمى المبادرات الاجتماعية والإصرار على التغيير الذي في الفرد الغربي.

لقد لاحظ العائدون إلى بلادهم التخلف، ثم قالوا لأنفسهم أن الظروف تختلف وحصلوا على عذرهم للتوقف. ولو كانوا تعلموا روح المبادرة والمطاولة الغربية لألح عليهم السؤال: حسناً، ولكن كيف نتصرف؟ ما هو الحد الأدنى الممكن إنجازه في هذه الظروف غير المناسبة؟ ليست الفكرة في البحث عن الطريقة المعجزة التي ستغير المجتمع مرة واحدة، أنها في البحث عن الخطوة الممكنة، الخطوة السحرية إلى أمام، إلى هدف معقول يمكن تحقيقه.

كيف نبدأ؟ اليوم تقدم الإنترنت والقنوات الفضائية مجالاً رحباً لاستيحاء الحياة الاجتماعية من الذين حققوا فيها إنجازات كبيرة في الخارج، وتعلم الأساليب التي وصلوا بها إلى أهدافهم، وانتقاء ما يمكن تطبيقه في بلادنا وما يحتاج إلى تعديل ليناسبنا. لكن من الضروري أن تكون هناك





إرادة لها القدرة على المطاولة حتى في الظروف الصعبة.

أستاذ الشطرنج الكبير «تاراش» معروفاً بقدرته على الصمود وإنقاذ المواقف اليائسة في دسوته، كان يقول:

«من هذا الموقف علي أن أحيا»، ولعل في حكمته ما ينيرنا.

أما تحديد ذلك الهدف، فأي شيء تريده للمجتمع يمكن أن يصبح هدفاً، وأي نقص تراه يمكن أن يؤشر إلى هدف. واحد أهم الأهداف في مجتمعاتنا إنشاء أو تشجيع شبكة ترابط اجتماعية. شبكة تحول الأفراد إلى مجتمع. ليس هذا أمراً بسيطاً، فالتجمع بحاجة إلى أن يدار. ونحن العراقيون مثلاً عندما نجتمع في هولندا فلا أحد يعرف متى يجب أن يتكلم، وان تكلم فلن يسكت إلا بعد أن يسكته أحدهم، ولا يعرف بوضوح أية مواضيع يمكن طرحها وأيها لا. فإدارة الاجتماع مهارة يجب تطويرها للوصول إلى فعالية مناسبة.

رغم ذلك نلاحظ بابتهاج بعض النشاطات الإيجابية تتزايد مع الوقت بعد زوال ضغط الدكتاتورية ورغم الإرهاب. في الحلة مثلاً جهود رائعة لمنظمات الدفاع عن حقوق الإنسان وغيرها، وكذلك رأيت في بعقوبة حركة جميلة أرجو أن لا يغتالها الإرهاب المتزايد. كذلك لنا أن ننظر بإعجاب إلى الحماس والشجاعة والنشاط في الحركات النسائية في مختلف أنحاء العراق ونأمل منها خيرا كثيرا. وهناك في كردستان العراق تجارب ناضجة تبشر بالكثير من الخير في مختلف المجالات. وفي مصر نتابع باهتمام شديد التطورات الخطيرة التي يسعى بها شجعان من الشعب المصري إلى المزيد من الديمقراطية في وقت يسيطر فيه اليأس والخوف على الشعوب العربية.

هذه امرأة زنجية تقرر أن توقف التمييز العنصري في الباصات في أميركا فترفض الوقوف ليجلس ابيض مكانها، ليتحقق حلمها، وهذا قس في

أميركا الوسطى ينجح في حملته لحماية الغابة التي يحبها من مشروع صناعي يهددها، وهنا يتجمع شباب في خيمة أمام بنك فتعدهم إدارته أن تتوقف عن التعامل مع شركات صناعة الألغام. لا يجب أن نتصور أن الأمر سهل دائماً في هذه البلدان، وقد يدفع البعض حياته ثمناً دون أن يحقق العدل الذي يراه والقيمة الإنسانية التي يطمح إليها مثلما دفعت راشيل كوري حياتها تحت شفل إسرائيلي عندما حاولت منعه من هدم منزل فلسطيني.

لكن دعونا لا نبحث عن البطولات بل عن ما يمكن لإنسان اعتيادي أن يتجرأ عليه من خطأ، وأهم ما يحتاجه البلد تلك الصلات بين الأفراد. هذه الصلات والتجمعات ليست أمراً سهلاً تماماً وهي بحاجة إلى من يستطيع أن يحثها على العمل وان ينظم نشاطها ويوصله إلى النتائج التي يهدف التجمع إليها. ما هي الخطوة الأولى؟ كيف السبيل للحصول على المال اللازم للعمل؟ كيف يجمع التبرعات؟ بل كيف يعود مجتمعه على دفع تبرعات لأعمال نافعة عامة؟ أية علاقات يحتاج المرء ليتمكن من تحقيق هدفه الاجتماعي؟ كيف يقنع الناس والمسؤولين بهدفه؟ كل هذه المعارف تنقص الشعوب التي عانت من الدكتاتورية، وليس الأمر صدفة. فالدكتاتورية ترتعب من التجمع، وكلنا يعرف ذلك، والرأسمالية لا تحبه أيضاً، فصاحب المعمل يتمنى عمالاً أفراداً لا علاقة بينهم ولا نقابات تطالب بشروط أفضل، شروط مكلفة بالنسبة له. هذه الأمور برأيي، أهم كثيرا لشعب العراق من الصعود إلى القمر، حتى وان كانت اقل لمعاناً منه.

ما أراه أن المشكلة الأساسية هي في إدراك كل إنسان لحقه الكامل في تقرير مصيره وفي أن يلعب دوره في تشكيل مجتمعه من خلال إقناع أفراد مثله بالخطوة التي يهدف إليها. هذا الحق لم يربيه أهلنا ومجتمعنا بنا، لذا فيجب أن ندخله في عقولنا حشراً.





يدعو لطيف في نهاية مقالته إلى «أن نضع المفكرين في الأماكن التي تليق بهم» وهو أمر صحيح بلا شك، لكنه ليس المشكلة الأساسية! فإن لاحظنا ما يريد لطيف، كمثال لناشط واع ومثقف ومخلص تماماً، نجد أن هدفه في النهاية أن نضع لأنفسنا الحاكم المناسب، من «المفكرين». لكن الحاكم المناسب قد يصبح غداً غير مناسب، وقد نكتشف (بعد فوات الأوان) أن المفكر الذي نصبناه، كان أنانياً.

أن ما نحتاج إليه وما يجب أن نركز على بنائه ليس الحاكم الممتاز، بل النظام الممتاز، القادر على أن يضع الحاكم المناسب ويراقب عمله ثم يغيره بسهولة متى رأى غيره انسب منه. هذا النظام أهم كثيراً وأكبر كثيراً من وضع الحاكم المناسب في الحكم، أو المدير المناسب على رأس دائرة أو شركة.

لكن من مساوئ هذا النظام انه لن يسمح لنا بـ «الرقاد»، بل يبقي مهمة الحكم الحقيقية في أيدينا، فلا يكون الحكام إلا نواباً للشعب في الحكم لاحول لهم ولا قوة بدونه. يجب أن لانبحث عن حاكم مفكر ولا حاكم طيب ولا حاكم مخلص. ولا يجب أن نطلب حكما عادلاً فقط، ولا نكتفي حتى بـ«المشاركة بالحكم» بل يجب الهدف إلى إيصال الوعي بأن الحكم كله للشعب وحده، وأن يبقى هذا الوعي يؤشر إلى الهدف حتى في حالة عدم إمكان تحقيقه.

شكراً يا لطيف، فمقالتك الممتازة أثارت نقاشاً اظنه لم ينته بعد...

٢٠٠٦/٥/٢٠

## التوافق هو الحل...
## إن لم تكن هناك مشكلة تتطلب الحل

ترددت وتتردد كلمة «التوافق» في أخبار الدستور وتصريحات المسؤولين العاملين على الإعداد له. وبالطبع، فإن لهذه الكلمة معنى جميلاً محبباً، يوحي بالتقارب ونبذ الخلافات وسيادة روح التفاهم، بل أن التوافق أكثر ألفة من التفاهم. وهكذا أيضاً بدا المسؤولين المذكورين كلما تحدثوا عن «التوافق».

عضو الجمعية الوطنية العراقية جلال الدين الصغير: «إن اعتماد الأباء والمقترحات في اللجنة لن يكون على أساس التصويت، لذا فان العدد غير ذا أهمية حيث سيكون الأساس هو التوافق».

عضو المكتب السياسي للحزب الإسلامي علاء مكي عبد الرزاق: «الحل الوحيد يكمن في التوافق السياسي واستمرار الحكومة ببرنامج توافقي حتى النهاية».

عضو اللجنة الدستورية في الجمعية الوطنية بهاء الاعرجي: «إن جميع قرارات الهيئة ستكون بالتوافق وليس بالتصويت».

عضو المكتب السياسي للحزب الإسلامي في العراق نصير عايف حبيب العاني: «أصبح عدد أعضاء اللجنة ٧٠ و١٠ استشاريين وخبراء، على أن تمضي الأمور كلها بالتوافق وليس بالتصويت. وسيكون هذا أكثر ضماناً».

حاجم الحسيني: «وبما أن الانتخابات لم تجر في كل المناطق فيجب البحث في طرق أخرى للتوصل إلى حل فَضل ويرضى كل الأطراف، لذا





فإن الأمور ستتم بالاعتماد على التوافقية».

مسعود البارزاني بحث مع إياد علاوي وشددا على ضرورة أن تكون كتابة الدستور على أساس «التوافق».

يتمتع «التوافق» بشعبية وتأييد واضحين من قبل الساسة العراقيين من مختلف القوميات والطوائف والأحزاب، ولم اقرأ أو اسمع أن أحداً شكك به، فما هو بالضبط، وهل لنا أن نتفاءل باختياره طريقاً لكتابة الدستور؟

عضو الجمعية الوطنية العراقية، عضو المكتب السياسي للاتحاد الوطني الكردستاني والنائب الأول لرئيس لجنة كتابة الدستور العراقي الدائم، الدكتور فؤاد معصوم يخبرنا: «أن المشروع ستتم صياغته «بصيغة توافقية» بين جميع ممثلي الشعب، وليس في ضوء المحاصصة!».

لكن الدكتور فؤاد لا يوضح لنا كيف يلغي التوافق «المحاصصة».

أما الدكتور اياد علاوي فيعتبره حلاً لـ «مشكلة الأغلبية والأقلية»: «لا يجوز أن تجور فئة على أخرى وتفرض نفسها قسراً، بل يكتب الدستور على أساس التوافق وليس له أية علاقة بالأغلبية والأقلية».

الديمقراطية ليست إلا طريقة لـ «تجور» الأغلبية على الأقلية إذن.. إنها سيئة!

الناطق الرسمي لمجلس الحوار الوطني صالح المطلك يرى في «التوافق» بديلا عن «التصويت»: «وكتابة الدستور هو استحقاق وطني وليس استحقاقاً انتخابياً.. مؤكدين أن الموافقة على الدستور من قبل هذه القوى ستكون بالتوافق وليس بالتصويت».

لحسن حظنا أننا تخلصنا من «التصويت» أيضاً...

مريم الريس المقرر في اللجنة القانونية في البرلمان العراقي شددت على ضرورة إشراك العرب السنة في اللجنة الدستورية، كون أن الدستور سيكتب

لفترة طويلة من تاريخ العراق وليس لفترة محددة وإنه يخص كافة العراقيين وليس طائفة معينة، وقد تم الاتفاق داخل اللجنة الدستورية على جعل اتخاذ القرارات داخل اللجنة الدستورية تجري بالتوافق بين الأطراف المشتركة.

هل نفهم من هذا أن «التصويت» و«الانتخابات» تخص طائفة معينة، وليست مفيدة لكل العراقيين بشكل عام؟

هذا الطرح يشبه طرح قاسم داوود، عضو لجنة كتابة الدستور عضو الجمعية الوطنية حين قال «أن كتابة الدستور ستتم وفق «مبدأ التوافق» وليس على مبدأ التصويت».

لكنه يضيف: «ولذلك فإن عدد المشتركين من العرب السنة في اللجنة الدستورية غير مهم ولا أساسي لأن الاعتماد في طرح الآراء والمقترحات لن يكون على أساس التصويت، لذا فان العدد ليس بتلك الأهمية ما دام المعتمد هو مبدأ التوافق».

مما يوحي بأن مبدأ «التوافق» جيء به لحل «مشكلة السنة»، أو بالأحرى من قالوا إنهم يمثلون السنة..

ولكن ما هو «التوافق»؟ وكيف حلت هذه الكلمة السحرية الاشكالات التي يبدو أن التصويت والمحاصصة وغيرها من أساليب الوصول إلى قرار، عجزت عنها؟ أن لوقع الكلمة نفس الأثر المقلق لشيء يبدوا اجمل من أن يصدق!

فمثلاً... ما شعوركم أن قال ممثلينا في البرلمان انهم سيعتمدون مبدأ «الحب» لكتابة الدستور؟

هل يجب أن نقلق، أم نشارك سياسيونا تفاؤلهم بـ«التوافق»؟

لو أمعنا النظر، لم نجد لـ«التوافق» من معنى غير الفراغ... الفراغ من أي مؤشر إلى وجود أي نوع من الاتفاق على أسلوب أو خطة عمل لتجاوز أي خلاف! فما تتفق عليه جميع أطراف كتابة الدستور، لن يحتاج إلى حل.





القوانين لم تكتب يوما لتتدخل بين شخصين «متفقين» تماماً، والاتفاقيات ليست إلا حلاً وسطاً لمصالح مختلفة وآراء مختلفة. ما يحتاجه الفرقاء كأسلوب للعمل، هو ما يريهم الطريق إلى الوصول إلى قرار عند الاختلاف.

وبما أن «الخلاف» أمر طبيعي لامناص منه لأي تجمع، فما يحتاجه الناس هو أسلوب لـ «إدارة الخلاف»

- http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp&aid=40343

والتصويت، ذلك الذي تتبعه الشعوب المتحضرة، هو «الإدارة» الأكثر ديمقراطية لأي خلاف، لأنه يحترم رأي الأكبر عدد ممكن من الناس، حين لايمكن احترام آراء الجميع. لكن يبدو أننا سبقنا تلك الشعوب فتوصلنا إلى «التوافق».

جواد المالكي: وضح ذلك قائلاً: ما نتفق عليه يجد طريقه للدستور وما نختلف عليه يعطل!».

أي، أن أي عضو، مهما كان عدد من يمثلهم من الشعب العراقي قليلاً، أو ربما لايمثل أحداً على الإطلاق، يستطيع وفق هذا المبدأ، أن يمنع أية نقطة لاتعجبه من الدستور!. هكذا إذن ستكتب أهم وثيقة في عمر الشعب العراقي!

هل هناك أمل إذن في كتابة الدستور؟ ربما، ولكنه على كف عفريت! وعلى أية حال فان كتب الدستور فسيكتب بـ«الضغط» على الكتبة من جهة ما، وسيعكس الضغوط ومصالح أخرى.

يضيف المالكي قائلاً: «ولكن إذا اختلفنا على النقاط الثلاثة أو الأربعة وتخندق كل منا عند رأيه، فقد نحتاج إلى تمديد لشهرين أو ثلاثة».

همّام حمودي يوضح: «ولكن إذا أرادت بعض الأطراف طرح الموضوع بشكل يتناسب وينسجم مع تطلعاتها فقط [...] ودون أن يكونوا مستعدين أن يقدموا نوعا من التوافق والتراضي مع الآخرين، قد نصل إلى مشكلة».

الشعب العراقي الذي غامر بحياته لينتخب، ثم رفع إصبعه البنفسجية فرحاً بإنجازه، صار هو ومستقبله رهينة نخوة أي طرف من أطراف كتبة الدستور إذن. صحيح انه يستطيع رفض الدستور الذي سيكتبوه، لكن من غير المسموح له أن يكتب الدستور عن طريق ممثليه. فإن كان يريد دستوراً، عليه أن يقبل ما يقدمه له «التوافق» ويتمنى أن يشعر الكتبة بالمسؤولية لـ«يقدموا نوعاً من التوافق والتراضي» مع بعضهم، لكي لا نصل إلى مشكلة!

ليست هذه حال شعب أخذ مقدرات مصيره بيده، كما يفترض أن تكون الديمقراطية، ولكن دعونا لانيأس، ولنصلي جميعاً ونتضرع لله أن لا تكون هناك «مشكلة» لأن الحل الذي لم يجد سياسيونا خيراً منه، أعجز من أن يحل أية مشكلة.

لنتفاءل... فـ«التوافق» حل رائع، بشرط أن لاتكون هناك أية مشكلة يتوجب حلها!

١/ ٧/ ٢٠٠٥





## إدارة الخلافات

مساء أحد الأيام في دنهاخ (لاهاي) في هولندا، قبل بضعة سنين، كنا نستمع إلى الدكتور نصر حامد أبو زيد يحدثنا عن الديمقراطية. وعندما يتحدث الدكتور نصر، فانه يترك في ذاكرتك عبارات لايسهل التخلص منها. ومن هذه التعبيرات التي بقيت لدي، قوله في بداية محاضرته، وعلى قدر ما تسعفني ذاكرتي من دقة:

«الفرق بيننا وبين الغرب، أننا حاولنا أن «نحل» خلافاتنا، ولما لم نجد طريقة لذلك، بدأنا في الشرق ولم نزل في محاولة القضاء على المخالفين لنا بالرأي، معتقدين أننا بذلك «نقضي على الخلافات».

لكن الخلافات عادت للظهور طبعاً، واستمرت الحرب والدماء بين المختلفين. وبينما كنا مشغولين بتكرار تجربة الحل العنيف لخلافاتنا، كان الغرب قد أدرك مبكراً أن «الخلافات» مسألة ثابتة في صميم المجتمع الإنساني، وأنها لايمكن أن «تحل» وتختفي، لذلك توقف عن محاولة القضاء عليها وبدأ يبحث عن طريقة لـ«إدارة الخلافات» فتوصل إلى الصيغة الديمقراطية.

بهذه الطريقة أمكن للناس المختلفين في الآراء أن يتعايشوا، وان يحصل كل منهم على فرصة للتعبير عن رأيه والسير فيه.

انظروا إلى أضوية المرور.. إنها تعبير عن ثقافة الديمقراطية في الغرب، حين تعطي الفرصة للسيارات والناس أن تسير في اتجاهات مختلفة متقاطعة، لكنها تديرها بحيث لايصطدم هؤلاء ببعضهم، في حين لم يجد حكام

الشرق من حل لتلك المشكلة إلا أن يسير الجميع في اتجاه واحد، الاتجاه الذي يقرره الحاكم بالطبع».

لا أدري أن كانت العبارة من ابتكار الرجل، لكني ممتن له إيصالها إلى على الأقل. أنا مدين منذ ذلك الحين إلى الدكتور نصر بذلك الوحي الذي تنشره تلك العبارة المركزية الجميلة، عبارة «إدارة الخلافات»، على مجمل ما أفكر فيه سياسياً وشخصياً.

٢٠٠٥ /٦ /٢٥





# مشروع الدستور الديناميكي

يكتب الدستور في العادة بصيغ ثابتة يصعب تغييرها وذلك لغرض تثبيت شروط الحياة الأساسية للمواطن ودوره في البلد. هذا الهدف من الأهمية والخطورة بحيث يستحق التضحية بالمرونة التي يفترض أن تتحلى بها قوانين الحياة الاجتماعية، لتناسب وتواكب التغييرات الفعلية في المجتمع. لذلك يضع الناس شرطاً قاسياً لتغيير الدستور يتمثل عادة بأغلبية الثلثين. وأساس ذلك أنه في حالة سقوط الوضع السياسي في البلد، فإنه يكفي أن يحافظ ثلث أعضاء البرلمان على شجاعتهم من أجل عرقلة إسقاط القانون الأساسي، إضافة إلى توفير حماية افضل للأقليات.

لكن وسائلنا لـ«عرقلة الدكتاتورية» من الوصول إلى الحكم، تستطيع أيضاً «عرقلة التقدم» بنفس الطريقة والسهولة. ولدينا أمثلة كثيرة وواضحة. على سبيل المثال أن حق التصويت للمرأة في أحد الكانتونات في سويسرا تمت عرقلته دستورياً من قبل أقلية إلى حتى قبل بضعة سنوات! وفي هولندا فشل كل محاولات الراغبين في تطوير الديمقراطية في إدخال الاستفتاء الشعبي الإلزامي إلى الدستور الهولندي، رغم أن تلك المحاولات بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر!

فالدستور إذن يعاني من مشكلة جمود في طبيعته، ولذا تعتبر لحظة كتابته ذات أهمية بالغة للشعب. فالدستور عامل تثبيت يثبت الجيد والسيء بلا تمييز، ومن سعادة حظ شعب أن يتمكن من كتابة دستور لايحتوي ما يعرقل تقدمه مستقبلاً، دون أن يكون سهل الاستغلال من قبل أعدائه في الأوقات الحرجة من تأريخ البلد. بسبب هذا الجمود بالذات، يتجنب الناس أن يوضع في

الدستور إلا ماهو ضروري يخشى عليه من غدر غادر في لحظة سوداء.

القيود الدستورية الجامدة تصمم للصمود أمام سيأتي به المستقبل من ظروف سياسية. وبما أن المستقبل مجهول، فعلينا أن نحصن تلك القيود بأقصى ما نستطيع. هذا صحيح غالبا، ولكن ليس دائماً. فيمكننا، لو بذلنا بعض الجهد، استشفاف اتجاهات المستقبل إلى درجة ما، في نقاط معينة. ويمكننا عندها الاستفادة من هذا الاستشفاف لتحديد مقالقنا قدر الإمكان بما هو واقعي منها، وصولاً إلى تضييق نطاق المواضيع التي تخضع لتلك القيود، من ناحية، وصياغة تلك القيود صياغة تعطينا اكبر قدر ممكن من المرونة اللازمة للتقدم الإيجابي.

فالفكرة الأساسية هي أن نكتب دستورا متغيرا بدرجة ما مع الزمن، بحيث نستطيع أن نزيد قيوده في السنوات الأولى لتطبيقه، ونخفضها في السنوات التالية. بذلك لانكسب فقط المزيد من المرونة للمستقبل، بل أيضاً المزيد من الثبات للحاضر.

وبعد أن فصلنا المستقبل عن الحاضر لنتمكن من مراعاة ظروفهما بشكل افضل، نستطيع أن نفصل اتجاهات التغيير في الدستور. فنستطيع أن نميز بسهولة (في بعض الحالات) بين الاتجاهات السلبية المهددة للديمقراطية، وبين تلك الاتجاهات المعاكسة المقوية لها، وان نعامل، في هذه الحالات، الاتجاهين بشكل مختلف، بدلاً من وضع قوانين محددة لكلاهما بشكل متساوي.

هذا هو المبدأ الذي تستند إليه أفكار هذه الدراسة القصيرة العامة، وهو مبدأ بسيط، لكنه يفتح برأيي أفاقاً واسعة لنظرة جديدة إلى عملية كتابة الدستور بشكل عام.

### ١ ـ مبدأ التمديد التدريجي لفترة السلطة:

تقرر دساتير البلدان المختلفة فترة الحكم وهي عادة أربعة أو خمسة سنوات، لتبقى ثابتة دائما. وأنا أجد أن ذلك غير ضروري ولاهو مناسب





لمرحلة البدء في الديمقراطية. ذلك أن البلاد لها متطلبات مختلفة في البداية عنها في حالة الاستقرار، ففي البداية تكثر المخاطر والتجارب ويتعرف فيها الشعب على أسلوب الحكم وكيف يقيس مرشحيه الخ. لهذا السبب فمن المنطقي أن تكثر الأخطاء، ومن الطبيعي بالتالي أن نبحث عن دستور يمكننا من إصلاحها بأسرع وقت ممكن.

من ناحية أخرى فإن لعملية الانتخاب أهمية رمزية كبيرة للغاية في البداية، وفي كل عملية انتخابية ناجحة تتثبت ثقة الناس بالنظام الديمقراطي وتزداد قدرتهم ورغبتهم في الدفاع عنه، لذا فإن كل عملية انتخابية مكسب كبير في تثبيت الديمقراطية القلقة في البداية.

كل هذا يدعوني لاقتراح أن تكون فترة الحكومة الأولى المنتخبة اقصر من الاعتيادية كأن تكون لسنتين ثم الحكومة التالية لثلاث سنوات ثم تستقر على أربعة سنوات. ولنفس السبب فمن الأفضل كذلك ألا يسمح في الفترات الانتخابية الأولى بتجديد الانتخاب للرئيس ورئيس الحكومة السابق حتى ولا لتجديد متتال واحد. فالرمز الديمقراطي في تغيير الحكومة انتخابيا اكبر بكثير من رمز إعادة انتخابها.

### ٢ ـ شروط مختلفة لتعديل المواد المختلفة:

ليس من الضروري أن يكون لجميع مواد الدستور نفس الشروط اللازمة من أجل تغييرها. فهناك نقاط أساسية وخطيرة تتطلب الثبات. فلا نتوقع أن نحتاج إلى تغيير ما يتعلق بالمساواة الإنسانية مثلاً، أو الحد من حرية الرأي وتأسيس الحكم على الديمقراطية، ومثلها من النقاط الأساسية للمواطن. في حين أن تفاصيل شكل الحكم وطريقة الانتخاب ووسائل استشارة البرلمان لرأي الناس المباشر (مثل الاستفتاءات) وشروطها، ودرجة التزام الحكومة بنتائج الاستفتاءات (ملزمة أو استشارية) تتحمل وتتطلب المراجعة كل فترة من الزمن. لذلك أرى تقسيم الدستور إلى قسمين أو اكثر، وان تكون شروط

تعديل كل قسم متناسبة مع حاجة مواده المتوقعة إلى الاستقرار أو التغيير.

### ٣ ـ شروط مختلفة لتعديلات باتجاهات مختلفة:

كذلك فان تعديل مواد الدستور باتجاه معين ليس بنفس خطورة تعديلها باتجاه معاكس. لذا اقترح أن تكون شروط تعديل الدستور باتجاه زيادة تمكين الناس من المشاركة في صنع القرار مستقبلا، اسهل من شروط التعديل ذات الطابع المعاكس. كأن يتطلب تقليل شروط أجراء الاستفتاء الشعبي أو زيادة الالتزام بنتائجه، وهما يصبان في المزيد من السلطة المباشرة للشعب، أغلبية برلمانية ابسط من زيادة تلك الشروط. ينطبق هذا على صلاحيات المنظمات والجهات المؤسسة من قبل أشكال ديمقراطية مباشرة، وصلاحيات الأقاليم للحكم المحلي. فلا يوجد هنا خوف من استغلال الصحاب السلطة لسلطتهم، لزيادة المكانية الشعب في ممارسة الحكم، لكن العكس صحيح، فمن الممكن تماماً أن يحاول أصحاب السلطة تقليص ما أمكن من صلاحيات الشعب وحصر المزيد من السلطة بأيديهم.

### ٤ ـ شروط متناقصة مع الزمن:

من الأشياء التي نعرفها بشكل شبه أكيد عن المستقبل، هو أن عملية بداية الديمقراطية، خاصة في بلد ينوء تحت الاحتلال والإرهاب والفساد وانعدام الشفافية والمصالح الدولية الكبيرة، هذه البداية العاصفة هي بالضبط الوقت الذي نحتاج فيه إلى القيود الدستورية الضيقة القوية لتثبت الديمقراطية قدمها.

لكننا ندرك بنفس الوقت، أنه إن واتانا الحظ، وكتب البقاء لتلك الديمقراطية ولو لبضعة دورات انتخابية، تجد الحكومات المنتخبة فيها فرصة لتقليل الأخطار المحدقة بالبلاد، وتتثبت قيم الديمقراطية والثقة بها في عقول الناس، فإن تلك القيود الضيقة نفسها ستكون العقبة التي تمنع البلاد من الرقي بالديمقراطية والحياة





إلى مستويات أعلي. لذلك توجب أن تدرس تلك القيود لإيجاد طريقة لتخفيف ضررها المستقبلي دون خسارة فائدتها الحاضرة. ومن الطرق الممكنة للحصول على ذلك الكسب المزدوج، أن تكتب قيود تغيير الدستور بشكل تتخفف معه أوتوماتيكياً مع الزمن، ومع كل نجاح في ممارسة وتثبيت الديمقراطية متمثلاً بانتخابات ناجحة مثلاً. فنستطيع أن نستبدل مثلاً شرط تغيير المواد الدستورية، أو جزء محدد منها، المنتشر عالميا بنسبة تصويت الثلثين، بشرط مركب كأن يكون شرط تغييره نسبة ٧٥٪ خلال دورتين انتخابيتين أو ثلاثة، ليتناقص مع الدورات التالية إلى ٧٠٪ ثم ٦٥٪ وصولا إلى ٦٠٪ أو ٥٥٪ مثلاً، نضيف إلى ذلك أن القيود القاسية مناقضة لمبدأ الديمقراطية نفسه. فليس من الطبيعي أن يسير ٦٥٪ من الناس خلف رأي ٣٥٪ منهم، حتى لو كان الدستور يدافع عن الأخيرين. مثل هذه الحالات ضرورية أحياناً، لكنها يجب أن تكون مؤقتة، وإلا أصبح الدستور حامياً لرأي الأقلية لتفرضه على الأغلبية، ويحافظ على النظام بشكل اصطناعي خطر معرض للانقضاض.

وهناك نقطة أخرى، فمع التقادم، يقل الحق الطبيعي للدستور في فرض نفسه على الناس، لأن من كتب الدستور وصوت عليه يكونوا قد بدأوا يغادرون الحياة تدريجياً، لتحل محلهم أجيال لم يكن لها رأي فيه. لذا فسترتفع الأصوات المطالبة بتغيير دستوري هنا وهناك وتلقى آذاناً صاغية من فئات متزايدة الاتساع مع الوقت.

كل هذا يدفعنا للبحث عن طريقة للوصول إلى دستور مرن، يزداد مرونة مع الزمن وخاصة بالاتجاهات التي يغلب عليها الإيجابية، والأمور غير المبدأية. تلك المرونة عامل هام لتقبل الناس للدستور في المستقبل، وهي لذلك ضرورية لاستمراره على قيد الحياة، مثلما تكون شدة القيود ضرورية لاستمراره في البداية.

٩/ ٦/ ٢٠٠٥

# القواعد الأمريكية بين قلق العراقي وضمير ممثليه

مع اقتراب ظهور النتائج، يقرض رئيس وزرائنا أظفاره قلقاً على الدرجة التي سيحصل عليها في امتحانه الأمريكي ويدعو الآخرين إلى الانتظار وعدم استباق النتائج. ويبدو واثقاً من أنه قد بذل جهده لينجح، في الوقت الذي يحوم علاوي فوقه كالنسر وقد سال لعابه لرائحة موت الفريسة فصار يستعجل نهايتها بأساليب واطئة ويواصل إثارتها بتهم الطائفية التي صارت لتكرارها أكثر إثارة للتقزز من الطائفية نفسها.

لسوء حظ رئيس الوزراء أن نقاطه تكاد لا تتعلق بجهوده بل بقرارات البرلمان. لذا لجأ ليحصل على الدرجات، إلى الهجوم على البرلمان بحزمة القوانين الأمريكية، حيث يحصل على درجة عند إقرار كل قانون، ربما.

لو كان المالكي قد قرأ نيتشة، لربما كان انتبه إلى أن «الشجاعة في الإحجام تزيد عما في الإقدام أحياناً» وان النقاط يمكن أن تحسب بشكل آخر: الامتناع عن إقرار قانون نفط مرفوض شعبياً: نقطة. الصمود بوجه ضغوط إعادة البعث إلى السلطة: نقطة. رفض قواعد عسكرية طويلة الأمد: نقطة... وهكذا. لكنها لاتكون عندئذ نقاطاً أمريكية وإنما عراقية فقط. بوش قال للمالكي خلال الصحافة: «أنت صديقي وقد حققت تقدما خلال اجتماعات سابقة. حان الوقت الآن لإقرار هذه القوانين (الضرورية للمصالحة الوطنية). أمامك عمل شاق وأنت تعلم أننا نفهم ذلك». إنها مظلمة كبرى أن يعامل رئيس بمثل هذا... لكن لو كان المالكي قد قرأ نيتشة لتذكر أن «يرد المظلمة الكبرى بمثلها مرفقة بخمس مظالم صغيرة» ولتلفن بوش وشكره ثم قال له: «أنت أيضاً صديقي، ويبدو لي تحقق المزيد من الأرقام القياسية منذ اجتماعنا السابق. الآن اعتبرك الأستراليون





أيضاً أسوأ رئيس أمريكي في التأريخ. قل لي، ألم يحن الوقت لإقرار قوانين الرعاية الصحية (الضرورية لشعبك).؟ أمامك عمل شاق وأنت تعلم أننا نقدر ذلك».

لو فعل المالكي لتنفس ٢٥ مليون عراقي يشعرون بالاختناق، كأن فريقهم قد فاز بآسيا ثانية، ولشعروا للحظة أن العراقي إنسان لايقل عن الأمريكي، ولربح المالكي نقطة عراقية كبرى مرفقة ببضعة نقاط أمريكية أيضاً. لكن المالكي لم يقرأ نيتشة للأسف...ولعله لم يقرأ القرآن أيضاً... أو لم يفهمه... كان يحرث الماء.

في وثيقة القرارات الأمريكية التي تضمنها «البيان السياسي لاجتماع قادة الكتل السياسية» يأتي قرار مختبئ في آخر جملة، ربما لأن من كتب البيان يعلم أن الأكثرية ستكتفي بقراءة السطور الأولى. «القرار الأخير» يقول: «يؤكد القادة ضرورة الوصول مع الجانب الأمريكي ـ وغيره إن اقتضى الأمر ـ إلى علاقة طويلة الأمد تستند إلى المصالح المشتركة وتغطي مختلف المجالات بين جمهورية العراق والولايات المتحدة الأمريكية، وهو هدف يفترض تحقيقه خلال الفترة القصيرة القادمة».

ختامها المسك هذا صار أكثر وضوحاً بعد إيضاح وزير الخارجية ثم أحد مساعدي الوزير باتصال تلفوني مع إحدى الفضائيات، بأن السبب وراء هذا الإعلان هو أن القادة في حلف الناتو قد اقترحوا قبل بضعة أيام إدخال العراق في هذا الحلف، وأن الحكومة تدرس إمكانية دخول العراق «بما يحفظ له سيادته الوطنية». مشيراً إلى أن ذلك «مثل ما تعمل بعض الدول العربية مع أمريكا» وهي العبارة التي تسمعها كلما أراد الأكراد تمرير مكسورة توجع الضمير العربي في العراق، لذا يحتفظ السياسيون الأكراد بقائمة لكل مكاسير الدول العربية.

يكمل زيباري بثقة مثيرة للقلق: «نعم سيكون هناك وجود طويل المدى وبحجم أقل ومهام مختلفة». سألوه إنها ربما ضد إرادة دول الجوار قال «إن عقد مثل هذه الاتفاقيات هو شأن داخلي عراقي ولا يخص دول الجوار».

لم يقل شيئاً عن متطلبات حسن الجوار أن لاتبن في بلدك قواعد معادية لجارك لأنه قد يفعل الشيء نفسه معك.

ولم يخطر لصحفي أن يسأله أنها ربما ضد إرادة العراقيين.

فكرة القواعد هذه، الجديدة على المالكي وزيباري وغيره كان يعرف بها الطالباني منذ زمن طويل لما أثار استنكار العراقيين حين صرح لـ «واشنطن بوست» قائلاً: «أعتقد أننا سنحتاج إلى قوات أميركية لفترة طويلة، وحتى لقاعدتين عسكريتين لمنع التدخلات الأجنبية»... وإحساساً منه برفض غالبية الشعب العراقي للقواعد أشار إلى أنه «يمكن إقامة القاعدتين في منطقة كردستان التي تتمتع بحكم ذاتي منذ حرب الخليج سنة ١٩٩١». ولا نعلم إلى ماذا ترمز إشارته إلى كون المنطقة تتمتع بحكم ذاتي منذ زمن.

إنها حسب رأي قباد الطالباني «ضمان بعدم تعرض الشعب الكردي إلى المظالم» «التاريخ أثر في نفسيتنا، ويجب أن تكون لدينا دائما مخاوف من ظهور دكتاتور... سواء في العراق أو في دول الجوار». و«يجب إفهام أصدقائنا الأمريكيين أن مصالحهم ليست سياسية مع الأكراد، وإنما لديهم مصالح اقتصادية وعسكرية أيضاً».

ربما كانت منظمة حقوق الإنسان في كردستان فرع دهوك أول منظمة حقوق إنسان في التاريخ تطلب «إنشاء قواعد عسكرية لقوات التحالف الدولي في كوردستان لحماية أبنائها من أي تهديد عسكري أو تدخل في الشأن الكوردستاني». أما قائد قوات بشمركة الاتحاد الوطني الكردستاني فيعتبر إقامة قواعد أمريكية في كردستان «فضلاً من الله اذا حدث».

لو أن قائد البشمركة أو «منظمة حقوق الإنسان» أو قباد أو بابا الرئيس كان قد قرأ تأريخ بضعة عقود لكان عرف أن «فضل الله» هذا كان يساند الجانب الذي يضرب الكرد في كل الهجمات التي تعرضوا لها في تركيا والعراق وإيران الشاه، وكان «فضل الله» هذا وقتها يزود قتلة الأكراد





وحارقي قراهم بالطائرات والقنابل والدعم السياسي. ولو أن أحداً منهم قرأ جومسكي لعرف أن صادرات أسلحة «فضل الله» إلى تركيا كانت في قمتها عام ١٩٩٧ حينما كانت تحرق القرى الكردية. لكن ولا واحد منهم قرأ التأريخ ولا جومسكي وإن قرأوا، لا فرق، فـ «الذاكرة جهاز سياسي».

لكن إن وجدنا في التأريخ المشوش عذراً لمقالق الأكراد فأين نجد العذر لبقية السياسيين العراقيين السائرين في هذا المسار؟ وقبل أن يشير أحد إلى البعث والانتفاضة أذكّر بأن معظم أعضاء البعث كانوا من الشيعة انفسهم، وانهم هم كانوا رأس حربة صدام في ذبحه للانتفاضة مثلما كان الجحوش رأس حربته لذبح الأكراد، فكيف سيحمي الأكراد والشيعة أنفسهم ممن بينهم بواسطة القواعد الأمريكية؟ ولماذا لاتثار مخاوفهم التأريخية حين يسلمون هؤلاء من جديد مقاليد القيادة في أحزابهم بل ويتم تعيينهم مستشارين أمنيين أيضاً؟ السؤال متروك لجماهير تلك الأحزاب. أما بالنسبة لمن وضعوا نفسهم ممثلين عن السنة فقد قلت رأيي بهم في مقالاتي القليلة السابقة وقلت إنهم سيسارعون أكثر من غيرهم إلى تقديم تنازلات يخجل منها الآخرون، وقد بدت علامات صحة نبوءتي.

للصدق يذكر أن قياديي الجماعات الإسلامية الكردية رفضوا قائلين إن وجود القوات الأمريكية في كردستان قد تجر معها العمليات المسلحة إلى كردستان وإن الإقليم حالياً آمن ومستقر وتحميه قوات من أحزاب وقوي كردستانية، وبالتالي لا حاجة له للحماية من الآخرين. تكفيريون!

تقرير بيكر هاملتون يتبنى منطق المتخلفين الأصوليين التكفيريين نفسه هذا فيقول: «ينبغي أن يعلن الرئيس الأميركي أن بلاده لا تسعى إلى إقامة قواعد عسكرية دائمة في العراق. وإذا طلبت الحكومة العراقية إقامة قاعدة موقتة أو قواعد، فعلى الولايات المتحدة أن تنظر في هذا الطلب كأي طلب من حكومة دولة أخرى».

أود في النهاية أن أوجه بعض الأسئلة المباشرة إلى رئيس الوزراء ورئيس الجمهورية:

السيد المالكي، قلت في بيان صدر خلال استقبال وزيري الخارجية والهجرة السويديين، ما كررته مراراً سابقاً: «إننا نرفض سياسة التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى التي كان ينتهجها نظام صدام المقبور، كما لن نسمح باستخدام أراضينا لتسوية الحسابات بين المتخاصمين الإقليميين والدوليين». فهل أنت قادر على منع الأمريكان من استخدام قواعدهم القادمة في العراق «لتسوية حساباتهم»؟ بل هل ستستطيع معرفة ما يفعلون لتمنعه أو لاتمنعه؟ أم انك ستقول لنا ثانية إنه لايحق لك تحريك سرية؟ هل قلت للسيد السيستاني إنك سترحب بقواعد عسكرية أمريكية وأخرى للناتو وأنها من المتوقع أن تقتل الكثير من الأبرياء هنا وهناك فأفتى لك ان لا اثم عليك فأراح ضميرك؟

إن لم تع حتى الآن مع من تتعامل، فاستمع إلى بولتون، أحد أقرب المقربين إلى بوش، في BBC World: «أن الشكل الذي قد يأخذه العراق سواء كان حكومة واحدة أو حكومة فيدرالية أو ٣ حكومات وطبيعة هذه الحكومة ليس ذا أهمية كبيرة بالنسبة لأميركا»، مشيراً إلى أن هناك أشياء مهمة بالنسبة لأميركا في المنطقة كضمان عدم امتلاك إيران للسلاح النووي واستمرار دعمها للإرهاب أكثر مما تقوم به حالياً، موضحاً بأن ذلك مختلف عن مصير الحكومة العراقية.

انها نية مبيتة لـ «تصفية الحسابات» التي تريد أن لاتسمح بها فهل أنت أهل لما تتعهد به؟ وتقول أيضاً أن «ثقافة عدم التدخل يجب ان تعمم لتثبيت الأمن والاستقرار في المنطقة والعالم». فهل تريد ائتمان النظام الذي اخترع «الحرب المسبقة» على قواعد عسكرية في بلادك وتأمل الأمن والاستقرار في المنطقة أو العالم؟

وأنت يا سيدي الرئيس... هل ستتمكن من تحقيق امانيك بعراق «يسعى





إلى إقامة علاقات متطورة مع دول الجوار، وأن يكون شعبه آمناً ومسالماً مع جيرانه وأن يساعد على الاستقرار في المنطقة»؟. وهل سينام مرتاحاً ضميرك الذي رفض توقيع حكم الموت حتى بأشرس مجرم في تأريخ البلاد حين تطير فوق رأسك طائرات القواعد مغادرة إلى مهماتها التي تعرفها، في مكان ما؟ هل ستتذكر شيمة الرجولة التي سخرت بها ممن يريدون استدعاء ابنة صدام للمحاكمة حين تعلم أن تلك الطائرات قصفت بيوتاً فوق رؤوس نسائها وأطفالها؟ ما سيكون قولك حين تقوم الطائرات الأمريكية بقصف قرى الفلسطينيين أو البنانيين أو ربما السوريين من خلال إسرائيل منطلقة من بلادك، أم أن هذا لم يحدث ولا يمكن أن يحدث؟ ماسيقول ضميرك لو كررت تلك الطائرات مشاهد حلبجة في قرى إيرانية مثل سره دشت، دون استشارتك أو اقتناعك بالداعي لمثل ذلك القصف؟

وما رأي إسلامك يا مالكي في كل ذلك؟ أتعلمان كم كنا ننظر باحتقار إلى حاكم قطر حين كانت الطائرات الأمريكية تزود إسرائيل بالذخيرة لقصف جنين، فهل تضمنان أن لن تجدا نفسيكما في مثل هذا الموقف المؤسف؟ لقد كان عذر الشعب العراقي دوماً للتبرؤ من جرائم صدام أنه لم ينتخب ذلك الحاكم وكان ضحية له فما هو عذرنا إن تسبب انتخبناهم بمثل تلك الجرائم تنطلق من بلادهم لتنشر الموت والألم حولها؟ هذه الطائرات لم تصنع لإلقاء الحلوى للأطفال، أليس كذلك؟

أيها السادة... الإحصاءات تقول إن شعوب العالم كلها عدا إسرائيل ترى في أميركا تحت هذه الإدارة، الخطر الأكبر على السلام العالمي وأكبر تهديد خارجي لاستقلالها وهذا يشمل حتى أصدقاء أميركا القدامى أنفسهم فهل تطمئنون لمثل هؤلاء وهل تتحملون مسؤولية ما يفعلون أمام ربكم وأمام شعبكم؟

يكتب حمزة الجواهري: «المخيف بهذا التحالف الاستراتيجي هو أن

العراق يقع على تخوم الدول الأعضاء وفي مواجهة مع جميع أعداء الحلف، أضف إلى ذلك، الوضع الأمني المتردي والخطير بداخل البلد».

لم تحكمون على الشعب العراقي أن يكون مشاركاً ابله في التوتر الخطير بين أميركا وأعدائها المتزايدين في كل مكان بفضل عدائيتها المفرطة وطموحها إلى السيطرة على العالم؟ لقد أنتجت هذه العدائية المجنونة سباقاً عالمياً للتسلح وولدت حلقاً خطيرا بين روسيا والصين ودول أخرى قد تكون إيران أحدها، فمقابل ماذا نخاطر أن توجه بعض ترسانات هؤلاء النووية إلى وسط بغداد حيث مركز القيادة الأمريكي المسمى «سفارة»، ولن يكونوا ملومين في ذلك؟

أيها السيد الرئيس: قبول القواعد العسكرية الأمريكية الثابتة أو طويلة الأمد قبول سياسة ثابتة أو طويلة الأمد لإعدامات بالجملة وبلا محاكمة لمن تشاء أميركا ان تقصفهم في بيوتهم.

قبول القواعد العسكرية الأمريكية الثابتة أو طويلة الأمد قبول سياسة ثابتة أو طويلة الأمد لحلبجات وبيروتات وجنينات جديدة في بلدان المنطقة.

أيها السيد رئيس الوزراء: قبول القواعد العسكرية الأمريكية الثابتة أو طويلة الأمد قبول سياسة ثابتة أو طويلة الأمد لأحكام سجن وتعذيب بالجملة وبلا محاكمة ولأزمان غير محددة لمن تشاء أميركا أن تضعه في سجونها السرية.

قبول القواعد العسكرية الأمريكية سيضع العراق ضمن تهديد نووي خطير لاناقة لنا فيه ولا جمل، تعتمد خطورته على «حكمة» قرارات الرئيس الأمريكي ولا رأي للعراقيين فيه.

وكل هذا مقابل ماذا يا سيادة رئيس الوزراء المؤمن، ويا سيادة الرئيس، ذا الضمير اليقظ، ويا ممثلي الشعب المخلصين؟

٢٠٠٨/١/٢





## أشواك القنفذ: فكرة لحماية الصحفيين

للقنفذ أسلوب فريد في التعامل مع الثعابين. إنه يقبض عليها بعضها بقوة من ذيلها ويبدأ بقضمها. الحية لاتستطيع الإفلات من أسنانه فلا تجد سوى أن تحاول عضه أو عصره وفي الحالتين تدمي نفسها أكثر فيثور جنونها ولا تجد سوى ضربه برأسها فتزيد حالتها سوءاً حتى تنتهي.

على من قرر تجشم مخاطر مهاجمة الثعابين أن يجد ما يحميه من عضتها وسمها ويحول هجومها إلى آلام دامية تسرع في نهايتها. هكذا يجب أن يفكر جميع قناصي الأفاعي السامة... ولاسيما الصحفيين!

لكن من أين للصحفي المسكين هذا الدرع الشوكي؟ وهل يمكنه حمل رشاش أينما ذهب؟ ألن يعرقل هذا عمله ويخيف الناس منه؟ وهل يكفيه رشاشه إن حمله؟ وهل سيتمكن من استعمال سلاح العنف بكفاءة القتلة المحترفين إن هو احتاجه وهو الذي قضى حياته بين الثقافات والكتب؟ ولو أن الحكومة قررت حمايته بواسطة رجال أمن مسلحين، فهل سيمكنه بعد ذلك ممارسة عمله وهو يتحرك كأنه فرقة عسكرية؟

كل ما يتصل بالصحفي يجعله ضعيفاً أمام الإرهاب على ما يبدو. هو معروف للجميع ولاسيما لأعدائه، ومواقفه معروفة فلا يقدر على إخفائها دون أن يقضي على نفسه كصحفي، ومقر عمله معروف وطبيعة عمله تضطره إلى الحركة وإلى الذهاب إلى الخطر برجليه حتى إن لم يأته الخطر بنفسه. إن نقطة ضعف الصحفي الأساسية هي كونه مكشوفاً عاري الصدر!

وضع الصحفيين والمؤسسات الصحفية، ولاسيما في العراق وضع مرعب. إن مجرد الإشارة العابرة إلى أمثلة القتل والإنتهاك التي يتعرض لها الصحفيون في العراق ستملأ صفحات عديدة لذا ساعبرها وأكتفي بحقيقة أن عدد الصحفيين العراقيين المقتولين منذ الاحتلال حتى الآن زاد على ٢٠٠ صحفي، والوضع يزداد سوءاً فقد وصل معدل الانتهاكات ضد الصحفيين العراقيين خلال العام الماضي إلى حالة انتهاك كل ثلاثة أيام!

وحينما لايتكفل الإرهاب بتحطيم الصحفيين تتكفل الحكومات وجيش الاحتلال بهم والأمثلة كثيرة هي الأخرى. فنحن نذكر كيف تجرأت حكومة كردستان على الحكم على كمال السيد قادر بثلاثين سنة سجن بتهمة التشهير بالقادة، ثم أطلقت سراحه بسبب فضيحة ذلك الحكم القرقوشي، وقد تكررت الانتهاكات منذ ذلك الحين وكان آخرها وبالتأكيد لن يكون أخيرها مطاردة الصحفيين الذين جرؤوا على التطرق إلى الفساد في الحكومة المحلية مثل رحمان غريب وئاسو جبار.

ولا تقتصر الانتهاكات على العراق بالطبع على الرغم من كونه صاحب الرقم القياسي، فقد شمل عار إيذاء الصحفيين بقية الدول العربية ومرة أخرى سنكتفي هنا أيضاً بمثال من مصر علماً أن الدول الأخرى ليست بحال أفضل. فقد تحدث جو ستورك من هيومن رايتس ووتش عن الحكم على هويدا طه متولي بالحبس ستة أشهر بسبب تحدثها عن التعذيب في مصر وقال إنه يمثل سخريةً من مناسبة من مثل اليوم العالمي لحرية الصحافة، وقال إن السجل المؤسف للتعذيب في مصر يزداد سوءاً بفعل معاقبة الصُحفيين الذين يجرؤون على التحدث عنه.

إضافة إلى ذلك فقد طالت الاعتقالات محرري مدونات الإنترنيت وناشطي حقوق الإنسان مثل عبد المنعم محمود وعبد الكريم نبيل سليمان الذي كان يوجه انتقاداته إلى الإسلاميين وإلى الرئيس حسني مبارك.





كيف تواجه هذه الأزمة؟ من ناحية الصحفيين تواجه بالشجاعة البطولية الخالصة:

أشار معهد السلامة الصحفية الدولي (I N S I) إلى «إن شجاعة الصحفيين العراقيين تثير الإعجاب حقاً، فعلى الرغم من سقوط العديد منهم صرعى وتعرضهم للأذى وإبعادهم عن عوائلهم التي مافتئت تتلقى التهديدات، فإنهم مازالوا يواصلون العمل بإصرار».

وأضاف بيندر، وفقاً للبيان، «لولا الصحفيون العراقيون، لأصبح العالم أعمى عما يجري في العراق، وانهم يسطرون إحدى الملاحم المتميزة في تأريخ الصحافة الحديثة».

أما منظمة اليونسكو فقالت «إن العنف ضد الإعلاميين، أصبح اليوم من أكبر الأخطار التي تُهدد حرية التعبير، وبناء عليه فقد قرر أن يكرس اليوم العالمي لحرية الصحافة لعام ٢٠٠٧، لموضوع سلامة الصحفيين»، التي لم تكن محفوفة بالمخاطر كما هي اليوم، و«إن الأشخاص الذين يجازفون بحياتهم لتوفير معلومات مستقلة وموثوق بها، يستحقون إعجابنا واحترامنا ودعمنا. إن سلامة الصحفيين قضية تهمنا جميعاً. فكل اعتداء على صحفي،هو اعتداء على حرياتنا الأساسية».

وفي حفل تكريم عوائل الضحايا قال نقيب الصحفيين العراقيين شهاب التميمي «عندما نخرج من بيوتنا نقبل أطفالنا وزوجاتنا ونودعهم لأننا حالما نخرج من الدار تكون حياتنا مهددة وقد لانعود».

أخيراً حادثة تستحق الوقوف عندها بجدية، وهي الهجوم الذي استهدف مقر راديو دجلة المحلي غرب بغداد وأسفر عن قتل عدد من الصحفيين والعاملين في الراديو ورفض الحماية الحكومية التي تبعد ٥٠٠ متراً عنها التدخل! المثير للانتباه أن المهاجمين لم يتمكنوا من اختراق الإذاعة بفضل بسالة المقاومين فانسحب المهاجمون ليأتى الجنود ليقنعوا

الصحفيين بإخلائها بسرعة وفعلاً تم ذلك ليعود الإرهابيون ليدمروها وليبقوا فيها ٣٠ ساعة دون أن يتعرض لهم أحد حسب الرسالة التي وجهها مدير الإذاعة إلى الرئيس طالباني، الذي لم يجد للأسف سوى الاستنكار جواباً عليها!

لكن الشجاعة وحدها لاتكفي لتحقيق النصر، فما العمل؟ نقيب الصحفيين العراقيين شهاب التميمي دعا إلى أن يشير الدستور إلى حماية الصحفيين. أما جمعية الدفاع عن حقوق الصحافيين العراقيين، فلديها مشروع لتقديم المساعدة القانونية والإنسانية وأما مفيد الجزائري مسؤول لجنة الثقافة والإعلام بمجلس النواب فيتحدث عن قانون للضمان الاجتماعي لعوائل الصحافيين الضحايا.

لنواجه الحقيقة: هذه المشاريع والحلول، على الرغم من فائدتها، لاتحمي الصحفيين. إنها لاتقول في الحقيقة سوى «أننا عاجزون تماماً أمام الإرهاب». فكيف يتمكن الدستور من حماية الصحفيين؟ مفيد الجزائري اعترف أيضاً «إن النصوص الدستورية لا تعني الكثير إذا لم تجسد في الواقع، والصحافة عندنا مهددة باستمرار، في الوقت نفسه الذي تتمتع فيه بحرية لا مثيل لها، إنها مهددة في كل لحظة ليس في حريتها وإنما في وجودها، وصناعها مهددون في كل خطوة، من ابتزاز وتهديد وضغط واغتيال، أي سفح الدم البريء للإعلامي أو الإعلامية».

هذا العجز تجلى أيضاً في بيان منظمة مراسلون بلا حدود حول مقتل ثلاثة صحفيين عراقيين مؤخراً قائلاً «إن لائحة الصحفيين القتلى في تزايد مستمر دون أن تبادر السلطات العراقية إلى اتخاذ أي إجراء».

ليس للصحفي كما يبدو «كعب أخيل» واحد فقط، وإنما الصحفي كله نقاط ضعف أمام الإرهاب!

لكن هناك سر واحد قد يمنح الصحفي الدرع اللازم لحياته الخطرة. إن





نقطة ضعف الصحفي في كونه مكشوفاً هي بالذات نقطة قوته أيضاً. انكشاف الصحفي يجعل من عدوه مكشوفاً هو الآخر، وجلاء موقفه يجعل من موقف عدوه جلياً أيضاً! ففي حين يختفي بقية الإرهابيين بعد جريمتهم فلا تعرف لهم طريقاً، فإن قاتل الصحفي لايمكنه إلا أن يكون في المكان المقابل لموقف ضحيته، ولا تحتاج إلا إلى إطلاق سهمك بالعكس من اتجاه السهم الغادر، حتى تصيب القاتل! هذا هو الدرع الشوكي الذي يجب أن يوفر للصحفي فلا يستطيع أحد إيذاءه دون عقاب.

الحقيقة الأخرى الهامة هي أن قتل الصحفي أو الكاتب لايقتل فكرته معه، على الرغم من أنها هي الهدف من قتله. فالحقيقة والرأي الصحفي سيقى حياً وقادراً على الانتشار بعد مقتل ممثله، وعلينا أن نعمل على ضمان هذا الأمر وتحويله إلى عرف صحفي حضاري يعرفه القتلة قبل غيرهم، فيكون لهم رادعاً عن جريمتهم. يمكننا بسهولة أن نتخيل أن قتل الصحفيين لن ينتشر إلا حيث يكون قتل الصحفي يعني موت فكرته بعده بالإهمال وقلة الرعاية. الفكرة هي أن لاندع الحقيقة تموت بموت صاحبها بل أن يزيد قتله انتشارها. هكذا يصاب القاتل بسهمه.

شاهدت قبل أسبوعين بطل العالم السابق في الشطرنج غاري كاسباروف وهو يتحدى رجال الدرك الروسي دون أن يخشى منهم أذى كبيراً. إن شهرته تحميه، كما قال بنفسه في مقابلة للتلفزيون الهولندي، بمثل ذلك الدرع الشوكي الذي نطمح إلى أن يحصل الصحفيون على مثله. لقد كان كاسباروف مثالاً على فعالية مثل هذا الدرع، على العكس من كل المحاولات اليائسة لمواجهة العنف بالشجب والتنديد والنصوص الدستورية ومقالات الاحتجاج.

مثال آخر الكاتب سلمان رشدي الذي كان السهم الموجه اليه، والمتمثل بالفتوى بالقتل، السبب في شهرته التي لم يكن يحلم بها، حتى وإن كان

السهم لم يقتله! لاشك بأن مصدر الفتوى قد ندم عليها لأنها خدمت أغراض عدوه بشكل غير اعتيادي.

ليس الأمر جديداً تماماً، لكن الجديد الذي أريد اضافته هو هذا الشكل المحدد بـ «بوليصة تأمين نشرية» تؤمن نشر وتوزيع أعماله (مهما يكن شكلها) وليس الأمر صعباً على الإطلاق، ويمكن تنظيمه من خلال الدولة باعتبارها مسؤولة عن حماية الصحفيين بشكل خاص، أو عن طريق النقابات أو الجمعيات. ولايحتاج الصحفيين من أجل ذلك إلى منيّة أحد، فيمكن بسهولة أن يجمعوا المال اللازم لذلك بشكل مبلغ تأمين بسيط، ويمكن ان يكون الموضوع مثيراً لاهتمام حتى شركات التأمين الإعتيادية الباحثة عن الربح. مبلغ التأمين لايحتاج لأن يكون كبيراً لأن الإنتاج المنشور سوف يعيد (جزءاً من) المبلغ، كما أن نسبة من سيقتل أو يعتقل من الصحفيين تبقى نسبة بسيطة مهما كان المكان خطراً، وستقل هذه النسبة حتماً إن تم اتخاذ مثل هذه الإجراءات المحبطة للإرهاب. كذلك فإن العديد من المؤسسات لن تمانع من كسب سمعة رائعة من خلال دعمها لمثل تلك التأمينات تبرعاً.

إن وراء كاسباروف ورشدي مؤسسات ومصالح تكفل لهما تلك الحماية الشوكية، المهم أن يحصل عليها أيضاً الصحفيون الذين لايمثلون مصالح قوية وغنية، بل يمثلون الحقيقة كما يرونها هم بإخلاص.

كل ما نحن بحاجة إليه هو بعض الجهد لتفصيل للفكرة وإمكانيات تطبيقها المختلفة وهي كما تبدو لي غنية بالاحتمالات، فافترض أن كل صحيفة وكل مؤسسة صحفية وكل محطة اذاعية أو تلفزيونية (بل ان اية مجموعة من خمسة صحفيين يمكن ان يتفقوا على ذلك بشكل ما) قادرة على تأمين مثل هذا المطلب البسيط لصحفييها والإعلان عنه بشكل واسع واستغلال أول جريمة ترتكب ضد أحد أعضائها لتلقين المجرم درساً يجعله





يتردد في القيام بمثل جريمته ضد صحفي «مؤمّن»، يحمل «شارة القنفذ» على صدره تحذيراً!

وصل صديق لي إلى الإمارات مؤخراً للعمل ليكتب لي خيبة أمله أنه لا يستطيع الوصول إلى موقع «الحوار المتمدن» هناك. لقد دعوت سابقاً في مقالة مماثلة، المواقع الصحفية للتعاون لوقف مثل هذا العدوان عليهم، وهأنذا اكرر ذلك هنا بوصفة «درع القنفذ»: إن يتفق أصحاب المواقع على دعم أي موقع يتعرض للإغلاق من قبل دولة ما وذلك بتقديم عرض لمقالات ذلك الموقع من خلال جميع المواقع المشاركة في التأمين، بحيث يستحيل على دولة إقصاء موقع ما دون إقصاء جميع المواقع المتضامنة، وهو أمر أكثر صعوبة، هذا إضافة إلى تعاون هذه المواقع في انشاء موقع يضع قائمة بأسماء الدول المانعة لحرية المواقع بوصفه سبباً رادعاً إضافياً.

أتمنى من زملائي الصحفيين العمل على تفعيل الفكرة بالعمل عليها مباشرة أو توصيلها إلى من يمكن أن يفعلها أو نشرها حتى تصل إلى الجهة الفاعلة القادرة على تنفيذها فعلياً، متمنياً أن يكون في عيد الصحافة القادم قد حققت الصحافة الشريفة انتصارا على أعدائها. أتمنى أن يذكر لصحفيوا العراق ليس فقط أنهم أشجع الصحفيون، بل أيضاً الصحفيين الذين تمكنوا من ابتكار حل فعال ومحدد لحماية أنفسهم وزملائهم من الإرهاب ليصبح تقليداً عاماً في العالم. الدعوة لاتقتصر بالطبع على الصحفيين العراقيين إنما قصدت أنهم اليوم الأكثر حاجة إليها، وكل عام وانتم بسلامة.

٢٠٠٧/٥/١٢

# «الرنين الإعلامي»
# كيف يجعلونا نقبل أخباراً غير معقولة؟

## في الموسيقى والكهرباء

السر في «رنين» الوتر الموسيقي بنغمة موسيقية معينة حين ننقر عليه بإصبعنا، ليس في النقرة نفسها، فهي حركة حيادية تثير خليطاً حيادياً يحتوي كل الذبذبات بلا استثناء. أنه في الوتر نفسه: طوله، سمكه، توتره، ومادته.

بنفس الطريقة فإن نفخنا في الناي فإننا نثير فيه اهتزازات عشوائية سيختار منها الناي الاهتزازات التي يجعلها طوله في حالة «رنين»، ومن درس الكهرباء يعلم أن الفكرة من صناعة المذبذب الكهربائي هو صنع دائرة ذات قيم محددة للملف والمتسعة وتركها تنتظر التقاط أية إشارات كهربية لتستقبل إحداها فقط لتضخمها وتخنق الباقي فيضمحل. مهندسو الكهرباء يعلمون أن ذلك يعني: ممانعة ضعيفة لذبذبة «الرنين»، ومقاومة شديدة لباقي الذبذبات.

## الإعلام السياسي: التحيز بلا مصلحة علامة الرنين

من المعروف أن المرء يتحسس من الإعلام المتحيز ويرفضه عندما يكتشفه، لذا فهو يبتعد عن قنوات الإعلام التي تمثل جهة واحدة فتمتدحها على طول الخط وتذم خصومها، أي التي تتحدث بنغمة واحدة تريد فرضها على المستمع. ففي رأس كل إنسان «جهاز إنذار» ضد هذه النغمات الأحادية، فالإنسان بطبيعته السليمة يبحث عن الحقيقة ويحس بخطر النغمات الأحادية فيقاومها ويهملها.





ومع ذلك نلاحظ كقاعدة عامة أن كل فرد من الناس يتقبل أفكاراً معينة بسهولة ويقاوم ما يناقضها بقوة، أي انه لا يعطي الاتجاهات المختلفة فرصاً متساوية لكسبه إلى جانبها.

يبدو لي أن ما يجري في الإعلام السياسي يشبه في طبيعته بشكل كبير ما يجري في الوتر الموسيقي ودوائر الكهرباء. فمن كل خليط الأخبار المختلفة التي تصل إلينا، فإن تركيبتنا النفسية والذهنية تختار منها ما تهتم به وتميل إلى تصديقه، وغالباً ما تضخمه، وتنسى الباقي وتقاومه ليضمحل، وهذا ما يعرفه «مهندسو الإعلام» جيداً كما يعرف زملائهم مهندسو الكهرباء مبدأ الرنين في الدوائر الكهربائية.

أن من يتمكن من بناء الـ «رنين فكري» المناسب في الناس سيجعلهم يتقبلون آراء معينة بسهولة ويقاومون ما يناقضها. من يتمكن من ذلك لن تكون لديه فرصة اكبر لتمرير آرائه الأحادية المتحيزة إلى أذهانهم متجاوزة نظام الإنذار الذهني، بل وكذلك سيقوم هذا «الرنين الفكري» بتصفية أية أخبار وآراء قد تأتي إليه من أي مصدر كان فتمرر ما يناسب «نغمة الرنين» وتقاوم ما يعاكسها. بذلك تتحول المصادر الأخرى الحيادية التي تحتوي عل مختلف النغمات والآراء وتصبح عملياً كأنها مصادر «موجهة» فلا يصل الذهن منها إلا ما يناسب «نغمة الرنين» المطلوبة.

تماماً كما تثير نفس النقرة نغمات مختلفة في الأوتار المختلفة الأوصاف، تثير نفس الأخبار استنتاجات مختلفة في الرؤوس المختلفة الإعداد. أما الموضوعية والوعي فمحاولات لتقليل هذا التأثير. فلكي يتقبل العقل السليم فكرة ما أو خبراً ما فان هذه الفكرة وذاك الخبر يواجه عادة مقاومة اعتيادية هي عبارة عن احتكاك الفكرة بالمنطق الفاحص. أما «الرنين الإعلامي» فيلعب دور «الزيت» الذي تنزلق عليه الفكرة الرنينية فتدخل العقل بلا مقاومة فاحصة.

هذا التحيز في تلقي الأخبار والآراء معروف ومفهوم عندما تكون هذه الأخبار لمصلحتنا فنصدقها بسهولة، أو ضد مصلحتنا فنواجهها بمقاومة كبيرة. انه «رنين» المصلحة.

لكن هناك أيضاً «رنيناً» أكثر غموضاً، يتسبب به الإعلام الموجه ليكون ميزاناً اعوجاً نزن به الأخبار والآراء.

كيف تعرف انك تحت تأثير «رنين إعلامي»؟

كيف تعرف انك أو غيرك تحت تأثير «رنين إعلامي»؟ كيف تحس بعملية بناء رنين إعلامي؟

## التحيز في الفحص

أسئلة يقرر أجوبتها الرنين:

هل تعتقد أن البحارة البريطانيين قد اجتازوا المياه الإقليمية الإيرانية فعلاً أم أن إيران قد اعتقلتهم داخل المياه العراقية؟

هل الطائفية هي الدافع الإرهابي الرئيسي في العراق؟

هل الأمريكان اخطر على العراق الحالي أم الصداميون أم المتطرفون الإسلاميون؟

هل تعتقد أن منظمة مجاهدي قد ارتكبت جرائم إرهابية في العراق أم لا؟

ليس لدينا أدلة قاطعة لمثل هذه الأسئلة لذا فالذي يقرر اعتقاد كل منا بالنسبة للسؤال الأول مثلاً هو بالدرجة الأولى درجة رنين الذهن وتقبله فكرة عدوانية البريطانيين مقابل فكرة عدوانية الإيرانيين، وفكرتنا عن طبيعة كل منهما، وهكذا في بقية الأسئلة.

أهم أعراض تكون رنين إعلامي فينا هو قبول آراء ضعيفة المنطق أو تصديق أخبار صعبة التصديق بسهولة غير معتادة. وفي المقالة أمثلة على





بعض الآراء التي كثير ما قبلناها دون تمحيص كاف.

أود هنا أن انبه أن ليس من الضروري أن توافقني أيها القارئ فيما اعتبره أمثلة لـ«أفكار غير معقولة» فلربما كنا تحت تأثير رنين إعلامي مختلف، لكني أرجو أن تبقى الفكرة واضحة حتى أن اختلفنا في الأمثلة.

أعراض الإصابة: القبول بما هو ليس معقولاً.

قلنا أن «الرنين» يجعلنا نتحيز في فحصنا للمعطيات والأخبار التي تصل إلينا فتخضع الأخبار والأفكار التي تتعارض مع الرنين إلى أشد أنواع الفحص قبل قبولها بينما يمر ما يناسب الرنين دون فحص يذكر. هذه الظاهرة نفسها تعطينا المفتاح الأساسي لاكتشاف وقوعنا أو غيرنا تحت تأثير رنين ما: القبول بأفكار غير معقولة أو صعبة التصديق، وأهمها المبالغات الشديدة بقوة جهة معينة أو شخصية معينة.

فمثلاً في موضوع الإرهاب في العراق نعرف جميعاً السمعة التنظيمية الهائلة التي أعطيت إلى الزرقاوي، حيث انه صار الهدف الرئيسي لأكبر قوة في العالم (في الحقيقة قوة نصف العالم تساعدها ثلاثة أرباع النصف الآخر) ولم تتمكن من قتله إلا بعد لأي. والأغرب من ذلك هو العدد المهول من «مساعديه» الذين قتلوا أو اكتشفوا في كل مكان. ومساعديه تعني بالضرورة أنه على اتصال بهم بشكل أو بآخر، وليس أناس اعجبوا به فساروا على طريقه دون اتصال. أما كيف يؤمن الزرقاوي كل هذا الاتصال والتنظيم فهو السؤال الذي لم تطرحه أنظمة الفحص في رؤوس الأشخاص الذين صدقوا الرواية. ولو أن وجود الزرقاوي بقوته الهائلة يتنافى مع الصورة التي «يرن» بها ذهنهم لكان الأمر نكتة سخيفة لا اكثر، وكانوا سيجدون لها ألف دليل دحض.

حول هذا نشير إلى الواشنطن بوست أن نشرت في ١٠ نيسان ٢٠٠٦ تقريراً يؤكد أن القوات الأمريكية كانت قد نظمت حملة إعلامية للمبالغة

بقوة أبو مصعب الزرقاوي الذي يقود القاعدة في محاولة مستميتة للربط بين القاعدة وبالتالي أحداث ١١ سبتمبر والحرب على العراق. كذلك أشارت الصحيفة أن الهدف كان أيضاً إثارة نقمة العراقيين مستغلة الكره المفترض الذي صار العراقيون يكنونه للأجانب.

إنها نفس القوة التنظيمية الهائلة هذه أعطيت إلى بن لادن نفسه قبل ذلك كما نعرف جميعاً، ولنسمع رأي محمد حسنين هيكل القارديان البريطانية ٢٠٠١/١٠/١٠: «بن لادن لايملك القدرات لعملية بهذه الضخامة. عندما أسمع بوش يتحدث عن القاعدة وكأنها ألمانيا النازية أو الحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي، اضحك لأني اعرف ماذا هناك. بن لادن كان تحت المراقبة لسنوات: كل مكالمة تلفونية كانت تحت الرقابة، والقاعدة قد تم اختراقها من المخابرات الأمريكية والباكستانية والسعودية والمصرية. فليس بوسع القاعدة الاحتفاظ بسر عملية كهذه التي تحتاج درجة عالية من التنظيم ومن التعقيد».

لاتقتصر قصص الرنين على تضخيم الأشخاص بل أيضاً الإيحاء بأمور أخرى، ولعل أهمها في العراق تصوير الإحساس الطائفي الإسلامي بين الشيعة والسنة كعداء إجرامي بل في منتهى الإجرام، وان له القدرة على ثقب رؤوس الأطفال أحياء أن كانوا من الطائفة الأخرى.

لم تناقش الرؤوس التي سارعت بتصديق هذه القصص العجيبة وقصص أخرى مثل القتل على الهوية حتى دون التأكد من الهوية (الهويات يمكن أن تكون مزورة) والقتل العشوائي لبشر مختلط من الطرفين مثلما حدث في الأسواق العامة في مناطق مختلطة وفي تفجير كراج النهضة وفي مذبحة الطلبة أمام جامعة بغداد (إرهاب بريء من الطائفية). كيف تفسر نظرية الطائفية تفجير الطائفي لأبناء طائفته؟ أين ومتى تدرب الطائفيون على ثقب رؤوس الأطفال أحياء؟ متى جمعوا كل الحقد اللازم لمثل هذا؟ لِم لَم يظهر





مثل ذلك أو أي شيء قريب منه في أي يوم من تأريخ التعايش الطويل الذي مر به العراق قبل الاحتلال؟ وإذا كان الخوف وقلة السلاح قد منعا الشيعة من قتل السنة قبلاً، فلم لم يقض السنة على الشيعة وقد كان حكام العراق (حسب نفس الرواية) من السنة وقد امتلكت تلك الحكومة التغطية الأمريكية لكل جرائمها؟ ولماذا لم يهب الشيعة لينتقموا من السنة فور سقوط الحكومة فيذبحونهم عن آخرهم بدلاً من مظاهرات التآخي والوحدة التي طافت البلاد؟ ولماذا لم تمنع تلك الأحقاد الرهيبة القاتلة كثرة التزاوج المختلط بين الطرفين قبل الاحتلال وعلى طول التأريخ؟ هذا ما لم تطرحه العقول التي كانت «ترن» فيها صورة الطائفية كمجرم إرهابي قادر على كل شيء قدير، ولا داعي من وجهة نظرها لفحص هذا الفرض أو مراجعته!

## تعابير غريبة عن المنطق

المؤمنون بشيء سيقبلون أي شيء يؤكد صحة ما يؤمنون به وينفي ما يعارضه إيمانهم بلا مناقشة تقريباً، وهذا هو المصدر الرئيسي لضعف منطقهم وقدرتهم على النقاش والإقناع. فميزة النظر الحيادي إلى المعلومات القدرة على اكتشاف نقاط الضعف والحجج المضادة وبذلك يمكن لصاحب الرأي أن يغير رأيه أو على الأقل يستعد لما قد يطرح عليه من حجج مضادة وهذا ما يفتقده المؤمنون بأي شيء إيماناً قوياً، والمعتادين سماع كلام أمثالهم فقط والابتعاد عن غيره. ولا ينطبق ذلك على المعلومات فقط بل وعلى حكمهم على الأشخاص، فهم يجدون العلمانيين منافقين ولايستسهلون الاعتراف بأن علمانياً يمكن أن يقول الحق على نفسه. ولي في ذلك تجربة ظريفة حيث كتب لي مؤمن مسلم (صار صديقاً فيما بعد) رداً على إحدى مقالاتي التي حاولت بها أنصاف الإسلام من تهم علمانية متحيزة، رد قائلاً نَه يجدني أخطر من أولئك العلمانيون الذين يكتبون بحقد على الإسلام وأن لي مخططاً أبعد.. أو شيء من هذا القبيل. لقد كان الرجل يقاوم بشدة

فكرة وجود علماني يمكن أن يدافع عن الإسلام حتى عندما يراه محقاً في أمر ما.

لكن العلمانيون ليسوا بأفضل كثيراً في هذا، فكل ما هو إسلامي خاطئ اضطهادي غير ديمقراطي. بسبب هذه الصورة الرنينية ينحدر البعض إلى مناقشات وتعابير مضحكة في مغالطتها. إليك ما كتب اثنين منهم عن «حماس» الإسلامية:

الدكتور شاكر النابلسي (ترأس مؤخراً مؤتمر أقليات الشرق الأوسط في زيورخ) يكتب في «الحوار المتمدن»: «كذلك فقد نسيت حماس، أن السلطة الديكتاتورية، ومنها السلطة الدينية الحمساوية، لا تؤمن بالله حقيقةً، وإنما بالسلطة. ولذلك تتشبث حماس الآن بالسلطة، حتى ولو ضاع الجزء المتبقي من شتات وفتات فلسطين، وغضب الله. فمن طبيعة وطبع الديكتاتور في التاريخ، أن لا يقبل شرطاً من أحد، وألا يلتزم بما يلتزم به الإنسان العادل».

ويكتب كاتب علماني آخر هو «عبد المنعم الأعسم»: «حركة حماس ترفض رفضاً قاطعاً فكرة المشاركة المتساوية في إدارة القرار السياسي مع حركة فتح، على الرغم من أن حماس أوصلت الحكومة إلى الشلل والوضع الأمني إلى فلتان».

لقد كانت صورة حماس السلبية في رأسيهما العلمانيين من القوة بحيث منعتهما من رؤية اعوجاج المنطق الواضح في كلامهما. فالدكتور شاكر يتحدث عن حماس المنتخبة بأغلبية كاملة وبانتخابات مثالية، بعبارات «السلطة الدكتاتورية» و«السلطة الدينية» ورغم أنها لم تكد تبدأ فترة سلطتها فهو يتكلم عن «التشبث بالسلطة» وهو يستنتج من هذا أن حماس «لاتؤمن بالله حقيقة».

أما الأعسم فيغضبه رفض حماس «المشاركة المتساوية في إدارة القرار





السياسي مع حركة فتح» ويلومها هي وليس إسرائيل والغرب على إيصالها الحكومة إلى الشلل!

إنه كلام يشي بانهيار المنطق تماماً تحت تأثير «الرنين الإعلامي» في رأسي الكاتبين.

الحقيقة والخيال: هل تدخلت إيران؟

لنأخذ مثلاً آخر على «رنين» يشمل مساحة واسعة من الجمهور. لنسأل: هل تتدخل إيران فعلاً في العراق؟ اعتقد أن القليل من العراقيين سيخاطر بسمعته بطرح مثل هذا السؤال «السخيف» فـ «الجميع يعرف» أن إيران تتدخل وان هناك الكثير من الأدلة على ذلك قد اكتشفت إضافة إلى الكثير من الأسلحة التي هربت إلى المليشيات. أنا افترضت أنها قد تدخلت فعلاً بدرجة أو بأخرى، ليس فقط استناداً إلى الأخبار غير الموثوقة وغير المنسوبة وتصريحات الأميركان وخاصة العسكريين منهم، ولأنما افترض أن إيران القلقة على نفسها، من المعقول أن تتدخل لحماية نفسها أن لم نقل مصالحها. افترضت ذلك حتى قرأت اليوم هذا التصريح لإبراهيم الجنابي عضو مجلس النواب العراقي عن الكتلة الوطنية في مقابلة مع «راديو سوا»:

«س ـ يبدو موقف علاوي من تدخل إيران في العراق مختلفا هذه المرة عن المواقف السابقة، حيث يقول ليست هناك أدلة ملموسة وقاطعة على تدخل إيراني في العراق. أليس هذا بموقف جديد لكم؟

ج ـ هذا ليس موقفا جديدا، ولكن الدكتور إياد علاوي ينطلق من الواقع الموجود في العراق، طالما قالت الولايات المتحدة والقوات المتعددة الجنسيات أن لدينا أدلة ووثائق تشير إلى تورط إيران وتدخلها في الأمن العراقي. ولكن في واقع الأمر لا نرى شيئا، لا نحن ولا الدكتور علاوي كسياسي بارز ومعروف بالنسبة للعراقيين وله علاقات متميزة مع الولايات المتحدة لم يرى شيئاً ملموساً بيده. وعلى هذا الأساس بنى إياد علاوي جوابه بأنه لا توجد

أدلة مادية حقيقية تثبت هذا الطرح».

كيف ادخل في أذهاننا أن إيران كانت تتدخل إذن وأن هناك أدلة كثيرة على ذلك؟ هذه الفكرة الخطيرة التي قد تستعمل مبرراً لشن حرب طاحنة جديدة، من ادخلها في رؤوسنا وكيف تمكن من ذلك، ولماذا نحتاج إلى اياد علاوي وإبراهيم الجنابي ليوقظنا من غفلتنا؟ أين كان حذرنا وانتباهنا العلماني بشروطه العلمية المتشددة لتصديق الأخبار، أو الإسلامي بـ «أن لاتصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين»؟

### ١١ سبتمبر

ولفحص مثل يشمل مساحة أوسع من البشر في العالم نأخذ أحداث ١١ سبتمبر.

المتفحص للإنترنت يجد عدداً لاحصر له من الأسئلة التي تثير الشكوك بالقصة الأمريكية الرسمية للحادث، ورغم ذلك يصدق تلك القصة نسبة كبيرة من البشر.

في فلم وثائقي عن الشكوك المحيطة بما جرى في ١١ سبتمبر في أميركا عرض في التلفزيون الهولندي في العام الماضي، طرح أحد المشككين بالقصة الرسمية الأمريكية التساؤل المعقول قائلاً أن الغرب لم يبذل أي جهد لفحص ادعاءات الأمريكان ولم يضغط عليهم للحصول على الدلائل. وقارن قائلاً «لو أن الحادث حدث في الصين، وطلبت الصين على أساس ذلك المساعدة والتعاون من الغرب لملاحقة المجرمين لطالبناها بالأدلة، لكن شيئاً من هذا لم يحدث مع أميركا في ١١ سبتمبر ٢٠٠١».

وسواء كانت القصة الأمريكية الرسمية صحيحة أو مختلقة، يبقى صحيحاً أن العالم لم يفحص مصداقيتها بالجدية التي تستحقها ولم يعر الأسئلة الكثيرة الكبيرة ما تستحقه من اهتمام بل قبل القصة بسهولة كبيرة: أكثر أعراض «الرنين الإعلامي» أهمية!





### صدام حسين والقاعدة

من الصور الكاذبة الكبيرة التي خلقتها إدارة بوش في أذهان الأمريكان ثم استندت إليها، العلاقة بين صدام حسين والقاعدة. لم تكن الإدارة موفقة كثيراً في بناء هذه الصورة حيث شاءت صدف كثيرة وتداعيات عديدة إلى تفنيدها بالنسبة إلى المتابعين المتفحصين للأخبار. من بين هؤلاء بول بيلار العميل السابق في وكالة الاستخبارات الأميركية «سي. آي. ايه» المكلف منطقة الشرق الأوسط، الذي هاجم إدارة بوش بشكل خاص في سعيها إلى إثبات علاقة بين نظام صدام حسين والقاعدة مهما كان الثمن. فاضطر المسؤولون الأمريكان إلى الاعتراف بـ «خطأهم» في هذا الاعتقاد وأنه لم تثبت وجود أية علاقة بين صدام والقاعدة في مناسبات عديدة آخرها تقرير للبنتاغون صدر قبل فترة وجيزة على صحيفة الواشنطن بوست.

لكن المثير في الموضوع أن هذه الصورة التي تحطمت في مجال المثقفين والمتابعين بقيت فعالة في الطبقات الأخرى من الشعب كما أكدت الإحصائيات التي بينت أن نسبة عالية من الشعب الأمريكي مازالت تعتقد بوجود تلك القاعدة وأنها لم تصلها المعلومات بأن إدارة بوش قد تخلت عن هذا الإدعاء.

### ما نسميه نظرية المؤامرة

من يشكك بالقصة الرسمية لـ ١١ سبتمبر أو لأحداث أخرى مثل مقتل جون كندي أو ديانا، يعتبر من مروجي «نظرية المؤامرة»، ويحذف رأيه باستخفاف من المناقشة. لكننا لو تمعنا النظر فإن ما نبعده عن أذهاننا بهذه الطريقة ليس دائماً أصعب الاحتمالات قبولاً من الناحية المنطقية، وإنما هو دائماً الأبعد عن القصة الرسمية المسيطرة على الإعلام. أننا نقبل تلك القصة بسهولة أكبر كثيراً من الأخريات لقوة الإعلام المؤيد لها: علامة «رنين إعلامي»!

## نتاج «الرينين الإعلامي»: الصورة المصطنعة للعالم

### الصورة العامة عن المجتمع للفرد الأمريكي

في «السيطرة على الإعلام» يكتب جومسكي عن صناعة العلاقات العامة وتوسعها الكبير وسيطرتها على الجموع خلال سنوات العشرينات ثم في الثلاثينات حيث ظهرت مشكلة كبيرة في السيطرة على العمال في مطالبتهم بالمزيد من الحقوق من الشركات، فمثل تلك التي حدثت بعد الحرب العالمية الأولى كان هناك ركود اقتصادي مصحوب بقوة عاملة منظمة قوية.

تمت دراسة المشكلة من قبل منظمات رجال الأعمال مثل «المائدة المستديرة الوطنية للصناعيين ورجال الأعمال» (National Association of Manufacturers and the Business Roundtable) والتي صرفت مبالغ خيالية في وقتها على الموضوع. وقد جربت نتائج الدراسات، والتي سميت فيما بعد بـ«وصفة وادي موهاوك» (Mohawk Valley formula) بنجاح كبير في سحق الإضراب العام لصناعة الحديد الصلب عام ١٩٣٧ في بنسلفانيا ـ جونستاون. هذه المرة لم يتم الأمر بفرق التخريب وكسر الركب التي لم تعد نافعة، بل بواسطة جهاز إعلام دقيق التنظيم والفعالية. الفكرة كانت إيجاد طرق لتوجيه الرأي العام ضد المضربين وتصويرهم كمجموعة مثيرة للشغب وضارة بالمجتمع وتعمل بالضد من الصالح العام.

من أجل ذلك كان يجب تصوير «الصالح العام» باعتباره «لنا جميعاً»: رجال أعمال، عمال، ربات البيوت.. الخ. «نحن» جميعاً نبغي التعاون معاً في انسجام، وبـ «أمريكانية» (Americanism) ولكن هناك الضربون السيئون المشاغبون الذين يخربون انسجامنا ويتصرفون بالضد من «أمريكانيتنا». علينا أن نوقفهم لكي نتمكن من العيش معاً. فمدير الشركة المتعددة والفتى الذي ينظف الأرض لهم نفس المصالح، ونحن جميعاً نعمل بـ «أمريكانية» وانسجام ونحب بعضنا بعضاً.





تلك كانت الرسالة الأساسية، وقد خصصت جهود جبارة لإيصالها إلى الناس. لقد كان رجال الأعمال يسيطرون على وسائل الإعلام والمال لذا لاعجب أن نجحت «وصفة وادي موهاوك» نجاحاً ساحقاً واستعملت بعد ذلك تكراراً لتحطيم الإضرابات العمالية وأطلق على تلك الدراسات اسم «طرق علمية لكسر الإضرابات».

رنين صورة «وصفة وادي موهاوك» ستكون فلتراً (مصفاة) ذاتية في ذهن كل شخص وتجعله متقبلاً لكل خبر يؤكد الصورة ويرفض غيره، وبذا تتحول حتى الأخبار الحيادية إلى أخبار متجهة ضد العمال وإضرابهم، وهو «الرنين» الذي أراده مصممو الصورة.

### صورة الحرب الباردة

بعد سقوط السوفيت اكتشف الشعب الأمريكي مثل غيره من الشعوب الغربية أنهم كانوا قد بالغوا في الخوف من الاتحاد السوفيتي وقوته وعدوانيته وتهديده، كما اكتشفوا أن أمريكا ليست ذلك الملاك الذي كانوا يعتقدون، وقد فما السبب في تلك الصورة المبالغ بها لديهم؟

في «منع الديمقراطية» (Deterring Democracy) يكتب نعوم جومسكي في فصل «الحرب الباردة: حقائق وتخيلات» أن الصورة التقليدية التي كانت مسيطرة بشكل شديد هي أن العدوانية السوفيتية الخطيرة، والتي كان على الولايات المتحدة «احتوائها»، كانت السبب لتلك الحرب. في جانب كان هناك كابوس مخيف وفي الجانب الثاني «مدافع عن الحرية».

يكتب جومسكي أيضاً: «الهيكل الأساسي للموضوع له بساطة حكايات الأطفال: هناك قوتان متقابلتان في العالم، أحدها قوة شر مطلق والأخرى خير سماوي، ولا مجال للتفاوض بينهما. القوة الشريرة تسعى بطبيعتها إلى السيطرة التامة على العالم، لذا وجب التغلب عليها واقتلاعها

والقضاء عليها لكي يتمكن بطل كل ما هو خير، من البقاء وإتمام مهامه الرفيعة.

«الكرملين مصمم أساساً» كما يكتب باول نيتز في وثيقة حكومية أساسية (NSC 68) «لكي يحقق التدمير التام الإجباري لماكنة الحكومة وللهيكل الاجتماعي» في كل مكان لم يخضع له بعد. وعلى العكس من ذلك فان «الغاية الأساسية من الولايات المتحدة» هي «لتوكيد تماسك وحيوية مجتمعنا الحر المؤسس على الكرامة والقيمة الشخصية».

لاشك أن مثل هذا الكلام لايفترض أن يمر على عقل واع دون تمحيص كفيل برفضه بالأدلة المتوفرة في كل زمان، لذا فهو مؤشر لنا أن العقل الذي تقبل الصورة المثالية هذه، صورة قصص الأطفال كما يصفها جومسكي، ومررها ببساطة، أن هذا العقل قد تعرض إلى تربية «رنين إعلامي» ساعد على مرور الفكرة بلا احتكاك مع المنطق.

اقتبس أيضاً هذه الأسطر من مقالة نشرت تواً على الحوار المتمدن لصديقي سعد محمد رحيم، وهو ينقل تأثير «صورة رنينية» باسم «ترتيباتهم المسبقة» فيقول: «تقول بربارا توكمن عن الهجوم الياباني على ميناء بيرل هاربر إبان الحرب العالمية الثانية: (لقد حللنا الشيفرة اليابانية، وتلقينا تحذيرات بالرادار، واستقبلنا دفقاً متواصلاً من معلومات دقيقة... وكانت لدينا جميع الأدلة ورفضنا تفسيرها بصورة صحيحة، تماماً كما رفض الألمان عام ١٩٤٤ أن يصدقوا الدليل في نورمندي... فالناس لا يصدقون ما لا يُطابق خططهم أو يلائم ترتيباتهم المسبقة)».

مقال سعد محمد رحيم يركز على «الترتيبات المسبقة» ومقاومتها لما يختلف عنها في المجال الثقافي السياسي وتأثير سطوة الأيديولوجيات عليها(*).

(*) http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp&aid=87126
http://www.rezgar.com/debat/show.art asp&aid=93233





كيف يتم بناء «الرنين الإعلامي» وأدامته وتحويره؟

## الإيحاء

تحتاج الصورة «الرنينية» المزورة إلى بناء ذلك التزوير تدريجياً فكلما قبلنا درجة من الكذب وجعلناها صورة رنينية سهلت علينا قبول أفكاراً اصعب واكثر وضوحاً في زورها.

في البداية نحتاج إلى تعليقات لاتكاد توصف بالكذب بل بالإيحاء بالفكرة، دون دليل. أي أن أقوى ما يمكن اتهام تلك الإيحاءات بها هو الإهمال وليس التزوير المتعمد. مثل هذا الإهمال قرأته في التعليق التالي لصحيفة «الصباح»: «لسنا مع الاحتلال ونأمل بانسحاب سريع للقوات المتعددة الجنسيات، لكننا نقول أن الخسائر الناتجة عن الاحتلال لا تعادل واحدا بالمائة من الخسائر التي خلفها (الإرهاب والإرهابيون) ضد الشعب وممتلكاته، فمن القاتل؟ ومن هو الضحية؟ الشعب العراقي يعرف ولكن وسائل الإعلام العربية وبعض الإعلام العراقي لم يزل موغلاً في جريمة التغطية (للإرهاب والإرهابيين).».

هنا لايهم أن نتفق مع كاتب «الصباح» في أن «الخسائر الناتجة عن الاحتلال لا تعادل واحدا بالمائة من الخسائر التي خلفها (الإرهاب والإرهابيون)» أو لا نتفق معه. إنما المهم هنا أننا وافقنا بتلك المناقشة، دون وعي منا أو تمحيص، على أن «الإرهاب والإرهابيون» ليسوا هم الاحتلال نفسه! بهذا سجلت نقطة «رنين» في أذهاننا لصورة أن الاحتلال ليس هو الإرهاب وأنه يقف أمامه في المقارنة.

## الكتابة بشكل غير مسؤول

ومن الوسائل الإيحائية الكتابة بشكل غير مسؤول. لنأخذ مثالين من جريدة الزمان في ٢٠٠٦/٣/٣٠: «وقال سياسي عراقي بارز لوكالة رويترز

للأنباء (إذا بقي الجعفري مرشحا عن الائتلاف فلن تكون هناك حكومة)».

«وقال مصدر سياسي سني بارز أن جبهة التوافق لن تشارك في الحكومة إذا تقرر أن يقودها الجعفري. وقال «لا يمكننا العمل معه». وأضاف «كان ذلك واضحاً بالنسبة للشيعة ونحن أبلغناهم بذلك.. نعتقد أن ترشيحه مرة أخرى يظهر أنهم يتجاهلوننا. وقال بأننا لا يمكننا العمل معه».

من هو الـ «سياسي العراقي البارز»؟ من هو الـ «مصدر السياسي السني البارز»؟ هذا ما لا تقوله الجريدة، وقد ينتبه البعض إلى ذلك النقص، لكن الغالبية العظمى من القراء ستهضم الخبر بلا مراجعة، وبذلك يتم تأثيره الإيحائي الرنيني!

### فلتر متحيز للصحافة

بعد أن يضع الإيحاء الأساس لنا لبناء الصورة المزورة، سيكون بالإمكان وضع مقولات أكثر جرأة وأقرب إلى الكذب لتبني المزيد من الصورة الرنينية وهذه ستتيح لنا المزيد من الجرأة في التزوير وهكذا.

وفي كتاب «أوهام ضرورية» يكتب جومسكي في فصل «نموذج الدعاية» (PROPAGANDA MODEL).

«إن دراسة نماذج ثنائية تكشف لنا شكلاً متكرراً (في تعامل الإعلام): في حالة جرائم العدو، نجد الغضب الشديد والاتهامات التي تسند على أوهى الدلائل، وأحياناً يتم اختراع تلك الدلائل التي تبقى فعالة حتى بعد اكتشاف تزويرها، وتصفية المعلومات بشكل دقيق لحذف كل ما قد يدل على عكس ما نريد والسماح بما هو مفيد لنا والاعتماد على المصادر الرسمية الأمريكية (إلا إذا كانت تعطي الصورة غير المرغوب بها كما حدث حول كمبوديا تحت حكم بول بوت، وعندها يتم إهمالها)، تفاصيل لامعة، إصرار على أن الجريمة قد صدرت عن أعلى مستويات التخطيط حتى في حالة عدم توفر دليل على ذلك. وبالعكس، فعندما تكون مسؤولية





الجريمة عندنا، فإننا نجد الصمت والتبرير وتجنب الشهادات الشخصية والتفاصيل الخاصة ويحل محلها حديث طويل ممل عن تعقيدات الثقافات الأجنبية التي لا نفهمها وتقليص التركيز حتى أدنى المستويات المسؤولة أو تفسيرها كخطأ مفهوم في ظروف مربكة».

### جومسكي في ثوان

فإذا وصلنا إلى الصورة «الرنينية» المتكاملة فان هذه الصورة ستتمكن عادة من إدامة نفسها بنفسها من خلال رنينها نفسه حيث ستقاوم الأفكار التي تعارضها ويمكن أن تهدمها، وتمرر الأفكار المؤازرة لها.

عبر جومسكي عن الفكرة بطريقة أخرى جميلة حين كتب عن نظام الإعلام الأمريكي التجاري قائلاً: «لايحتاج المرء حين يريد استنكار العدوان السوفيتي على أفغانستان ودعم الاضطهاد في بولونيا إلى تقديم أية أدلة. لكن الأمر مختلف عندما يريد أن يتحدث عن العدوانية الأمريكية في الهند الصينية أو جهودها الرامية إلى منع تسوية سياسية للصراع العربي الإسرائيلي الممتد لسنوات طويلة».

### تحوير الصورة

«الصورة الرنينية» تميل إلى الثبات ومقاومة التغيير الذي قد تفرضه الحقائق، لكن تغييرها وتحويرها حتى إلى العكس منها ليس مستحيلاً لأنها تستند إلى خيارات متحيزة قامت بها قوة إعلامية قوية، فلا تعجز تلك القوة أن تعكس تحيزها لتعطي الصورة المعاكسة. ليس هذا سهلاً دائماً ولكن إنجازات القوى الإعلامية الكبرى تدعو إلى الدهشة والعجب. كمثال على ذلك يذكرنا يوسف محسن في مقالته «أسامه ابن لادن الأصولي التخيلي» كيف كانت صورة طالبان في البدء:

ـ «إن هؤلاء السادة هم النظير الأخلاقي للآباء الذين أسسوا الولايات

المتحدة الأميركية» هذا كان عام ١٩٨٥ عندما استقبل ريغان مجموعة رجال من ذوي الوجوه الضارية واللحى الطويلة والعمائم حيث قدمهم إلى رجال الصحافة في البيت الأبيض بوصفهم مقاتلين من أجل الحرية ضد إمبراطورية الشر (الاتحاد السوفيتي سابقاً).

## خاتمة: الفرص

في نقاش على الإنترنت مع شباب أمريكي قبل حوالي عشرة سنوات حول إسرائيل ودور بلادهم فيها، انتقل فيما بعد إلى دورها في العالم اكتشفت «صوراً رنينة» عجيبة (لم اسمها رنينية في حينها) يبدو أنها أدخلت في رؤوس الأمريكان ومنها أن «القنبلتين الذريتين على اليابان كانتا «إنسانيتان» بمعنى ما، لأنها، حسب تلك الصورة، أنهت الحرب التي كانت ستكلف من الضحايا أكثر من ضحايا القنبلتين لو استمرت!». وحين أفهمت محدثي أن اليابان كانت تريد الاستسلام وكانت تفاوض فقط من أجل سلامة الإمبراطور حينها، وان أميركا رفضت ذلك وفضلت قنبلة مدينتين بسكانها بدأ صاحبي يصحو من رنينه. قال في محاولة دفاع أخيرة أن اليابانيين كانوا يفضلون الانتحار على الاستسلام مما يعني أن البلاد لم تكن تريد الاعتراف بالهزيمة. سألته وما التناقض بين الانتحار والهزيمة؟ لماذا ضربت أميركا مدينة أن كانت تنوي كسب الحرب بأقل الخسائر، ولم لم تضرب قنبلتها في البحر وتفهم اليابانيين ما سيجري لهم أن رفضوا؟ ولماذا سارعت إلى ضرب ناكازاكي بعد هيروشيما خلال ثلاثة أيام ولم تمنح اليابانيين فرصة لفهم الموقف وإعلان الاستسلام؟ شكرني صاحبي قائلاً إنه استفاد كثيراً من النقاش وغادر.

رؤوس الأمريكان مليئة بهذه الصور الغرائبية عن التأريخ والتي تعمل عمل «الرنين» المناسب لإقناع كل فرد أن بلاده، وهي تركض كالثور الهائج محطمة البلاد تلو البلاد بسياستها وجيوشها، إنما كانت تقصد خيرا وتدافع





عن نفسها. جميع حروبهم «دفاعية» ضد الخطر الروسي أو غيره، حتى حرب فيتنام الجنوبية اعتبروها «دفاعاً» عن فيتنام ضد «العدوان الداخلي!» عليها، فلم يكن فيها روس لإلقاء العبء عليهم.

عندما وصلنا إلى هولندا قبل خمسة عشر سنة وللسنوات العشرة التالية لم يكن بالإمكان انتقاد أميركا أو إسرائيل. فالصورة «الرنينية» لهما لدى الشعب الهولندي كانت تقاوم ذلك بشده. لكن الحال تغير وصار من الصعب أن تجد هولنديا يدافع عن أميركا (رغم ذلك فالحكومة «الديمقراطية» تسير في ركابها بشكل مخجل للناس). أما إسرائيل ففازت باعتبارها الخطر الأكبر على السلام العالمي بأصوات ٧٤٪ من الشعب الهولندي، الذي سجل الرقم القياسي بين الشعوب الأوربية الغربية في تقييمه هذا، والتي صوتت جميعاً بلا استثناء باعتبار إسرائيل الخطر الأول على السلام في العالم وبنسب مذهلة!

دعوتي إذن في الختام من شطرين: الأول الانتباه إلى «الصور الرنينية» الشخصية التي قد يكون الإعلام غرسها في عقولنا، واكتشافها من خلال مراجعة ردود أفعالنا على تلقي الأخبار والأفكار وقياس معقولية وحيادية ردود أفعالنا تجاهها، وتطوير نظام تمحيص أكثر نباهة وعلمية مستقبلاً.

أما الثاني فهو أن فرصة تحطم «الصورة الرنينية» المثالية لإسرائيل وأميركا في الغرب تتيح فرصة إيصال المزيد من المعلومات والحقائق التي كانت تقاوم بشدة سابقاً حول الاحتلال الإسرائيلي وعنصريته، من ناحية، وبالنسبة (لليساريين منا) لجرائم وخطورة النظام الرأسمالي على العالم من ناحية ثانية. ويجب القيام بذلك بلا تأخير قبل أن تتمكن نفس القوى التي بنت الصور الرنينية المزيفة السابقة من بناء صور مزيفة جديدة، بعد تغيير الوجوه مثلاً.

٢٠٠٧/٤/٧

## أبي يفتش عن جواب لحيرته:
## بحث عن الحقائق في موضوع العنف في العراق (١)

قال أبي وهو يضع جانباً كتاباً كان يقرأ به: «الآن لم اعد استغرب أي شيء يحدث في العراق». ولأبي كل الحق ليس فقط أن يشمئز ويتقزز أو يخاف أو يصاب بالذهول أو الغضب من العنف غير البشري الذي يخيم على العراق اليوم، بل أن «يستغرب» أيضاً، وهذا فرق هام. فعلى عكس المشاعر السابقة فإن «الاستغراب» يبقي سؤالاً مفتوحا لأمر لم تجد له مكاناً، لا في المنطق ولا في التأريخ الذي عشته.

«المستغرب»، دون الغاضب والخائف والمصاب بالذهول وكذلك المشمئز المتقزز، إنسان يفكر ويبحث عن تفسير. الآخرون يبحثون بأي شكل وبسرعة عن حل ومنفذ للكارثة التي تكاد تدفع بهم إلى الجنون. العنف البالغ الفضاعة يدفع بنا إلى التصرف كالسمكة في الحكمة الصينية، والتي أخرجت من الماء فصارت تقفز يميناً وشمالاً بلا وعي. إنها لا تعرف أن كانت قفزتها التالية ستقربها من الماء أم ستبعدها عنه، لكنها تعرف بشكل أكيد أن وضعها الحالي لايحتمل، وان شيئاً ما يجب عمله للتخلص منه.

ولكن ما دمنا نحتفظ لحد الآن، ببعض العقل فلنجرب أن نتيح مكاناً للتساؤل الهادئ عن العنف الرهيب لعلنا نكتشف ما يرشدنا لعل قفزتنا التالية تكون باتجاه الماء وليس عكسه.

تبدو قصة الحقد الطائفي الذي يتحول إلى عنف شديد ويهدد بحرب أهلية، قصة معقولة لتفسير الوضع في العراق لإنسان يسكن في هولندا مثلاً، إلا إذا كان هذا الإنسان قد قضى معظم عمره في العراق ويعرف





مقدار تلك المشاعر الطائفية ومقدار التصلب الديني ويستطيع أن يميز بتأكيد كبير أن كانت تلك المشاعر وذلك التصلب قادرين على إنتاج انتحاريين أو قتلة على الهوية. إنه ليس بحاجة إلى قصة «معقولة» ليصدقها، كما هو حال الغرباء، فهو قد رأى وعرف بلاده وناسه وليس بحاجة لمن يشرح له كيف هو شكلهم ويقنعه به.

لنجرب أن نضع الأمر في نقاط: ما هي أشكال العنف في العراق ومن هم المتهمين به؟

تفجيرات انتحارية موجهة للجنود الأمريكان

تفجيرات انتحارية موجهة للشرطة والجيش العراقي

تفجيرات انتحارية موجهة لتجمعات الناس المدنيين العاديين.

هجمات مسلحة بدرجة عالية جداً من الحرفية تهاجم مجاميع كبيرة من الناس والشرطة دون التمكن من النيل من أحد من المهاجمين إلا نادراً.

قتل على الهوية موجه للمدنيين العراقيين

قنابل تفجر من بعيد موجهة ضد دوريات الجيش الأمريكي والشرطة العراقية

أعمال اختطاف ثم قتل غير محددة

أعمال اختطاف تنتهي بطلب فدية

أعمال اختطاف تنتهي بموت مصحوب بعلامات تعذيب وقسوة شديدة مقززة كقطع الأوصال والرؤوس ودق المسامير الخ.. بحيث يكون استعراض التعذيب وإنزال اكبر كمية من الرعب والألم في نفوس ذوي الضحايا وباقي الناس هدفاً أساسياً.

أما المتهمين بها فهم:

الصداميين الطامحين إلى عودة السلطة إليهم أو جزء منها

عناصر حاقدة طائفياً

لصوص وعصابات نفط وغيرها

أصوليين إسلاميين من أمثال أعضاء القاعدة والزرقاوي يهدفون إلى تحرير المسلمين أو الاستشهاد.. الخ

أعضاء المقاومة الذين لا يتحملون بقاء الأمريكان يحتلون العراق، ويشمل هؤلاء أيضاً من يرغب بالانتقام من الأمريكان لقتلهم أهلهم أو تحطيم مدنهم.

بالطبع تجاوزنا هنا جرائم العنف الأمريكية المعروفة ضد السكان، ليس لقلتها ولا لقلة أهميتها وإنما لأنها لاتدخل ضمن التساؤلات عن أسباب العنف. فهي معروفة ومجرميها معروفين لذا لا تثير استغراباً ولا تحتاج تحليلاً(*).

هل نسينا شيئاً؟ ربما...

المجموعة الثانية هي كل ما يطرح بشكل عام كمنفذ لكل القائمة الأولى من العنف في العراق، فلنفحص ذلك...

الصداميين يتكونون مِن مَن سار مع قطيع صدام لسبب أو لآخر، وهؤلاء لن يتخذوا قرارات كبيرة مثل المخاطرة بحياتهم، دع عنك التضحية بها. أما الباقي الواعي للأمر فهم أنانيين، بل مريضين في أنانيتهم وتخليهم عن أية أخلاق اجتماعية أو مبدأية لذا لن يقتلوا أنفسهم لأي سبب في العالم، ولا لأي مبدأ أو أي شيء. وهم أيضاً ليسوا بالحاقدين طائفياً فهم

(*) كأمثلة لجرائم العنف الأمريكية «المعروفة»، أشيركم إلى مقالتين لدي: «الجيش الصغير والحلم القديم بالسلام»
http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?aid=20255
و«دروس في الأخلاق، ولكن لمن؟ مجزرة حديثة ومجازر أخرى»:
http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?aid=66536





لايعرفون الدين دع عنك الطائفة، لذا تقتصر اعمالهم الممكنة على اللصوصية لجمع المال وعلى الإرهاب لتحطيم الدولة أملاً بالعودة إلى الحكم وعلى ضرب الأمريكان بطرق غير الانتحارية، غالباً من بعيد، ولكن ليس مستحيلاً أن يقوم بعضهم بعمليات خطرة حين يؤمر بذلك ضمن تنظيم قوي يخشاه.

الأصوليين الإسلاميين: يفترض أن هؤلاء سيقومون بمهاجمة الأمريكان فقط وأحياناً بالمخاطرة المباشرة بحياتهم، لكن من المشكوك أن يقوموا بالأعمال الانتحارية، لأن الجهاد الانتحاري محرم في الإسلام. وعلى أية حال فإن فعلوا ذلك فيجب بلا أدنى شك أن يكون موجها لقوات الاحتلال وحدها وفي أقصى الحالات قد تشمل رجال الحكومة والشرطة، وهي حالات مشكوك تماماً أن تكون ضمن الواجب أو المقبول إسلامياً من أية جهة، لكن لنقل أن البعض النادر قد يكون خارج السياق قليلاً فيفعل ذلك.

العناصر الحاقدة طائفياً: رغم أني لم اعرف في حياتي أشخاصاً يمكن تصنيفهم من هذا النوع، لكني سأفترض انهم موجودون فعلاً. وهنا يجب أن نتفحص درجة الحقد الطائفي الممكنة التخيل وهل يمكن أن تصل حد الإجرام؟ والسؤال المهم الآخر هو أن كانت هناك أية مشاعر طائفية، فهل هي نتاج لتأريخ اضطهادي من الفترة السابقة للسقوط أم أنها جاءت بعد السقوط؟

بالطبع ليس لدينا أي مؤشر ذو قيمة في الفترة الصدامية حيث يمنع التعبير عن النفس تماماً، لكن متابعة الأحداث بعد السقوط تعطينا فكرة ممتازة. نحن نذكر تماما أن التظاهرات العراقية الأولى كانت تؤكد وحدة السنة والشيعة وتضامنهم، أي أن أي كلام عن مشاعر طائفية حادة وحاقدة وراغبة في الانتقام كلام فارغ لايصمد أمام الأدلة. أما بعد سقوط النظام فلم يكن هناك حتى فرصة أو إمكانية لاضطهاد طائفة لأخرى لتتسبب في

الجرائم الطائفية فيما بعد كنتيجة (وليس كسبب) لتلك الأحقاد. فمن أين جاءت تلك الأحقاد الطائفية المفترضة إذن؟

اللصوص وعصابات النفط يمكن أن تسرق وتغتال، ولكن فقط عندما يكون ذلك ممكناً بشكل لا يشكل خطرا عليها، وليس هناك مجال لتخيل لص انتحاري، ولا حتى مهاجم يخاطر بحياته للهجوم على مجموعات كبيرة.

المقاومة لايمكن أن تتوجه بجهدها الأساسي لتحرير العراق إلا إلى الأمريكان، وبدرجة أقل كثيراً إلى الرؤوس الكبيرة في الحكومة المتعاونة معهم. وفي فلم عرض في التلفزيون الهولندي عن متهم عراقي هولندي من الفلوجه يشرح فيه أحد أعضاء المقاومة كيف انهم وجدوا طريقة سهلة ولا تكلف شيئاً ولا تحتاج إلى المخاطرة بالحياة وهي استعمال الهاتف النقال كجهاز تفجير عن بعد لاصطياد الدوريات الأمريكية على الطرق. فمن الواضح إذن أن هذا الطريق يفترض أن يكون الخط الرئيسي لعملياتها. وعلى أية حال من المحتمل أن يتوجه البعض إلى اغتيال كبار المتعاونين مع الأمريكان، كما انه ليس من المستحيل وإن كان يجب أن يكون نادراً تماماً أن ينتحر المقاوم بهدف من هذا النوع. أما الراغبون في الانتقام لسجنهم أو قتل أهاليهم فسيتوجهون، كالمقاومة تماماً، إلى الأمريكان بشكل رئيسي.

انتهينا من تعداد أنواع العنف واللاعبين المعروفين لتنفيذها، ونلاحظ من هذا التحليل الثغرات التالية في القصة المتداولة لتفسير تلك الأعمال وردها إلى أولئك اللاعبين:

الجرائم الطائفية والقتل على الهوية: لايوجد (بعد) من خلال هذا التحليل تفسير للجرائم الطائفية والقتل على الهوية، لأننا كما بيّنا، فإنه لا يوجد ما يكفي من الحقد الطائفي للتسبب في مثل تلك الجرائم. لم يوجد قبل سقوط النظام بدليل الجو الأخوي التضامني الذي شمل العراق بعد





الاحتلال مباشرة وبلا أية استثناءات حسب علمي، كما انه لم تكن هناك أية فرصة لخلق مثل ذلك الحقد الطائفي وبتلك الدرجة الكافية لإشعال جرائم طائفية.

وهنا من المناسب أن نقوم ببعض التفصيل للجرائم الطائفية ونقسمها إلى جرائم قتل اعتيادية لقاتل يعرف ضحيته شخصياً وقتل على الهوية وجرائم انتحارية في مناطق تجمع طائفي.

فأما الجرائم الشخصية فلا تنسب إلى الأحقاد الطائفية، حتى وإن كان القاتل والقتيل ينتميان إلى طائفتين مختلفتين، فالسبب الرئيس فيها شخصي، حتى وإن ساعدت الطائفية على القيام بالجريمة.

وأما القتل على الهوية فهو خرافة سخيفة، على الأقل بالنسبة إلى العراق. فالفرضية في تفسير الجريمة هي أن هناك (مجموعات كبيرة) شديدة التمييز الطائفي وبالتالي الحماس لطائفتها إلى الدرجة التي تدفعها إلى قتل أبناء الطائفة الأخرى (السنة والشيعة). ورغم أني اشك تماماً بوجود مثل هذا المجموعات، استناداً إلى معرفتي بالعراق والعراقيين لعشرات السنين، لكني سأفترض خطأي جدلاً وأنها موجودة فعلاً وبالعدد الذي يفسر كل تلك الكميات من الجرائم.

إن كان القائمون بجرائم القتل على الهوية فعلاً من المتعصبين شديدي الحماس لطائفتهم، فيمكن بسهولة تامة منع وقوع تلك الجرائم! يكفي أن ترفض الضحية المرشحة للقتل إعلان طائفتها، ولا تحمل هوية، لكي تفشل العملية. فالمفروض أن نفس الحماس الطائفي الذي يدفع بالقاتل إلى قتل أفراد الطائفة الأخرى، سيمنع هذا القاتل من قتل فرد لا يعرف طائفته خشية أن يكون من نفس طائفة القاتل!

لكننا نعلم جيداً أن هذه الطريقة لن تنجح، وإن رفض الضحية الإفصاح عن هويته الطائفية فإنه سيقتل فوراً وبدم بارد تماماً، مما يبرهن أن القاتل ليس

مهتماً على الإطلاق بطائفته (مهما كانت) ولا بالمنتمين إليها، وبالتالي فلا يوجد تفسير لتلك الجرائم على أساس مشاعر طائفية.

يقولون أن دوريات تقف في الشوارع كقطاع طرق، تنزل الناس من السيارات وتسأل عن هوياتهم وأسمائهم، فإن تبين انهم من الشيعة (وكان قطاع الطرق من السنة) (أو بالعكس) قتلوا الضحية، وإلا تركوها تمر بسلام. وبالطبع يمكن للمجرمين أن يقرروا بشكل عشوائي أن يقتلوا اليوم السنة أو الشيعة فقط، وأن يلبسوا ملابس ميليشيات جيش المهدي أو الدشداشة القصيرة، ليعطوا الجريمة طابعاً طائفياً مزيفاً. أما الناجون من الموت بفضل انتمائهم للطائفة المحظوظة لذلك اليوم، فسوف يهرولون مرعوبين لنشر الخبر دون تمحيص.

لا يوجد لاعبين في القائمة لعمليات الانتحارية ضد المدنيين: فلا توجد أية جهة إجرامية أو مقاومة في تلك القائمة يمكن أن تهدف إلى مثل تلك الأعمال، ولذلك فإنها تنسب بشكل غير دقيق إلى الحقد الطائفي. أن افتراض وجود (عدد كبير من) المجانين بطائفتهم بما يكفي لانتحارهم لقتل أبناء الطائفة الأخرى، افتراض مهين للعقل بحد ذاته، خاصة لأي عقل عرف العراق يوماً. ورغم أني أجد صعوبة حتى في الدخول في مناقشة ذلك، لكني اضغط على نفسي وشعوري وأفعل ذلك.

فأولاً الحماس الشديد للطائفة، سواء الشيعية أو السنية، يفترض الأيمان بالإسلام أولاً. وحتى وإن غطى الشعور الطائفي على الإسلامي، فإن بعض هذا الشعور لابد أن يكون موجوداً. وقتل الناس، وبينهم أطفال مثلاً، لا لسبب إلا لكونهم من طائفة أخرى، حتى أن لم يكن يعتبرها طائفة إسلامية حقيقية، جريمة لا خلاف عليها في الإسلام، ولم يدع إليها صراحة أي إمام أو سيد من الطائفتين، فكيف سيتحمل هذا الانتحاري وزر تلك المخاطرة الشديدة في أن يكون مصيره النار، ولماذا؟





ومن ناحية أخرى فإن الكثير من تلك الجرائم الانتحارية تنفذ في مناطق محايدة طائفياً يتوقع أن تحتوي بشراً من كل الطوائف، مثل الانتحار في مسطر تأجير العمال أو كراج النهضة في بغداد التي تعج بالشيعة والسنة على السواء. من يمكن أن يفعل ذلك إذن؟ أن تذكرنا أن الصداميين واللصوص لا يقتلون أنفسهم لأي سبب في الأرض أو السماء؟

من جرائم العنف يبقى لنا أ ـ عمليات الخطف والقتل غير المحددة، وب ـ الجرائم عالية الحرفية، وج ـ جرائم التعذيب الشديد المتبوع بالقتل، الهادفة إلى الإرهاب مباشرة.

فأما الأولى فيمكن أن يكون لها أي سبب، ولذا فهي ليست غريبة ويمكن أن يقوم بها أي مجرم اعتيادي ولا تدل أكثر من أن الوضع الأمني سيء.

وأما الثانية والثالثة فتحتاجان إلى تدريب خاص ممتاز وطويل. فليس من السهل تدريب مجموعة من المقاتلين لتهاجم دفعة واحدة عشرات من أفراد الشرطة (المسلحين والمدربين على السلاح) لتأسرهم أو تقتلهم جميعاً، وان يتكرر ذلك مرات عديدة دون أي نجاح يذكر من قبل الشرطة في إيقاع أية خسائر هامة في الجهة المهاجمة في أية عملية.

إضافة إلى التدريب العسكري الممتاز، تحتاج العمليات من النوع الثاني (ضد عدد كبير من أفراد مسلحين) إلى عمليات استخباراتية دقيقة لكي تضمن في كل المرات أن لاتقع العملية صدفة أثناء تواجد قوات أمريكية أو عراقية كبيرة قريبة.

وأما العمليات من النوع الثالث (التعذيب الشديد بهدف الإرهاب) فتحتاج، إضافة إلى سنين عديدة من التدريب على القسوة، بل وتحتاج أن يبدأ الممتازون بها تدريبهم على القسوة على الناس والتعذيب وهم صغار.

لذا فإن منفذوا النوعين من العمليات ليسوا من الناس العاديين إطلاقاً.

ولذا فإن ردود الفعل على أعمال التعذيب الشديد، والمتمثلة بدعوة «الناس» إلى تجنب العنف وترك هذا «الجنون» والعودة إلى العقل ونبذ «الطائفية البغيضة»، ليست إلا دعوات ساذجة في احسن الأحوال، ومغرضة تساعد الإرهاب في أسوأ تلك الأحوال.

إنها هكذا لأنها تفترض أن القائمين بمثل هذا العنف هم من الناس العاديين تدفعهم دوافع طائفية أو ما شابهها، وأن تلك العواطف يمكن أن تنموا بين الناس الاعتياديين لتمكنهم من القيام بتلك الأعمال الوحشية دون سنوات التدريب الموجه بامتياز والتي تحدثنا عنها. مثل تلك الدعوات لنبذ العنف والتعصب الطائفي تحمل رسالتين: الأولى دعوة للسلام، لاقيمة لها لأنها توجه خطأً إلى من لم يقم بالجريمة، وغالباً لم يقم بأية جريمة في حياته، والرسالة الثانية الضمنية هي أن من قام بالجريمة هم أناس عاديون يدفعهم شعورهم الطائفي، وأن هذا الشعور قد بلغ في العراق هذا المبلغ الشديد، وأنه لابد بالتالي من الدفاع عن النفس بالقيام بأعمال مضادة ضد الطائفة الأخرى، وهي بالتالي دعوة مستترة إلى الحرب الأهلية الطائفية!

من هذا التحليل نستخلص أن الجريمتين الأخيرتين التين تمت مناقشتهما، لايعودان للناس الإعتياديين بأي شكل، وان الدعوة إلى نبذ العنف وأمثالها لا تسهم إلا في زيادة العنف لأنها تتهم ضمناً ابرياء وتدعو اخرين إلى الحرب الأهلية. ومن الممكن طبعاً أن يكون منفذي مثل تلك العمليات من الصداميين، من بقايا رجال الأمن المدربين بشكل ممتاز على السلاح وعلى التعذيب. لكن من المشكوك فيه أن تتمكن تلك الجهات في ظروف العراق الحالية من تنظيم كل هذا العنف بنفسها ولوحدها باعتبارها ملاحقة من الناس والسلطة.

التنظيم الدقيق المدعوم بمعلومات استخبارية ممتازة بالنسبة للعمليات الكبيرة، أمر يثير الشكوك بالقائمين بها، ونوعية العنف الشديد الذي أخذ





أشكالاً لم يعرفها العراق وإن عرفها فبشكل نادر جداً مثل قصص وحشية ناظم كزار، تثير أيضاً الشكوك، فلم يكن في العراق الكثير من ناظم كزار عند السقوط، وإن كان فليس بهذا العدد. ومن ناحية أخرى فمن غير الواضح كيف يمكن لمثل هذه الأعمال أن تخدم أهداف الصداميين، فهي وإن كانت تثير الشكوك بالحكومة المنتخبة وقدراتها، لكنها في الوقت نفسه تثير في الناس الخوف وتدعوهم إلى تأجيل رحيل القوات الأمريكية، وهو ما يجب أن يكون الهدف الرئيسي للصداميين، كما للمقاومة بكل أشكالها.

النقطة الأخيرة الأكثر خطورة هي أن أننا لم نجد مرشحين مناسبين للجريمة من النوع الثالث: الانتحاريين في تجمعات الناس المدنية. فلا المقاومة يمكن أن تفعلها، ولا الصداميين واللصوص مستعدين للموت في سبيل أي شيء ولا المندفعين لأسباب إسلامية يمكن أن يفعلوها، ولا الطائفية الشديدة تفسرها، خاصة أن ضحاياها بعضها مختلط.

هذه الدقة في الإنجاز في العمليات الكبيرة في ظروف غير مريحة للصداميين وهذا العنف غير المسبوق في تأريخ العراق في احلك أيامه، نقاط تشكك في تفسيرات هذه الأنواع من العنف، ولكن هذا الانتحار في الناس المختلطين غير قابل للتفسير إطلاقاً. هذه هي النقاط المحيرة التي أثارت «استغراب» أبي من العنف الحالي في العراق كما أثارت استغراب الكثيرين غيره.

لكن ما الذي قرأه أبي في ذلك الكتاب فأزال استغرابه؟

لقد أطلت عليكم في هذه المقالة فلا مناص من ترك جواب هذا السؤال إلى الجزء الثاني من هذه المقالة، خلال هذا الأسبوع، فإلى ذلك الحين، متمنياً للجميع وخاصة لمن في العراق السلامة من كل هذا العنف والألم والدمار.

٢٠٠٦/٩/٢٢

## أبي يجد جواباً لحيرته:
## بحث عن الحقائق في موضوع العنف في العراق (٢)

في موقع الحوار المتمدن كتب شمدين شمدين «في رمضان.. هل يصوم المتشددون عن العنف؟» قائلاً:

«العالم الإسلامي يستعد اليوم لاستقبال ضيف كريم، ضيف يحرم في حضوره سفك الدماء والاعتداء على الأعراض»... «الصوم يعني الامتناع عن استهداف الأطفال والنساء وقطع الرؤوس وتفخيخ الأجساد»... «علينا جميعاً أخذ استراحة من القتل والفساد والقمع»... «واليوم الناس تنتظر رمضان كي تستريح قليلا من صوت المدافع والرصاص، فهل يشملهم رمضان بكرمه وعطفه ويتوقف كل هذا العنف ولو لشهر واحد؟ أمنية نتركها وديعة لدى أصحاب الشأن وندعو الله أن يملأ قلوبهم بالعطف والحنان على هذا الواقع المر الذي نعيشه كمسلمين أولاً وأخيراً»، لكن العنف لم يتوقف ولم يخف...

http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?aid=76206

١ ـ روت عجوز قروية تبلغ الثمانين قائلة للصحافة أن مهاجمين أخرجوا أولادها الكبار الثلاثة سحلاً من بيتهم النائي المنعزل) وجزّوا رقابهم.

٢ ـ قال أن الضحايا يضربون خلال التحقيق حتى يشرفوا على الموت ثم تجزّ رقابهم عادة وتلقى جثثهم من مرتفع إلى... أو تدفن في مقابر سرية، وتحدث عن «فصائل الموت».

٣ ـ «لايقتل الناس من قبل كتائب الموت ويكتفي بقتلهم فقط ـ فرؤوسهم تقطع ثم تعلّق على أوتاد لتأشير حدود الأراضي. ولا تبقر بطون الرجال... ويكتفي ببقرها فقط، فأعضاؤهم التناسلية تقطع وتحشى بها





أفواههم. ولا تغتصب النساء ويكتفي باغتصابهن فقط، فأرحامهن تنتزع من أجسادهن وتغطى بها وجوههن. ولا يكفي قتل الأطفال، إنهم يجزّون جراً على الأسلاك الشائكة حتى تتساقط لحومهم عن عظامهم والأباء والأمهات يجبرون على مشاهدة ما يجري..

٤ ـ عثر على جثث رجلين وصبي في موقع معروف ترمي فيه كتائب الموت ضحاياها، وكان الثلاثة معصوبي الأعين وأيديهم مربوطة خلف ظهورهم وآثار التعذيب بادية عليهم. وذكرت لجنة حقوق الإنسان غير الحكومية التي واصلت عملها رغم اغتيال مؤسسيها ومديرها، أنه تم العثور على ثلاث عشرة جثة في الأسبوعين السابقين وعلى أغلبها آثار التعذيب، ومن ضمنها امرأتان علّقتا إلى شجرة من شعرهما وقد قطعت أثداؤهما وصبغ وجهاهما بالأحمر.

٥ ـ امرأة فلاحة عادت إلى بيتها ذات يوم فوجدت أمها وأختها وأطفالها الثلاثة جلوساً حول المائدة وقد وضع الرأس المقطوع العائد لكل منهم على المائدة بعناية أمام جسده، ورتبت اليدان فوق الرأس على نحو «كأن كل جسد كان يضرب رأسه بيديه». وقد وجد المغتالون، صعوبة في تثبيت رأس أحد الأطفال الثلاثة، البالغ من العمر ثمانية عشر شهراً في مكانه، فدقوا اليدين على الرأس بالمسامير. وقد عرضت في وسط المائدة بذوق رفيع، طاسة كبيرة مليئة بالدماء.

* * *

نعم... أعلم انك تعرف تلك الصور الرهيبة... لكنك ربما لا تعلم أنها ليست من العراق، ولم ترتكب هذه الجرائم اليوم، إنما في أمريكا الوسطى وقبل عشرين عاماً، في الثمانينات![*]

(*) «إعاقة الديمقراطية: الولايات المتحدة والديمقراطية» البروفسور الأمريكي نعوم جومسكي، مركز دراسات الوحدة العربية

كان الحديث عن مثال لاستهداف الكونترا المدعومة من أميركا للحكومة المنتخبة (ساندينستا) والجريمة ارتكبها رجال كونترا يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٨٩

الحديث كان لسيزار فيلمان خويا مارتينيز، الهارب من جيش السلفادور يخبر الصحفيين ومساعدي أعضاء الكونغرس في واشنطن عن اشتراكه في عمليات تعذيب وقتل تنتهي بإلقاء الضحايا في مياه المحيط الهادي تقوم بها مجموعة القوات الخاصة المسماة (GC - 2) بعلم أكيد من المستشارين الأمريكيين. وقد نفت إدارة بوش (الأب) هذه الاتهامات ولو أنها أقرت بأنها «خطيرة جداً» وزعمت أن التحقيقات جارية. لكنها حاولت إخراس مارتينيز وترحيله إلى السلفادور قبل أن تسبب معلوماته الكثير من الضرر.

ارتكبت في السلفادور من قبل الحرس القومي، وذكرها الأب سانتياغو الذي قتل فيما بعد

كانون الثاني ١٩٨٨

رواها الأب دانييل سانتياغو، وهو قسيس كاثوليكي يعمل في السلفادور، في صحيفة أميركا اليسوعية واصفاً أعمال الحرس القومي السلفادوري التابع للحكومة المدعومة من الحكومة الأمريكية(*).

والآن هل هذا التشابه مجرد صدفة؟ وما العلاقة بين العراق وأمريكا الوسطى التي تقع على الجانب الآخر من الكرة الأرضية؟ ربما لا تكون فكرة الصدفة مقنعة تماماً إذا علمنا بالوجود الأمريكي في البلدين، وإذا علمنا أن سفير أميركا في هندوراس كان متهماً بتنظيم الدعم لفرق الموت في بلدان أميركا الوسطى من سفارته، وان هذا السفير ليس إلا نكروبونتي! السفير الأمريكي السابق في العراق!

(*) Daniel Santiago, "The Aesthetics of Terror, the Hermeneutics of Death", America, 24/3/1990.





أمسكت كتابي الذي كان أبي يقرأه، وفهمت لم قال انه لم يعد يستغرب أي شيء يحدث في العراق!

* * *

**ملحق**

قبل مجيئه للعراق كان نيكروبونتي سفيراً للولايات المتحدة في هيئة الأمم المتحدة، وقد قوبل ترشيح الرئيس بوش لنيغروبونتي لهذا المنصب حينها باحتجاجات واسعة من قبل منظمات حقوق الإنسان وغيرها، حول دوره في دعم الإرهاب في أميركا الوسطى.

كانت الاحتجاجات من القوة بحيث دفعت بمجلس الشيوخ إلى التحقيق في الأمر، وتأخير استلامه لمنصبه لمدة ستة أشهر. لكن إدارة بوش أصرت على ترشيحه، بل حاولت إسكات الشهود الذين يعرفون معلومات قد تهدد تعيينه. ففي ٢٥ آذار، كتبت «لوس انجلس تايمز» تقريراً عن الأبعاد المفاجئ لبعض أعضاء فرق الموت الهندوراسية، الذين كانوا يعيشون في الولايات المتحدة.

كذلك أشار الصحفي بيل فان إلى أن نيغروبونتي، والذي رشح لتمثيل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة بعد اسبوا واحد فقط من هجمات ١١ سبتمبر، كان مسؤولا عن تنظيم دعم الـ (CIA) لمرتزقة الكونترا والتي تسببت في مقتل ٥٠ ألف إنسان، وقال إنها مسخرة أن يرشح شخص متورط بمثل تلك الأعمال الوحشية، ليتحدث للمجتمع الدولي عن «محاربة الإرهاب».

http://www.globalresearch.ca/articles/VAN111A.html

«نيغروبونتي: السجل الخطير لسعادة السفير» مقالة نشرتها في تموز ٢٠٠٤ على إثر تعيين نيغروبونتي سفيراً للولايات المتحدة في العراق.

http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?aid=20653

«الحكومة العراقية والشعب والمنظمات والمثقفين مدعوون إلى الإسراع بإفشال تعيين نيغروبونتي قبل فوات الأوان» هذا ما كتبته في آب ٢٠٠٤، في مقالة بعنوان: «نيغروبونتي: إرهابي خطر يجب طرده فوراً» وتحتوي المقالة العديد من وصلات الإنترنت لمقالات عن تأريخ نيغروبونتي:

http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?aid=21758

لكن، وكما كان متوقعاً، لم يهتم أحد بالأمر ولم تحدث تلك المقالة وتلك التي سبقتها أية ردود فعل. وحسب علمي لم يكتب الكثير عن هذا الموضوع الخطير بالعربية، لكن كتاباً آخرين أعطوه اهتماماً اكبر.

من مقالة لـ ماكس فولر هو مؤلف كتاب «العراق: الخيار السلفادوري يصبح حقيقة» نقتطع ما يلي:

«هنالك شخصية محورية في عملية تطويرِ مغاوير الشرطةِ الخاصّة هي جيمس ستيل Steele James، هو ضابط سابق في القوات الخاصة الأمريكية، دشن خبرته في القوات الأمريكية الخاصة في فيتنام، قبل أن يتحول إلى إدارة المهام العسكرية الأمريكية في السلفادور في ذروة الحرب الأهلية في تلك البلاد. كان جيمس ستييل مسؤولاً عن اختيار وتدريب الوحدات الصغيرة (أو فرق موت) التي تباهت بمسئوليتها عن إيقاع ٦٠٪ من الإصاباتِ في «حملة مكافحة التمرّد» في السلفادور. هؤلاء الضحايا كانوا بالأساس يعدون عشرات الآلاف من المدنيين العزل (المصدر مان ويرنك الحرب على السلفادور (Manwaring) ١٩٨٨ ص ٨ ـ ٣٠٨)».

«هناك مساهم أمريكي آخر، هو ستيفن كاستيل Steven Casteel الذي سبق ذكره كأقدم مُستشارِ أمريكيِ في وزارةِ الداخلية، يسخر من الاتهامات الخطيرة والموثقة لانتهاكات حقوق الإنسان ويزعم بأنها محض «إشاعات ودسائس»، وكاستيل هذا، مثله مثل زميله ستيل كسب خبرته في





أمريكا اللاتينية، بالمشاركة في الحرب ضد «بابلو اسكوبار» بارون الكوكائين، وذلك أثناء حروب كولومبيا ضد المخدرات في التسعينات. هذا بالإضافة لعمله مع القوات المحلية في بيرو وبوليفيا».

«إن خلفية كاستيل، تكتسب مغزى خاصاً، لأن هذا النوع من التحري المخابراتي المساند، وإنتاج قوائم الموت، اصبح صفة مميزة للمشاركات الأمريكية في البرامج المضادة للتمردات».

«كتب ياسر الصالحي مراسل شبكة النايت رايدر (Knight Ridder) بان شهودِ العيان، ادعوا بأن العديد مِنْ الضحايا، تم القبض عليهم مِن قِبل رجالِ يَرتدون بزات المغاويرِ الرسمية، في سيارات تويوتا لاند كروز بيضاء، تبرز علاماتِ الشرطةِ المميزة.. نُشِرت آخر مقالة له في ٢٧ حزيرانِ ٢٠٠٥، وبعدها بثلاثة أيام، قتل ياسر الصالحي بيد قنّاص أمريكي في نقطة تفتيش روتينية».

«على أية حال، بدلاً مِنْ أن يَضعَ اللائمةَ مباشرة على أجهزة الدولة العراقيةِ الجديدةِ، اختارت شبكات الإعلام الرئيسية أن تحرف الاهتمام بعيدا مستخدمة عددا مِنْ الأدوات الكتابية المعتادة. الأداةَ الأولى أن تُوضع حالاتَ القتلِ هذه في سياق إطار واسع وثابت مِن» العنفِ والعنف المضاد الطائفيِ «المُفتَرَضِ».

«أما أهم شيء في التغطية الإعلامية، فهو التركيز بشكل أو بآخر، بأنّ الحكومةَ ووزارةَ داخلية والشرطةَ هم بالكامل تحت السيطرةِ الطائفية الشيعية».

«وبينما تستخدم كُلّ هذه الأدواتِ وبتشكيلات متنوعة في تفسير الظاهرة، تغِيبُ من كل التقارير وبشكل مريب أيّ محاولة جدية لتمحيص الدور الذي تقوم به الدولة العراقية الجديدة أو قوى الاحتلال».

«منذ انتخابات ٣٠ كانون الثاني، وانتقال السلطة من الحكومة المؤقتة لأياد

علاوي إلى الحكومة الانتقالية لإبراهيم الجعفري في أيار ٢٠٠٥، بدأت جوقة الإعلام الرئيسية تعزف على نغمة سقوط السلطة في العراق بأيدي الأغلبية الشيعية، وتحديدا ادعت الجوقة الإعلامية أن وزارة الداخلية وقوات الأمن أضحوا تحت سيطرة المجلس الأعلى وبان فيلق بدر يستحوذ الآن على سلطة هائلة داخل الوزارة حيث أن الوزير نفسه، بيان جبر، يوصف بكونه من أعضاء فيلق بدر، وبأن هذه السلطة تتجسد في سياسة اجتثاث البعث، هذه العملية التي تعطلت في زمن حكومة علاوي ولكنها تعتبر أساسية عند الحكومة الجديدة. الإدارة الأمريكية في الواقع عارضت هذه السياسة بشدة بحجة خسران الكوادر المخضرمة (أي المفضلين لدى واشنطن) بالأخص ضمن قوات الأمن وأجهزة المخابرات (Washington Post)».

«استمرار الجنرال رشيد فليح في الاحتفاظ بمركزه هو أمر جدير بالملاحظة، فرغم كونه شيعيا فهو كان المسؤول عن قمع الانتفاضة التي أعقبت حرب الخليج وبالذات في مدينة الناصرية، وبهذه الصفة يفترض أن يكون من أوائل المرشحين لأية سياسة اجتثاث بعث جدية. كذلك الحال بالنسبة لعدنان ثابت الذي احتفظ بمركز القائد الأعلى لكل القوات الخاصة لوزارة الداخلية»

«من الواضح إذن أن الغاية من الحديث أو التلميح بان ميليشيات مبهمة تقوم أعمال الإعدامات والنزاعات الطائفية ووضع اللوم كله على السيطرة الشيعية على وزارة الداخلية (مركز الفضائح حسب تشخيص بيتر بيومونت) يهدف في الواقع لإبعاد التهمة عن الولايات المتحدة من الجرائم الفظيعة ضد الإنسانية. استخدمت الولايات المتحدة استراتيجيات تظليل مماثلة في كل صراعاتها ضد التمردات التي شاركت فيها. واكتسبت الاستراتيجيات هذه تسمية محددة تعرف بـ: (الإنكار بمصداقية) - (plausible deniability)».

«وفي حالة العراق تحديداً فإن استراتيجية التظليل هذه مصممة ليس فقط





للتستر على المدبرين الاستراتيجيين الحقيقيين لجرائم الإبادة هذه ولكنها تبدوا كذلك موجهة نحو خلق ذات الاستقطابات الطائفية بالضبط التي تتبرقع بها هذه الجرائم»(*).

مايك وتني الكاتب الأمريكي يكتب في مقالته «ديمقراطية فرق الموت» قائلاً: «في الحقيقة، لو أن أي منا شارك في وضع خطة البنتاغون لتهدئة الوضع في العراق، ربما سيفعل الشيء نفسه وخاصة أن دائرة الحرب تعمل فوق طاقتها، وعليه أن خطة ما يجب صياغتها لصرف أنظار العراقيين من قوات الاحتلال إلى الاقتتال الداخلي بينهم. الخيار الوحيد المتاح هو التحريض على العنف الطائفي لجعل الحرب الأهلية حتمية بحيث لايمكن تجنبها. هذا بالطبع هو وظيفة فرق الموت التي دربها الأمريكان. (النيويورك تايمس أكدت أن فرق الموت التابعة لوزارة الداخلية العراقية تم تدريبها على يد القوات الأمريكية)».

ويضيف:

«الإعلام يصر على أن تدمير المرقد هو بمثابة «نوع من حادث ١١/٩» سبب تصعيدا في إراقة الدماء. ولكن هل حقا كان هذا هو السبب؟ أم انه كان مجرد جزء من خطة شاملة سرية لإثارة حرباً أهلية».

(*) ترجمة مقالة ماكس فولر «استغاثة كاذبة عن ذئب» حول فرق الموت في العراق. http://www.albadeeliraq.com/showdetails.php&kind=dangerous&id=18

كاتب المقالة السيد ماكس فولر هو مؤلف كتاب «العراق: الخيار السلفادوري يصبح حقيقة»
Max Fuller is the author of 'For Iraq, the Salvador Option Become Reality' published by the Centre for Research on Globalisation

يمكن مراجعة النص الكامل للمقالة باللغة الإنكليزية في هذا الرابط:
http://www.globalresearch.ca/index.php&context=viewArticle&code=FUL20051110&articleId=1230

«أن ما نراه من عنف طائفي مزعوم في العراق يتطابق مع ما شاهدناه سابقا في مناطق نفوذ «السي أي أي» كالسلفادور أو نيكاراكوا. دك جيني ورامسفيلد ونيكروبونتي هم اللاعبون الاساسيون في تلك الصراعات. وعليه من المحتمل أن هؤلاء سيوظفوا، ما اكتسبوه من خبرة في مكافحة التمرد في تلك المناطق، في الحرب الدائرة حاليا في العراق وخاصة وحسب اعتقادهم أن تجربة السلفادور برهنت لهم على أن الجماهير في النهاية يمكن إخضاعها بالإرهاب».

أما الهدف من مثل ذلك الإرهاب فيرى جومسكي: «إن هذا «القتل السادي يولد الرعب» فيكون هناك الكثير من العمال الخانعين الذين يسهل انقيادهم، ولا تكون هناك شكاوى، ويكون من الممكن متابعة المشروع السياسي ـ الاجتماعي بلا قلق». ص ٤٤٢.

فالناس كما كتب برتراند راسل: «بحاجة إلى أسباب مقنعة للتخلي عن حقوقهم».

إذن... فبينما كنا نتلهى بحريتنا في الكتابة وتكوين الأحزاب واستيراد السيارات، كانت شبكة الإرهاب تضع أسسها وتجند المجرمين وبقايا النظام السابق والمخلصين لها من رموز النظام الجديد، استعداداً لهذا اليوم. هذا اليوم الذي تتصاعد فيه تلك الاتهامات للميليشيات والطائفية بارتكاب الجرائم العجيبة، خاصة من ضباط الجيش الأمريكي. ومن ناحية أخرى تبين الإحصاءات المتتالية ازدياد اقتناع الشعب بمسؤولية الجيش الأمريكي عن تلك الجرائم فبلغ من يريد انسحاب الأمريكان خلال عام ٧١٪، بينما بلغ من يؤيد الهجمات على الجيش الأمريكي ٦١٪، وهي نسب تقارن قوتها القانونية بقوة الدستور نفسه. هذا فيما تقف الحكومة مشلولة بشكل غريب، فلا هي تحقق في الميليشيات التابعة لأحزابها، ولا هي تحلها ولا هي بالمدافعة عنها.





في هذا الوضع الهلامي الحائر الفقير إلى الحقائق المحددة والخالي من التحقيقات لأجل الوصول إليها يتخبط الناس كالسمكة الصينية التي أخرجت من الماء، فيشارك الجميع في إلقاء اللوم على «الطائفية» و«نزعة العنف» و«قسوة الناس» لتفسير كل هذا الكيان الهائل من العنف الغريب، مسهمين بذلك في زيادة الماء عكرة، كما فعل شمدين شمدين في مقالته التي أشرت إليها أعلاه.

ومن الغريب أن هناك نقطة لا تناقش أبداً. وهي أن الجهات الإرهابية في الميليشيات، أن صح وجودها، لن يضيرها حل تلك الميليشيات أبداً، ولا أساس للافتراض أن تلك العناصر ستفقد تنظيمها وسلاحها وقدرتها على تنفيذ جرائمها، وأن السبيل الوحيد إلى ذلك هو اكتشافها بشكل محدد وتوجيه الضربة ومحاسبتها بقسوة على جرائمها، وليس الاكتفاء الكسول بحل تلك الميليشيات. فماذا لو استمرت الجرائم بعد حل الميليشيات؟ أن هذه الحلول البلهاء المتجنبة لعناء التحقيق والإرادة لا تعد العراق إلا بالكارثة النهائية التي صارت إليها السلفادور حين وصفها الأب إغناصيو إلاكوريا، مدير الجامعة اليسوعية قبل اغتياله ـ بأنها «حقيقة واقعة ممزقة، ومصابة بجرح مميت».

٢٠٠٦/٩/٢٩

## من قتل أطفال النعيرية؟
## رائحة فضيحة أكبر من أبي غريب

قبل سنتين، الأربعاء ١٣ تموز ٢٠٠٥ على وجه التحديد، ارتكبت في النعيرية في بغداد إحدى أبشع الجرائم الإرهابية التي عرفها العراق. عملية تفجير سيارة انتحاري مزقت أجساد ٢٦ (في مصدر آخر ٣٢) طفلاً تتراوح أعمارهم ما بين خمسة الأعوام إلى اثني عشر عاماً وعدداً من الجرحى.

الرواية الأمريكية (التي صارت رسمية) كما وصلتني هي أن فريقاً عسكرياً أمريكياً كان مشغولاً بفحص سيارة (كيا) قالوا انهم تبلغوا أنها مفخخة، وبعد التأكد من خلو السيارة من المتفجرات قام الأمريكان بتوزيع اللعب فتجمع حولهم أطفال الشارع والشوارع المجاورة، وعندها انقض انتحاري بسيارة ففجر نفسه بالمجموعة فقتل الأطفال وعسكرياً أمريكياً واحداً حسب الرواية الأمريكية.

وقتها وصلني الخبر من أحد الأصدقاء مرفقاً بمقالة نشرت في «مفكرة الإسلام» تعطي قصة مغايرة، حيث ادعى الكاتب أن مراسلي «مفكرة الإسلام» توجهوا إلى مكان الحادث، وأجروا لقاءات مع ذوي الأطفال القتلى للتحقيق فيما حدث، وأنهم استنتجوا أن الرواية الأمريكية لم تكن صحيحة، وكان تفسيرهم للقصة أن الأمريكان أنفسهم مدبرو الجريمة الإنتحارية وأن لاوجود لضحية أمريكية في الحادث.

حينها أرسلت القصة مع دعوة متحفظة للتحقق والتحقيق في الحادث لمعرفة أي القصتين هي الصحيحة فليس هناك مبرر لتصديق أي من المصدرين وتجاهل الأخر، فمهما كانت الثقة بأحدهما أكبر من الآخر





فالمعقول في مثل هذه الحالات أن يتم فحص كل الاحتمالات، حتى قليلة الحظ بالنجاح.

كتبت: «أجد أن الشك في وسائل الإعلام أمر أساسي، وأنها لفكرة ممتازة أن تمتلك المنظمات الشعبية وسائل اتصالها الخاصة وإعلامها، وأرى أن من واجب الجمعية الوطنية وكل حزب على انفراد إجراء تحقيق في الموضوع، يتلخص على الأقل بالذهاب إلى منطقة الحادث والتحدث إلى اهالي الضحايا وشهود العيان والمعنيين وضباط الشرطة المعنيين. إن مثل هذه التحقيقات لن تكشف الحقيقة فقط، ولكنها ستردع المجرمين عن ارتكاب مثل تلك الجرائم التي يحاول كل طرف إلصاقها بالآخر، دون أن يعرف الناس الحقيقة. يجب أن تكون أدواتنا لمعرفة الحقيقة بحجم الموقف، فإن استسهلنا الأمر وصدقنا كل ما يقال ويكتب ويذاع بلا قلق، خاصة تصديق ما يناسب أفكارنا ونريد تصديقه، فلا شك في أن دماء غزيرة جداً ستسيل في القريب العاجل».

كتبت هذا وأملت أن أحداً سيغتنم الفرصة الغالية الثمن لمعرفة من هو الإرهابي، ففي هذه الحالة النادرة لدينا شهود كانوا في مكان الحادث ويعرفون ما حدث بالضبط وهم أهل للثقة لخسارتهم الهائلة، فلا أحد يرغب في كشف الحقيقة بقدرهم، ولا يستطيع أحد أن يغريهم أو يخيفهم لتغييرها أو الصمت عنها، وحتى المحاكم الرسمية تثق بشهادتهم في مثل هذه الحالة.

ولكن بدلاً من أن تقوم الحكومة بالتحقيق في الحادث تم تبني الرواية الأمريكية مباشرة فسارعت الحكومة إلى اتهام مسلحين إرهابيين بالحادث، بل إن الجعفري والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية سارعا لإعطائها بعداً طائفياً، فقد صرح الجعفري أن [الإرهابيين التكفيريين] ـ على حد قوله ـ «استهدفوا الأطفال كونهم شيعة، ولا يريدون أن يكون لتلك الطائفة جيل من الشباب

الواعي بأمور وطنه»، و أعلن المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بزعامة عبد العزيز الحكيم أن الحركة [الوهابية التكفيرية] تهدف إلى قطع نسب الرسول صلى الله عليه وسلم من استهدافها للشيعة. هكذا تم استغلال الجريمة لزيادة التلاحم الطائفي القبيح بدلاً من استغلالها لكشف الحقيقة.

في النكرى الأولى للمجزرة تعرض نصب شهداء أطفال النعيرية الذي أنجز قبل شهر واحد إلى عمل إرهابي تخريبي أدى إلى تدميره. وقال شهود عيان لـ (المدى) إن العمل الإرهابي حدث في الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم الأربعاء الماضي أثناء حظر التجوال، وفي منطقة لا تخلو لحظة من مرور دوريات الشرطة والقوات المتعددة! وهنا يثار تساؤل كبير آخر: هل يجازف الإرهابيون كل هذه المجازفة الهائلة من أجل تدمير نصب؟ أما كان من الأفضل لهم انتظار رفع حظر التجول وانخفاض دوريات الشرطة والقوات المتعددة الجنسية؟ هذا بديهي، إلا افي حالة واحدة: أن يكون وجود تلك القوات تأميناً للإرهابين وليس تهديداً لهم.

لم أسمع شيئاً بعد ذلك عن الموضوع ونسيته في خضم الأحداث الفظيعة والجرائم المروعة الأخرى التي أغرقت العراق، وللأسف سالت بالفعل دماء غزيرة جداً جداً.

* * *

قبل فترة عرضت قناة «الجغرافية القومية» (National Geographic) الأمريكية خلال أسبوع اطلقت عليه اسم «أسبوع الإرهاب» سلسلة أفلام بعنوان «حكم الإرهاب» (The Reign of Terror). وفي إحدى الحلقات، وكان اسمها «الشبكة الإنتحارية» (إشارة إلى استخدام الإرهابيين للإنترنيت) كانت إحدى اللقطات من مكان الحادث المذكور أعلاه فانتبهت إليها بعناية لعلها تجيب عن بعض الأسئلة التي بقيت معلقة، كما أني لحسن الحظ اعتدت تسجيل مثل هذه الوثائق. وبالفعل لاحظت





باستغراب أن مقابلة مع والدة أحد الأطفال الضحايا (واسمه طه فوزي حالوب النجادي) كانت تتحدث عن الجريمة المروعة وعن طفلتها التي دخلت البيت فاقدة إحدى يديها لكنها كانت تصرخ أن أخاها قد مات، فخرجت الأم لترى طفلها وقد اندلقت أحشاؤه.

لم يأت في الفلم ذكر لموضوع السيارة المفخخة التي يفترض أن الأمريكان كانوا يفحصونها. كذلك لم يكن هناك في حديث الأم، أو لم يعرض في الوثيقة على الأقل، أي إشارة لها عن المسؤول عن الجريمة وهو ما أثار شكوكي أكثر، فهل تخلى أهالي الأطفال عن هذه الفرصة ليقولوا رأيهم فيمن قتل أولادهم، أم أن المخرج حذف ما لم يناسبه؟

لكن في نهاية المقابلة ترفع النسوة بغضب واضح لافتة عزاء يبدأ سطرها الأول بـ «تباً لأميركا» ثم كلام عن رفض للاحتلال وللإرهاب ومعلومات عن التواريخ والجنازة الخ! وما حسم الأمر، فإن المعلق على الفلم ينهي الموضوع قائلاً بأسف: «إنهم لايلومون المفجرين في مقتل أولادهم، ولكن الوجود الأمريكي في العراق!».

ثم يضيف قائلاً «هنا على الأقل، ربح الإرهاب الحرب الإعلامية وهو على وشك أن يرفع قوته في فضاء الإنترنيت».

يستحق الأمر الوقوف عنده بتمعن. فالفلم فلم إعلامي أمريكي بحت يتبنى موقف الحكومة الأمريكية من الإرهاب، وليس فلماً من أفلام معارضة بوش، ومع ذلك يقول المعلق بأن أهالي الضحايا يلومون الأمريكان، ومن ناحية أخرى إن كان الإرهاب قد «ربح الحرب الإعلامية» في هذه العملية حسب قوله فيعني هذا أن أهالي الضحايا صاروا يؤيدون الإرهابيين أكثر مما كانوا قبل المذبحة، وهذا مستحيل أن كانوا يعتبرونهم قتلة أولادهم!

علامات الاستفهام هذه شجعتنى على العودة إلى مقالة رسالة «مفكرة الإسلام» وأنقل منها هنا أهم النقاط التي استخدمت لتفنيد هذه الرواية،

فبعد الاستناد إلى رفض الإسلام المبدئي لقتل الأطفال ممن لم يبلغوا الحلم، بل أضاف الكاتب التساؤلات المحددة التالية:

إن كان الفريق الأمريكي مشغولاً بكشف سيارة مفخخة فكيف تسنى للمفجر أن يدخل بسيارته وهم يغلقون الشوارع في مثل هذه الحالات عادة؟ حول هذه النقطة أذكر أن صديقاً قد وجد كيساً مشكوكاً به فمنع الجميع في المنطقة من الخروج من منازلهم لحين الانتهاء من فحصه، فكيف بسيارة مفخخة؟ يفترض في هذه الحالة أن تخلى المنطقة قبل العمل. وبالفعل يشير الكاتب إلى أن الشوارع كانت مغلقة.

يشير الكاتب إلى أن سيارات الجيش الأمريكي غادرت المكان فجأة قبل وقوع الانفجار وهذه نقطة يجب أن يعرفها سكان المنطقة وأهالي الضحايا خاصة ويمكن التأكد من صدق الرواية أو كذبها. كذلك يتحدث عن «فصل مدير قطاع مرور المنطقة أحمد كمال بسبب تصريحه بعد الانفجار بساعة واحدة أن قوات الاحتلال تقف خلف الانفجار، وهو ما اعتبر تصريحًا غير مسؤول منه بسبب فقدان توازنه وعدم السيطرة على نفسه بعد الحادث، وكونه سنيًا لا يريد أن يعترف أن ما يحصل في العراق إرهاب». وهذا أيضاً يمكن التحقق منه.

شهادة الحاج محمد الساعدي والد الطفل حسين الذي قُتل في الهجوم قال: «دخل حسين مسرعًا إلى الدار وصاح على إخوته ـ الراقدين الآن في المستشفى والذين جرحوا في الانفجار ـ أن أسرعوا لأن القوات الأمريكية توزع الحقائب الدارسية والحلوى ولعب [البوكيمون] المعروفة، فخرج الأطفال إلى الشارع، ووجدوا العربات الأمريكية وهي تحاول سحب أكبر عدد ممكن من الأطفال إليهم لتوزيع الهدايا، بينما انشغل عدد من الجنود بسياره من طراز (كيا) صالون زرقاء اللون قالوا: إنها مفخخة» حيث يتساءل ذلك الوالد: «هل يعقل أن تكون سياره مفخخة قربهم وهم يوزعون





الهدايا على الأطفال» ويضيف: «إن قوات من الجيش العراقي كانت تقف في نهاية الشارع حاولت منع أطفال من الشارع الثاني بعد سماعهم بنبأ توزيع تلك الهدايا، إلا أن الجيش الأمريكي طلب من عناصر الجيش العراقي السماح لهم بدخول الشارع للحصول على الهدايا، مؤكدين لهم أن معلومة السيارة المفخخة بلاغ كاذب، ولا يوجد فيها شيء. بعد ربع ساعة تجمع عشرات الأطفال على الرتل الأمريكي وجنوده لنفاجأ بحركة سريعة من قوات الاحتلال، وحرّكت معداتها وأسرع الجنود بالصعود بعد أن رموا اللعب والحلوى بشكل كوم وسط الشارع، تاركين الأطفال يتعاركون عليها، بحيث أدت سرعتهم واستعجالهم في الخروج من الشارع إلى دهس أربعة أطفال بينهم ابني محمد، وما هي إلا ثوانٍ حتى انفجرت السيارة التي كانت متوقفة من طراز (كيا)، والتي قال عنها الجنود: إنها غير مفخخة وإنها بلاغ كاذب، مؤكدًا أن أحدًا من جنود الاحتلال لم يصب بأذى على خلاف ما أعلنه جيش الاحتلال من مقتل أحد جنوده وإصابة آخر، وكل ذلك من أجل محاولة إثبات الكذبة».

يضيف الكاتب أكثر من شاهد بدون اسم لذا سنهملها، لكنه اضاف انه «تم فصل مدير قطاع مرور المنطقة أحمد كمال بسبب تصريحه بعد الانفجار بساعة واحدة أن قوات الاحتلال تقف خلف الانفجار، وهو ما اعتبر تصريحاً غير مسؤول منه بسبب فقدان توازنه وعدم السيطرة على نفسه بعد الحادث، وكونه سنياً لا يريد أن يعترف أن ما يحصل في العراق إرهاب».

وهذا تساؤل اضيفه من عندي: هل يعقل أن يخرج فريق عسكري لمعالجة سيارة مفخخة ويحمل افراده معهم هدايا ولعب للأطفال؟

لقد راجعت ما وجدته من مقالات عن الموضوع على الإنترنيت وهي كثر، فلم أجد أية مقالة تثير أي تساؤل عن ملابسات الحادث بل تبدأ كلها من استنتاجها المسبق لمرتكبي الجريمة لتنهال عليهم باللعن طيلة المقالة.

**إحدى المقالات**

- http://www.alwatan.com/graphics/2005/07jul/14_7/dailyhtml/news1.html

تدعي أن والد أحد الأطفال يلقي اللوم على الأمريكان لأنهم يوزعون الحلوى على الأطفال وهم يعلمون انهم (أي الأمريكان) هدف للتفجيرات وبذا يعرضون الأطفال للموت.

إن في هذا اتهام للأمريكان بأنهم كانوا يجمعون الأطفال عمداً من أجل التفجير الإرهابي، فمن الصعب تصور أن لا أحد من الفريق ولا من قيادة الجيش كان بالذكاء الكافي لمثل هذا الاستنتاج، ولاسيما وأن مثل هذه الفعاليات يجب أن تكون قراراً استراتيجياً يتخذ على مستويات عليا، لا أن يقرره فريق لوحده كيفما اتفق.

وفيما يبدو مخرجاً لهذا المأزق أشارت المقالة إلى أن الجيش الأمريكي نفى أن يكون الجنود قد وزعوا الحلوى على الأطفال! هذه حقيقة مهمة، فإن كان الجيش الأمريكي صادقاً في بيانه فكيف يفسر مقتل هذا العدد الكبير من الأطفال؟ على أية حال فهي مسألة يمكن التأكد منها تماماً وبسهولة من خلال أهالي الضحايا وبقية الأطفال الجرحى والناجين من الانفجار.

استناداً إلى كل هذا، وليأسي من الحكومة التي طالما تهربت من الحقائق الصعبة، وماتت تحت إشرافها تحقيقات خطيرة أخرى، أدعو جميع المنظمات والأفراد القادرين على الوصول إلى أسر الضحايا إلى التحقيق في الجريمة وتثبيت الشهادات بالأفلام والوثائق وكشفها للعراقيين وللعالم سواء كانت تشير بإصبع الإتهام إلى الإحتلال أو أية جهة أخرى قامت بتلك الجريمة البشعة. العار يلف مرتكبي الجريمة هذه، لكنه سيلف أيضاً من يستطيع الوصول إلى الحقيقة فيها ويتهرب منها.

٢٠٠٧/٦/١٦





# إرهاب بريء من الطائفية

يقول عبد المنعم الاعسم: «تعالوا نسأل أنفسنا: مَنْ جاء بمنْ؟ أو مَن الذي أوصلنا إلى هذه الدوامة؟.

ليعود فيعترف أن البعض لن يكون له من الصبر ما يكفي للبحث عن الحقيقة في هذا الواقع المثير للأعصاب، وهؤلاء سيقولون «ماذا يفيدنا هذا البحث المضني في «مَنْ جاء بمن؟» المهم هو البحث في ما ينقذنا من هذه الدوامة الكارثية».

هناك أيضاً من يخشى أن تكون الحقيقة مرعبة اكبر من القدرة على تحملها. هذا الفريق كما أشار إليه الأعسم سيرى أن البحث سوف «يزيد الانشقاق ويضاعف الضغينة ويستنزف الوقت ويطيل من أمد الدوامة، ولا ينفع في خروجنا إلى شاطئ الأمن وفضاء الأمان».

لكن الحقيقة أن المعوق الأساسي لقبول حكم العقل والبحث هو أن كل فرد في هذا المسلخ يعتقد انه يعرف الحقيقة بشكل واضح وأنه ليس بحاجة إلى البحث والتفكير بل يجب الإسراع بالعمل في الطريق الذي يراه هو لوقف هذا الإرهاب. هؤلاء يرون أن أي دعوة للتروي والتفكير والدراسة إضاعة للوقت تتيح للمجرم فرصة إضافية للاستمرار في إجرامه.

قد يكون استعمال العقل في الوضع المتوتر أمراً متعباً عسيراً، ولا يعد بحلول سحرية سريعة. لكن في الوضع الصعب، حيث نحتاج لكل مجساتنا، فمن الطبيعي أن يكون لمجسنا الأساسي الكبير المميز للإنسان، العقل، الدور الأكبر والكلمة النهائية. وعلى أية حال فحتى أن لم يكن

طريق البحث والحكمة أسرع الطرق لإيجاد الحل، فله أفضلية نشر روح العدالة والقانون، بينما تنشر العشوائية والتسرع الإحساس بالظلم والهمجية والرغبة بالانتقام.

وصلني بالإيميل مقال كتبه الصحفي المعروف توماس فريدمان في النيويورك تايمز تحت عنوان: «مارتن لوثر كنك؟» يبدأه كما يلي:

«من الصعب أن نعرف أيهما أكثر إثارة للانزعاج: القتل الطائفي البربري الذي يقوم به السنة والشيعة في العراق، أم الصمت المطبق على العالم الإسلامي إزاء هذه الجرائم. كيف يمكن أن تثير رسوم الكاريكاتير الدنماركية كل تلك الاحتجاجات العنيفة بينما لا يثير اهتمام العالم العربي الإسلامي كل ذلك العنف الذي يعجز الكلام عن وصفه أكثر مما تثيره نشرة الأنواء الجوية؟ أين هو مارتن لوثر كنك الإسلامي؟ أين صارت المسيرة المليونية الإسلامية بشعارها «لاشيعة ولا سنة، كلنا أبناء النبي محمد؟».

يستمر فريدمان: «يمكنني أن أفهم الصمت العربي عندما يقتل المسلمون الأمريكان في العراق. الكثير منهم يرانا كمحتلين. لكنني لا أستطيع أن افهم كيف أن الذبح الجماعي لـ ٧٠ من طلبة جامعة بغداد في الأسبوع الماضي من قبل الانتحاريين السنة أو تفجير المسجد الشيعي في أول رمضان عام ٢٠٠٥ لم يلق أي اهتمام؟ كل يوم يقتل ١٠٠ ضحية إضافية».

يضيف فريدمان: «تريد الأنظمة العربية أن تقنع الأمريكان أن هناك خياران فقط: الإسلاميين أو الأنظمة، وبذا ستختار أميركا الأنظمة».

ثم يعود فريدمان لتوجيه انتقاده إلى حسن نصر الله وقادة حماس لأنهم يفضلون أن يكونوا بيادق لسوريا وإيران بدلاً من وكلاء للتغيير الديمقراطي والمصالحة الإسلامية.

دعوة فريدمان السلمية الديمقراطية تبدو جميلة ومقنعة، ولاشك أن ظهور مارتن لوثر كنك إسلامي سيكون عظيم الفائدة لنا مثلما كان مارتن





لوثر كنك لشعبه. كتابة فريدمان، يمكن أن تعتبر اتجاهاً عاماً للتفكير الغربي في الأزمة العراقية والذي يقارب كثيراً الفكر السائد بدرجة عالية لدى المثقفين العراقيين عن أسباب المشكلة وحلولها، لكن ما طرحه فريدمان يثير لدي أسئلة عديدة وسأبدأ من أقلها أهمية لنناقش الموضوع الرئيسي في النهاية.

أولاً، ورغم احترامي الشخصي الكبير للمناضل الأمريكي مارتن لوثر كنك، لكنه بالتأكيد ليس المثال الأفضل لما يحتاجه العراق. فأولاً لا يشبه الوضع الأمريكي في وقته ولا الصراع الذي خاضه كنك ولا أهدافه الرئيسية أمثالها في العراق. فلم تكن هناك «حرب طائفية» في أميركا، ولم يكن الموضوع الأساسي هو «المصالحة» بل كان «الحلم الأمريكي» لمارتن لوثر كنك يتلخص بوقف الاضطهاد العنصري الأمريكي للسود، وهو ما لم يكن موجوداً في العراق أساساً. كما أن أميركا لم تكن في وقت لوثر كنك تحت الاحتلال، والذي هو صفة أساسية لوضع العراق بل الصفة الأساسية فيه. لماذا يتجاهل فريدمان مشكلة الاحتلال؟ ولماذا اختار مثالاً من التأريخ الأمريكي دون غيره من التأريخ الإنساني العالمي الغني بأمثلة أفضل؟ سأترك التقدير للقارئ. في مقابلة بالهولندية نشرت على الإنترنت قلت يوماً أننا في العراق بحاجة إلى «غاندي» عراقي ومازلت مقتنعاً أن هذا مثال أفضل.

أما عن «الأنظمة العربية الدكتاتورية التي تريد إقناع أميركا أن خيارها بين إسلاميين إرهابيين وحكومة دكتاتورية على العرب، فمعقول، لكن من المعقول أيضاً، والذي نساه فريدمان هو أن أميركا ربما تريد أن تقنع العراقيين بان خياراتهم الممكنة هي بين الإرهاب الإسلامي وبين القبول بالاحتلال الأمريكي، وهكذا يؤدي الإرهاب لأميركا فائدة عظمى.

السؤال الآخر، أو بالأحرى الاستغراب الآخر هو لماذا اختار فريدمان حسن نصر الله وحماس ليصب عليهما اتهامات بالتقصير في «التزام

الديمقراطية»، والمثالان (بغض النظر عن رأي أي كان بهما من الناحية السياسية والدينية) اقرب القيادات العربية إلى الديمقراطية بلا منازع! فحماس التي انتخبها الشعب الفلسطيني بشكل أساسي لنضافتها من الفساد، وصلت السلطة بانتخابات مثالية لم تحصل في أي بلد عربي أو في العالم الثالث باعتراف الأمريكان أنفسهم ولاينكرها الإسرائيليون. أما حسن نصر الله فيقود حزباً يشارك بشكل ديمقراطي في حكم بلاده، ولم يتبع حتى اليوم غير الوسائل الديمقراطية في احتجاجاته. وعلى أية حال فالمثالان أكثر ديمقراطية من جميع الأنظمة العربية «المعتدلة» التي تدعمها بلاد فريدمان بلا استثناء، وهما يسيران في نهج مدعوم شعبياً أكثر كثيراً حتى من الدعم الذي لدى رئيس فريدمان وإدارته من الشعب الأمريكي التي لم يبق لها من الدعم إلا أقل من الثلث، وقد أعلنت مؤخراً بصراحة تجاهلها لقرارات الكونكرس الذي انتخبه الشعب الأمريكي مؤخراً. وأما علاقة نصر الله مع سوريا وايران فعلاقة مصلحة (في صراع مع عدو مشترك) يدعمها ناخبي نصر الله تماماً. لذا لا ينطبق مثال «البيادق التابعة» على نصر الله وقادة حماس كما ينطبق على حلفاء بوش، وخاصة حليفه الأول، بلير، الذي يسير وراء بوش رغم اعتراض شعبه عليه، الذي يصفه بـ «كلب بوش». ينطبق هذا أيضاً على رأي معظم الشعب الهولندي في علاقة الحكومة الهولندية المغادرة ببوش وكذلك آراء العديد من الشعوب «الحليفة» لأميركا، فأي الحالات يصلح أكثر كمثال لـ «البيادق التابعة»؟ سؤال آخر اتركه للقارئ، ولصاحبي المعجب بفريدمان والذي أرسل المقالة، ثم ننتقل إلى الموضوع الرئيسي في مقالة فريدمان ـ الطائفية في العراق ـ والذي هو أيضاً موضوع مقالتي.

برأيي أن مقالة فريدمان لم تمثل دعوة إلى التفكير لحل مشكلة الإرهاب في العراق، بل تمثل بشكل ممتاز حالة «الرغبة بالقفز إلى الحل» التي أشرت إليها في بداية المقالة. إنها عبارة عن لوم متتالي للمسلمين الذين لم يتخذوا





القرار لوقف المجرم في الإرهاب، والذي يعرفه فريدمان وكثير غيره مسبقاً: الطائفية الإسلامية.

لكن، لو أردنا «التفكير»، لتوجب علينا وضع الآراء المسبقة جانباً، مهما كانت شائعة وبدأنا بمراجعة مصداقية ما نعرف ونعتقد عن الأمر، وان كانت آراؤنا تستند إلى وقائع مثبتة وأدلة كافية. علينا أن نحلل متهمنا الأساسي، «الطائفي»، ونعرف دوافعه وتفكيره، ونفحص أن كانت شخصيته وإمكاناته صالحة لتفسير ما ننسب إليه من جرائم، وأي منها يفسره التفكير الطائفي وأي منها غريب عنه. فرغم أن الطائفية أصبحت في العراق حقيقة قاسية لايمكن نكرانها، ورغم انه مما لاشك فيه أنها مسؤولة عن الكثير من الجرائم الإرهابية في العراق، لكني أجد ثمة مؤشرات شكوك تفرض نفسها بأنها الإرهابي الوحيد أو حتى الإرهابي الأهم في العراق.

علينا أن نتذكر أن تسهيل الأمر على أنفسنا برمي كل الإرهاب على عاتق الطائفية، إجراء خطير للغاية، وحالة لو ثبت صحتها فإننا في مأزق لا حل له(*). ذلك أننا نتهم بهذا جميع الشعب العراقي تقريباً بأنه يتكون من سفاحين فاقدين لأية ذرة من العقل، ولا حل سوى وضعهم جميعاً في مصحة عقلية دولية. فإن لم نرد أن نتعجل استنتاج مثل هذا الحكم الرهيب على شعبنا، توجب علينا تحمل الصبر اللازم لتفصيل المشكلة وفحصها بدقة. ويبدو لي أن السؤالان الأساسيان هنا هما:

ما هي الجرائم المؤكدة التي ارتكبتها وترتكبها الطائفية، وما هي الجرائم المحتلمة لها، وما هي الجرائم الملصقة بها اعتباطاً؟

ما هي الطريقة المثلى للتصرف مع الجرائم «الطائفية»؟

وان بدأنا كالعادة بالسؤال الأسهل، وهو الثاني، فلا أقصد بـ

(*) http://www.doroob.com/&p=7153
http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp&aid=87126

«التصرف»، اتخاذ المواقف العامة مثل «الإدانة» و«الاستنكار» الذي يملأ الجو لغطاً لافائدة منه غير التشويش على التفكير، بل المواقف العملية التي يؤمل من خلالها وقف أو تقليل تلك الجرائم. وهنا أجد أن الجهد التحقيقي والتفكير العلمي يجب أن يأخذ مكانه لإيجاد مثل ذلك الرد، ولا مجال للإجابة عنه في مقالة. لكنني، إضافة إلى توكيد أهمية البدء بالبحث، أشير إلى خط رئيسي قد يمكننا الاتفاق عليه، وهو أن تعامل تلك الجرائم قدر الإمكان بشكل شخصي. أن يبحث عن المجرمين المنفذين والمخططين للجرائم وان ينالوا جزاءهم القانوني بلا رحمة مهما كانت القوى التي يستندون إليها، وهو ليس سهلاً.

تصرف رئيس الوزراء المالكي الأخير في مجلس النواب مع عبد الناصر الجنابي أحد النواب من «جبهة التوافق، كانت بعكس هذه الروحية تماماً. فإن كانت لدى رئيس الوزراء معلومات عن مساهمة النائب في اختطاف ١٥٠ عراقياً فواجبه يحتم عليه كشفها، وإلا فعليه أن يتحمل المحاسبة القانونية لإخفاء مثل تلك المعلومات والأدلة. وان لم تكن، فيتوجب محاسبته على مثل هذه التهم بلا أدلة كافية. وفي كل الأحوال فمن الخطأ الفظيع استعمال مثل هذه المعلومات للرد على استفسارات نائب برلماني يسأل مشككاً «لماذا تحاصرون شارع حيفا؟» فيقول المالكي: «عندما أحرك ملفك وأعرضه على البرلمان ويرى المجلس أنك قمت بخطف ١٥٠ شخصاً فهل تتحمل مسؤولية ما تقوله»؟ أنها أشبه بمقايضة مجرمين بأن يسكت كل عن الآخر، مما هي حديث رئيس حكومة منتخبة ديمقراطياً مع عضو برلماني يمثل الشعب وواجبه محاسبة الحكومة. فبدلاً من أن يحصل الشعب عن إجابتين عن سؤالين مهمين، بتهمتين خطيرتين، اتفق الطرفان بشكل غير مباشر أن لايعرف الشعب شيئاً عن أي من الموضوعين. ماهي الحقائق الأخرى التي يخفيها المالكي عن الشعب؟ كيف يكون الأمر لو أن جميع أعضاء الحكومة اتبعوا أسلوب المالكي؟ وهل لايفعلون ذلك فعلاً؟ إلا





يخشى المالكي أن يكشف أحد يوماً معرفته بمثل هذه المعلومات الخطيرة ليتهمه بالتستر على الإرهاب؟

هذه الحادثة لاتبشر أن المالكي يفكر بشكل سليم على الإطلاق. فإذا كانت الخطوة الأولى الخطيرة الأهمية في الوصول إلى الحل هي الإقرار باتخاذ سبيل البحث العلمي الجنائي للوصول إلى المجرمين شخصياً، فالتحدي الذي يواجه الحكومة العراقية هو في إصرارها على أن ينال هؤلاء المجرمون جزاءهم مهما كانت قوة من يساندهم، وبدون هذا التصميم لا أرى حلاً.

أما بالنسبة للسؤال الأول، فإن نظرة سريعة بسيطة تبين لنا أن ليس لكل ما يرتكب في العراق من جرائم، أسس طائفية بالضرورة، فهناك لصوص وهناك مصالح وهناك ثارات شخصية وهناك احتلال وهناك مقاومة للاحتلال وهناك بقايا نظام إجرامي وهناك صراع سياسي شخصي وهناك نفط، وهذه كلها بلا استثناء بريئة من الطائفية كبراءتك وبراءتي منها. ليست الطائفية التي نستسهل إلقاء كل شكوكنا ومخاوفنا وكراهيتنا عليها، مسؤولة إذن عن كل شيء، بل ربما نجد بالبحث التفصيلي، أن معظم الجرائم، واشدها قسوة لا علاقة له بالطائفية، ونجد أن الكثير مما اعتقدنا دوماً إننا نعرفه بشكل أكيد، أمر مشكوك به.

قبل البدء بتمحيص وتصنيف الجرائم، يجب أن نتفق أولاً على أن نتحرر من فكرة أن المجرمين الذين نتعامل معهم أو نحللهم «مجانين» ليس لهم عقل أو منطق. فإلصاق صفة الجنون بمن نتهمه كتفسير لاتهامنا إياه، ليس إلا هروب من ضرورة تبرير اتهامنا له في حالة عدم وجود دليل محدد. فلو اتبعنا منطق الجنون هذا فيمكننا أن نتهم به أي نشاء دون جهد. فالانتحاري المجنون يمكن أن يكون مسيحياً مثلما يكون مسلماً، ويمكن أن يكون كردياً مثلما يكون عربياً، فما دام «مجنوناً» فلا علاقة لها بمسيحيته أو إسلامه أو

كرديته أو عربيته. إذن لندع المجانين فلا قدرة لنا على ملاحقتهم، ولنأمل أن عددهم تافه في العراق مثل بقية شعوب الأرض، ولنركز جهدنا التحليلي على «العاقل» المدرك الذي تناسب الجريمة المبحوثة صفاته الشخصية الفكرية أو المصلحية.

لو أننا فعلنا، لوجدنا أن البعض من أهم الجرائم الإرهابية المرتكبة في العراق تتناقض مع الصفات الشخصية لـ «الطائفي»، كما أن العديد من أنواع ا لجرائم الباقية يمكن التشكك به. لا شك أن لـ «الطائفي» صفات عديدة تحتاج إلى بحث طويل، لكن لإعطاء مؤشر مبرر لشكوكنا ولدعوتنا إلى المزيد من البحث، نبدأ بالقول أن أهم صفات الطائفي هي «حبه المتطرف لطائفته» فلا يرى غيرها مساوية لها، وقد لايرى غيرها تستحق الحياة، بل ربما يتوجب التخلص منها لصالح طائفته التي يجب أن تسود وتحكم.

لنحلل بعض التهم الموجهة إلى الطائفي لنرى أن كانت تنسجم مع صفته الأساسية الأولى، ولنبدأ، ولو مجاملةً، بالمثال الذي اختاره فريدمان كأفضل دليل لديه على طائفية الإرهاب في العراق وهي جريمة تفجير جامعة بغداد الأخيرة. في هذه الجريمة البشعة مزق الإرهاب مجموعة من الطلبة جلهم من البنات، يقفون أمام باب الجامعة في انتظار الباصات التي كانت ستقلهم إلى بيوتهم. هذه المجموعة، لم تكن لها أية صفة طائفية مميزة معروفة أو يمكن رؤيتها أو فحصها أو حتى تقديرها بشكل عام. من يعرف طائفة الطالبات الذين يقفن أمام باب جامعة كبيرة مفتوحة للجميع بلا استثناء في مدينة يبلغ سكانها الملايين وتختلط فيها الطوائف أكثر من أي مكان اخر في العراق؟ أين الطائفية في هذا؟

في ردود قراء أحد مواقع الإنترنت على مقالة لي حول إعدام صدام، تم اتهامي مرات عديدة بالطائفية الشديدة التي تحركني لمثل تلك «الكتابات





الحاقدة». وحينها سألت أكثر المتحمسين لتهمتي بالطائفية التي كانت تقطر من مقالاتي، سألته أن يخبرني عن طائفتي وأخبرته أن لايكتفي بتلك المقالة بل أعلمته أين يجد أكثر من مئتي مقالة لي، وأن يكتشف طائفتي من خلال أي من تلك المقالات التي تقطر بالطائفية، وله أن عرف الجواب جائزة مني، فلم يجب! واليوم اوجه السؤال والجائزة لكم جميعاً: من يخبرني كيف اكتشف القاتل طائفة الطالبات الجامعيات فله جائزة مني، أو ليكف عن هذا المنطق القطيعي الغريب. ولكي أسهل الأمر له، أوسع التحدي ليشمل جرائم أخرى مثل التفجير الرهيب في الباب الشرقي مؤخراً، وكذلك لنعود إلى الوراء قليلاً فيخبرني عن الصفة الطائفية لجريمة قصف ملعب الزوراء حيث كان يتدرب لاعبون من مختلف الطوائف والأديان، فما هي طائفة من قصفهم؟ وليخبرني أحدكم ما هي طائفة من فجر نفسه في مسافري كراج النهضة قبل ذلك؟

ربما سخر بعض قرائي ممن يعرفونني من القراء الذين اتهموني بالطائفية ولديهم على الإنترنت كل الأدلة على خطأ هذا الاتهام، ولكن يا صاحبي العزيز أليس لدى المجرم الذي فجر طالبات جامعة بغداد ومتسكعي الباب الشرقي ولاعبي الزوراء ومسافري كراج النهضة نفس الأدلة لدحض هذا الاتهام عنه؟ ألا يطبق فريدمان والكثير من الناس على مجرمي هذه التفجيرات نفس المنطق الأعوج لمن اتهمني بالطائفية دون دليل؟

إن كانت الجرائم الإرهابية التي ذكرتها وغيرها كثير لا اذكره، دليل قاطع على أن مرتكبي بعض أهم الجرائم واشدها وحشية، التفجير في المناطق العامة، لاعلاقة لهم بالطائفية، فان هناك جرائم أخرى هامة أيضاً لايفسرها أي شكل لشخصية «الطائفي» ومن المستبعد جداً أن تكون الطائفية دافعها، ومنها أي جريمة «انتحارية». ففي حين يمكننا أن نتصور فلسطينياً دفعة اليأس وصعوبة البدائل، ليفجر نفسه بمحتليه ومضطهديه،

لكن من الصعب جداً أن نفسرها على أساس طائفي، فالطائفية يمكن أن ترتكب جرائم بشعة جداً أن كانت في مأمن، لكنها لن تفجر نفسها. فالخيال الشطط وحده يسمح بتصور أن من فجر حزامه في باص وسط بغداد أول أمس كان مدفوعاً بمشاعره الطائفية ليقتل ٢٠ مواطناً لايعلم شيئاً عن طائفيتهم أو دينهم ويجرح ٢٠ آخرين مثلهم، أو أن المجرم الذي فجر نفسه في مجلس عزاء في حسينية في الموصل أمس كان يقتل نفسه ليقتل رجلاً واحداً من الطائفة الأخرى. لاتفسير لذلك إلا أن يكون الانتحاري مجنوناً، وقد اتفقنا على الابتعاد عن تحليل المجانين، فهؤلاء قد يكونوا من أي شكل، ويحتاجون إلى عاقل يرتب الأمور لهم أو يدفع بهم إلى الموت دون وعيهم، فلندع المجانين ولنبحث عن ذاك «العاقل».

لو أننا بحثنا فسنجد أن الشكوك تطال أنواع أخرى من الجرائم التي سنبحث عن تفسير لها بعيد عن مجرمنا المفضل: الطائفية. فحتى «القتل على الهوية» يستحق التساؤل. فكيف يعرف «القاتل على الهوية» بشكل أكيد ماهي هوية ضحيته الطائفية، وهل ما قالته الضحية كان صدقاً أم كذباً سيء الحظ أملاً في الخلاص، وان هويتها لم تكن مزورة بهدف الإفلات من الموت؟ كيف يخاطر هذا المفرط الحب لطائفته أن تكون ضحيته من طائفته المقدسة نفسها؟ «القتل على الهوية» الذي بدأ في لبنان، وجد له مكانه حين كانت الطوائف في حرب رسمية فيما بينها، وكان قادة كل طائفة يدعون علناً لقتل الطائفة الأخرى، فكيف بدأ في العراق قبل تلك الحرب وكان من أسبابها بدلاً من أن يكون من نتائجها، أن افترضنا أن في العراق اليوم حرب طائفية فعلاً ولم يدع أي قائد لها بشكل علني على الأقل؟

ما أردت قوله في النهاية أن هناك العديد من المؤشرات أن ما يرتكب في العراق من جرائم إرهابية قد لاتكون له أية أسس طائفية، وإن الطائفية





المتزايدة في العراق نتيجة لذلك الإرهاب وليس سبب له، وأنه وجد قبلها، ولعلها من قبل جهة أرادت للعراق أن يكون طائفياً متحارباً وتحاول اليوم أن تقنعنا أن هذا الأمر هو الواقع وأننا شعب مريض بشكل ميؤوس منه. ومن ناحية أخرى فمما لاشك فيه أن الطائفية التي بلغت اليوم حداً مؤسفاً، مسؤولة عن العديد من أنواع الجرائم، لكنها بدون شك ليست مسؤولة عن أبشعها المتمثل بالجرائم التي ذكرتها وأمثالها، كما أن من المشكوك به أن تكون مسؤولة عن الكثير من الأنواع الأخرى من الجرائم.

إذن الأمر يتطلب التروي في الاتهام، كما يتطلب بشكل ملح من الحكومة وربما بشكل خاص من البرلمان العراقي إجراء بحث علمي اجتماعي جنائي لتفصيل الجرائم التي ترتكب في العراق وتحديد نسبة ما تتحمله الطائفية منها وما يتحمله غيرها، إضافة إلى الطرق المناسبة لمواجهة تلك الجرائم. أن تجنب مثل هذا الجهد في هذا الوقت، والركض وراء اتهامات سهلة تطالب بالضرب بلا تأخير أمر خطير، ولنتذكر أننا بتثبيت تهمة الإرهاب بشكل عام إلى الطائفية فإننا نضع أنفسنا في وضع لا حل له، سواء كان الاتهام صحيحاً أم كان خاطئاً. الصحيح هو في شخصنة الإرهاب وملاحقة المجرمين شخصياً ودراسة الموضوع تفصيلياً وبشكل علمي وبأسرع وقت بدلاً من التهم العامة، فكل يوم نخسر ١٠٠ عراقي كما صدق فريدمان في ذلك رغم تشككنا بتفسيراته، ولنختتم بما بدأنا به للأعسم حيث قال: «في هذه الدوامة يبرز من بيننا متفائلون يراهنون على العقل في زمن وُضع فيه العقل جانباً، ويبرز متشائمون يراهنون على المعجزة في زمن وُضعت المعجزات في خبر كان».

٢٠٠٧/١/٢٧

## كيف عادت «صدام حسين يلوك النه»؟

أغلقت قريبتي التلفزيون وهي تدمدم حانقة: «صحيح يلوك الكم». كان جمهرة من بعض شيوخ العشائر المتملقين، جمعهم صدام ليتراقصوا أمامه يوماً، يساندهم خليط من حماته و«مثقفين» و«شخصيات» معروفة وأخرى مجهولة، كما كان يحدث كثيراً قبل ربع قرن في أي مكان من العراق.

قليل جداً من كان يصدق حتى قبل بضع سنوات، أن قدراً يمكن أن يزيل هذه الغمامة السوداء الجاثمة على العراق، وأقل منهم كثيراً من كان يتخيل أنه إن حدث ذلك، فإن أحداً يمكن أن ينطق بكلمة دفاعاً عن صدام دون أن يمزقه الناس إرباً. لكن حدث ما حدث...

«صدام حسين يلوك الكم»، صرخ عبد الباري عطوان فبصق العراقيون في وجهه امتعاضاً، ونسوا الأمر..

«صدام حسين يلوك النه»، صرخ علي الصراف فاحتقره العراقيون ونسوا الطنين الصادر عن ذبابة...

«صدام حسين يلوك الكم»، صرخ عرب كثيرون، فكره العراقيون كونهم عرباً، ثم تجاهلوا زعيق المجانين بقوميتهم الطاغية والباحثين عن الأبطال في المزابل...

قال الناس إنه عهدٌ ولى.. وليس غير المخنثين من يقبل بطاغية ليقوده حيث يشاء كما تقاد النعاج بلا إرادة...

لكن موقف الحكومة تحت الاحتلال ليس افضل... انتظر الناس منها أن تبرهن أنها ليست هي الأخرى من النعاج التي يقودها الأجانب إلى موقف





الخيانة الحرج... وأن تبرهن أنها تعي موقفها الصعب...

على هذا أملوا، وعلى هذا اعتمدوا، فلم يعبأوا بصراخ المنادين بالدكتاتورية منقذاً وحيداً من رعب الإرهاب وذل الاحتلال.. ولكن حدث ما حدث... وأنصت الناس بقلق شديد... فقد تعالت همسات غريبة من كل مكان...

«صدام حسين يلوك النه»، همست الحكومة في آذان العراقيين دون أن تدري، حين ابتعلت ما فعل البريطانيون في البصرة بالشرطة العراقية التي القت القبض على جنودهم المتلبسين بحيازة اسلحة ارهابيين، فلم تحتج...

كذلك سمع الناس في الفلوجة والرمادي وهيت والنجف وحديثة صوت القنابل القاصفة لمدنهم يصيح بهم: «صدام حسين يلوك النه»، والحكومة تتفرج بلهاء لا تدري ما تفعل أو تقول.

«صدام حسين يلوك النه»، أفهمت الحكومة العراقيين، حين اغتصب وحوش أمريكان فتاة في الخامسة عشرة من عمرها بعد قتل أهلها...

«صدام حسين يلوك النه» تتردد في الأنبار وديالى، عندما يدور بها المسلحون الجالسون على نوافذ السيارات متفاخرين برشاشاتهم، تماماً كما كانت حماية صدام حسين تفعل، وأكثر.. معلنين إماراتهم الإسلامية.

«صدام حسين يلوك النه»، سمعت الحكومة الناس تهمس بها، وهي تتلكأ في محاسبة الميليشيات المعتدية على حرياتهم الشخصية وتقف مشلولة أمامها بلا حراك...

وحين كانت افواج الشرطة والحرس الوطني تشكل من خلال مقاولات يقبل أكثرها اقتصادية بغض النظر عن مؤهلات المتطوع أو إخلاصه للعراق، كانت الهمسة إياها تتعالى...

رددها أيضاً المسؤولين في الحكومة وممثلو الشعب يوم تجاهلوا التحقيق في تهمة علاوي بقتل ستة من المساجين في العامرية، بعدما أثارها صحفي

من اشهر واوثق المصادر للفضائح السياسية في العالم، وتجاهلوا التحقيق في تأريخه باعتباره مسؤولاً عن الاغتيالات في أوروبا حين كان مازال صديقاً لصدام!

ثم سمعوها حين لغم علاوي وزارة الداخلية في حكومة خلفه، بالفين من رجال الأمن الصداميين، ليضع العراقيل أمام الحكومة القادمة قبل أن يغادر...

«صدام حسين يلوك النه»، همس قادة الحزب الشيوعي العراقي في آذان الناس قائلين للشعب إن المبادئ كلام فارغ، وأن ليس لنا إلا أن ننضم تحت قيادة سافل ما، ثم اختاروا خيمة اقرب الموجودين إلى صدام تأريخاً وشكلاً ومضموناً،...

«صدام حسين يلوك النه»، سمعها العراقيون تهمس لهم، حين أصدر الأمريكان قراراً يحمي جنودهم من المحاسبة في العراق مهما ارتكبوا من جرائم بحق مواطني البلد، ولم تطالب حكومة المواطنين بإلغاء القرار المهين..

«صدام حسين يلوك النه»، الأمريكان همسوا بها للناس وهم يرفضون مرشحهم لرئاسة الحكومة ويتطاولون على وزرائه فيتهمهم السفير بالطائفية فلا يحتج أحد للتجاوز... بل يفرح الآخرون لإحراج منافسيهم ويقفون مع الأمريكان ناهقين بمبرراتهم نفسها.

وسمعها الناس حين كانت ديمقراطيتنا تدور بين ولاية الفقيه وولاية السفير، وحين تقصف البيوت الآمنة فلا يحتاج القاصفون إلا أن يقولوا انهم ظنوا انهم رأوا الزرقاوي فيها...

ويسمعها العراقيون كل مرة تقتحم فيها القوات الأمريكية مقرات منظمات مدنية عراقية وتصادر ممتلكاتها أو تهاجم قوات تابعة للحكومة أو أحزابها دون تنسيق مع الحكومة، بل وتهاجم الشرطة لتطلق سراح أصدقائها من اللصوص المحكومين بالسجن تواً ودون أن تزعج نفسها بإعطاء سبب...





كذلك سمعها العراقيون واضحة عندما أعطت الحكومة الأمريكية مهلة زمنية لحكومتهم البائسة لتنفيذ شروطها الأمنية في العراق مهددة الحكومة المنتخبة، ضمنياً، بتغييرها إن هي لم تنفذ الأوامر... واكتفى رئيس الحكومة برفض المهلة ولم يحتج بشدة كما يفترض على الإهانة الصريحة الموجهة لكل عراقي وله مباشرة..

لا شك في أن بعض الناس فكروا بتلك الهمسة الخبيثة حين انتخب ممثلو الشعب إقطاعياً لافضل له إلا كونه مزواجاً ومختلساً لعقود الهاتف النقال، لأول رئاسة للجمهورية، فانتخب الشيخ الياور «بالاجماع» وكأنه بطل قومي لايختلف عليه اثنان!

ممثلو الشعب غنوها دون وعي حين لم يعترضوا على تعيين إرهابي دولي معروف بقيادته فرق الموت في اميركا الجنوبية، سفيراً أمريكياً للعراق... لم يفعلوا شيئاً لتغييره، لكنهم بدلاً من ذلك تسابقوا في تزوير الانتخابات..

وسمحنا بالهمس بها حين قبلنا بإهمالنا أن لا تعلن نتائج الانتخابات بعد ساعة أو ساعات من إغلاق الصناديق كما في بلدان العالم، بل بعد أكثر من شهر. ولم يصبنا القلق كذلك حين سمعنا بخبر فوز دستورنا بالتصويت، ليس من مفوضية الانتخابات، بل من كونداليزا رايس، ولم نفكر أية رسالة يمكن أن يهمس ذلك الحدث بها للناس.

فرك صدام يديه فرحاً حين أخذ البرلمانيون إجازة في وقت الحرب وقال للناس: هنيئاً لكم بمن انتخبتم، أما جماعتي فسيعملون بلا توقف... لا شك في أن الناس حسدت صدام على إخلاص «جماعته» له.

وتردد اسم «صدام» ضاحكاً حين ضحكنا على الديمقراطية فاخترعنا لتخريبها «الحق الوطني» لينافس «الحق الانتخابي» لندعو بعد ذلك لتشكيل حكومة «وطنية» من جميع «الكتل الفائزة» على أساس «الحق الوطني» على أن «لاتتجاهل» «الحق الإنتخابي»!

كم من الناس همهم في داخله «صدام حسين يلوك النه» حين كان سعادة السفير يخبرنا أن دافع الضرائب الأمريكي يجب أن يرضى عن وزير الداخلية العراقي شرطاً لتعيينه.

وكم وشوشها السياسيون للناس حين قدموا دستوراً منفوش الشعر للعراق، ثم حين قدموا دستوراً «كتب بعقلية قومية طاغية» لكردستان.

وكذلك همس بها البرلمانيون الإسلاميون دون أن يدروا لبلاهتهم وهم يتسابقون في التظاهر بالورع فيفرضون القرآن في البرلمان والملابس والتصرفات على الناس في حياتهم الخاصة.

«صدام حسين يلوك النه»، صرخ بها محمود المشهداني مؤخراً وهو يسيّر أعضاء البرلمان بـ «القندرة»، بينما شاهد الناس ممثليهم وهم يبتلعون بصاق رئيس برلمانهم مقموعين راضين..

«صدام حسين يلوك النه»، همس الرئيس الطالباني للناس دون أن يدري، حين قال إنه لن يوقع حكم الإعدام إن صدر بحق صدام بين دهشة العرب والكرد على السواء!

«صدام حسين يلوك النه»، همس الرئيس طالباني للناس ثانية دون أن يدري، حين قدم مبرراً مضحكاً لرفضه إسناد طلب استقدام زوجة صدام من الأردن بحجة النخوة وشيمة الحفاظ على كرامة المرأة... وقبلها حين طلب الرئيس، واستجاب الجعفري فأنعما على المجرم برزان برعاية خاصة لم يقدماها لأشرف مواطنيهما!

«صدام حسين يلوك النه»، همس لنا رئيسنا، حين كان يحول جرائم الأمريكان في أبو غريب وحديثة إلى مهرجان مديح لهم، بعد بضعة كلمات انتقاد دبلوماسية فارغة...

كذلك همس الرئيس بها، بل صرخ بها، حين دعا الأمريكان إلى إقامة قواعد عسكرية دائمة في البلاد، محتقراً حكومته والديمقراطية ومتجاوزاً





البرلمان وآراء الغالبية العظمى من الناس المناقضة لرأيه، ومتجاهلاً تأثير هذا الاستفزاز الذي يرش الملح على الجرح الدموي الذي يمر به «بلده» و«شعبه» ويزيد من شقة الخلاف...

«صدام حسين يلوك النه»، ردد الشامتون بالديمقراطية خلف البارزاني حين سخر من القضاء العراقي فأعلن أنه يرحب بالوزير اللص ضيفاً عزيزاً مكرماً محمياً في كردستان، مهما قررت لجنة النزاهة!

«صدام حسين يلوك النه»، هتف القضاء في كردستان حين تبين أنه لامشكلة هناك في الحكم على صحفي بالسجن ثلاثين عاماً بتهمة التشهير بالقياديين!

«صدام حسين يلوك النه»، سمعها العراقيون تكراراً من زعماء الأكراد وهم يتبارون بـ «مزعطة» واضحة من استعراض الشجاعة بالتهديد بالانفصال كلما تنفس أحد في «الحكومة المركزية» بكلمة عن كردستان...

«صدام حسين يلوك النه»، همس بها زعماء الأكراد وهم يضمون كركوك ومدن أخرى إلى كردستان في دستورهم، وقرروا تعريف «الآبار العاملة» وغيرها قبل أي استفتاء وأي مداولة مع المركز أو البرلمان...

«صدام حسين يلوك النه»، همس بها زعماء الأكراد وهم يضمون أعتى البعثيين إلى صفوفهم ويقدمون لهم المناصب في السفارات والمراكز الأمينة الحساسة، بينما يطرد وزير لأنه مارس حقه الديمقراطي وصوت ضد الدستور..

«صدام حسين يلوك النه»، سمعها الغالبية الساحقة من «العامة» في حديث القادة الشيعة، الذين ملؤوا الفضاء بعبارات التمييز العنصرية، فأكثروا الحديث عن «السادة» و«العامة» و«آل البيت» و«غير آل البيت»...

رددها أيضاً بلا شك، طلبة الجامعات في البصرة حين ضربوا لـ «تقام

عليهم الحجة» بـ «تكليف إلهي» لأنهم كانوا يسمعون الأغاني بصوت عال في شهر محرم..

«صدام حسين يلوك النه»، همس بها زعماء شيعة إلى العرب السنة وهم يصرون على فدرالية تقصر خير النفط على طائفتهم اسوة بما يفعل الكرد لكي تصبه في الحقيقة في جيوب «السادة» من الطرفين..

«صدام حسين يلوك النه»...، همس بها للناس زعماء سنة وهم يرفضون إدانة الإرهاب حين يوجه ضد أبرياء من الشيعة، شركائهم في الحكم... والوطن!

وسمعها الناس بوضوح من هؤلاء حين لم يجد الزعماء السنة هدفاً لهم أهم من إلغاء اجتثاث البعث وعودة البعثيين الذين «لم يتم إثبات جريمة عليهم» إلى مناصبهم القيادية المسلحة والأمنية.

وقبل أيام رددها بلا شك سكنة حي الدورة حين شطر «جيش المهدي» و«فيلق عمر» منطقتهم إلى شرقي شيعي وغربي سني.

«صدام حسين يلوك النه»، همس بها بعض المثقفين العراقيين العرب حين وقفوا بوجه الكرد في الحق والباطل، ورددها دون أن يعلم، آخرون وقفوا مع الكرد في الحق والباطل!

وهمس بها مثقفو الأكراد إلى العرب، حين التزم هؤلاء بترويج التفسير القومي للمذابح التي ارتكبت بحقهم، رافعين الذنب عن القتلة الذين يحتضنونهم، ليوزعوه على كل العرب العراقيين..

كدلك همس بها العلمانيون والمتدينون العراقيون، فلم يكن لديهم غير اللهو بتبادل الشتائم دون وعي بنتائج ذلك على العراق الذي يمثلونه...

وسمعها الناس في كل مرة تراقصت ابتسامات الغنج والمغازلة في فم رزكار أو محمد وهو يحاكم الوحش.





«صدام حسين يلوك النه»... كانت تهمس في الأثير فتسمم هواء العراق كلما اصيب الشعب بخيبة أمل، وكلما ظهرت الديمقراطية هزيلة حائرة غير قادرة على إدارة البلاد.

«صدام حسين يلوك النه»... يرددها المواطن كل صباح حين لا يدري وهو يذهب إلى عمله إن كان سيعود إلى البيت حياً ام لا، وترددها كل أم دون أن تعي، وهي تتمزق قلقاً حتى يعود أولادها من المدرسة..

لقد تكرر كل ذلك كثيراً كما ترون... فهل من عجب إذن إن أتى الوقت لكي يتجرأ نفس من كان يتراقص على قرقعة سوط «الريس» ورنين فلوسه قبل ربع قرن، لكي يطالب اليوم بإطلاق سراحه وهو يهتف بشعار المخنثين وبلا خجل: «صدام حسين يلوك النه»؟

وأنا وأنت يا صاحبي... لعلنا همسنا بها دون أن ندري أيضاً... بتعصبنا أو خوفنا أو خطأ خياراتنا أو اهمالنا أو شحة تضحياتنا من أجل ما نؤمن به ومن أجل من نحب...

من المسؤول عن عودة الانحطاط اليوم، جريئاً، يطالبنا بإعادة رأسنا إلى الأرض شرطاً «للعفو عما سلف»؟

من المسؤول عن جرأة من يريدنا أن نكشف ظهرنا لسوط «ابن البلد» شرطاً للتحرر من سوط المحتل؟ من يحاول إقناعنا أن خياراتنا في الحياة تنحصر في إحدى هاتين المذلتين؟... قل أنت...

أتساءل مستغرباً: كيف هبطنا من كبرياء: «لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا» إلى حضيض: «صدام حسين يلوكنه»؟... وهل مازال من طريق إلى حياة إنسانية نظيفة من كل تلك الوساخات؟... قل أنت...

٢٠٠٦/١٠/٢٧

# البعث يدافع عن مجتثيه

**مقدمة**

عندما سألت «الجزيرة» صلاح المختار القيادي السابق في حزب البعث، سفير العراق السابق في فيتنام والهند والساكن في صنعاء اليوم عن رأيه بالحكم بإعدام صدام حسين وتنفيذه، قال:

«الحكم هو خطوة باتجاه إكمال عملية تدمير العراق، فالولايات المتحدة الأميركية عندما وصلت لقناعة بأن الاحتلال فشل وأن مشروعها في العراق انهار وأنه لا يوجد أمل لإحيائه، قررت أن تدمر ما بقي من العراق».

يبدوا إذن أن «مابقي من العراق» حسب رؤية البعث هو حياة صدام حسين، أو أن هذا ليس إلا تهديداً من البعث بتدمير ما بقي من العراق أن تم تنفيذ الحكم الصادر بحق صدام.

لا يثير موقف البعثيين في دفاعهم عن صدام حسين أي استغراب في الشارع العراقي الذي تعود ذلك. وبنفس الطريقة يعتبر موقف «البعث» ومؤيدوه، المقاتل ضد «قانون اجتثاث البعث»، أمراً طبيعياً متوقعاً. هذا ما توحي به الأسماء، فمن الطبيعي أن يعترض «البعث» على «اجتثاث البعث».

لكن الأسماء قد تخفي خلفها إشكالات هامة. فهل أن البعث الذي وجدته الحكومة الحالية في العراق وتريد اجتثاثه، هو نفس الحزب الذي أسس في منتصف القرن الماضي كحزب قومي اشتراكي؟ لنعود إلى التعريفات والتأريخ أولاً...

حزب البعث حزب عربي قومي اشتراكي تأسس في دمشق بصورة





رسمية عند انعقاد مؤتمره الأول في ٧ أبريل ١٩٤٧، تبني المبدأ العلماني، ويرفع الحزب شعار ورسالة «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة» أما أهدافه فهي «وحدة، حرية، اشتراكية».

في سنة ١٩٥٣، اندمج حزب البعث مع الحزب العربي الاشتراكي الذي كان يرأسه أكرم الحوراني في حزب واحد هو «حزب البعث العربي الاشتراكي» كحزب قومي علماني يسعى لخلق جيل عربي جديد مؤمن بوحدة أمته.

**بضعة «نكسات»**

ورغم أن حزب البعث العراقي لم يكن له حصة الأسد من العنف السياسي الشديد الذي يميز تأريخ العراق الحديث، ربما لأنه كان غالباً في السلطة الممارسة للعنف، إلا انه تعرض خلال حياته إلى بضعة «نكسات» كان أولها فشل مؤامرة الشواف عام ١٩٥٩ التي يبين المقطع التالي من الكتاب الثاني لحنا بطاطو «العراق» أنها لم تكن كارثة بالنسبة للحزب وان معظم ضحاياها كانوا من خارجه:

«المتفق عليه الآن أن العدد كان في حدود المئات، وليس الآلاف. ويعد الشيوعيون حوالي ١١٠ قتلى و٣٠٠ جريح في الموصل نفسها، و٣٠ قتيلاً و٢٠ جريحاً بين أتباع الشواف، أما البقية فمن الجنود و«رجال الشعب». واستطاع القوميون أن يعدّوا ما لا يقل عن ٤٠ قتيلاً في صفوفهم وصفوف حلفائهم. وجعلوا عدد القتلى كلهم في حدود ٢٠٠. وكذلك فعل محمد حديد، وزير مالية قاسم والشاهد الذي يستحق الثقة».

ومن الطبيعي أن موقف قاسم من البعث لم يعد كما كان، ولكن لم يكن هناك مجال للحديث عن ضربة قاصمة للحزب.

ثم هناك انقلاب عبد السلام عارف بحركته التي دعاها بالتصحيحية في ١٨ تشرين ١٩٦٣ حيث أحيل العديد من البعثيين إلى التحقيق بمجازر ٨

شباط، وأدى إلى عزل الوزراء البعثيين الـ «١٢» من الحكومة

لكن أي من الحدثين لم يصيبا الحزب بأي عطب حقيقي، واستطاع البعث في الحالتين العودة إلى الساحة السياسية (بالانقلابات العسكرية) محتفظاً بأهدافه القومية والاشتراكية وبهيكله الحزبي، بل وجاء متطوراً بشكل واضح عن الشكل الغوغائي الذي كان عليه عام ١٩٦٣، ورغم انه لم يكن ديمقراطياً بأي شكل بل مؤمناً بنظرية الحزب الواحد أو الحزب القائد إلا أن نسبة من الجدل والنقاش والاختلاف كانت مقبولة داخل الحزب. لذا نستطيع أن نقول أن أي من هاتين النكستين لم تشكل ضربة قاصمة للحزب الذي استطاع النهوض ليستلم الحكم حتى جاء الاحتلال الأمريكي.

رغم ذلك يمكننا بسهولة أن «نكتشف أن حزب البعث الذي اسقط في مارس ٢٠٠٣ لايشبه كثيراً الحزب الذي تأسس عام ١٩٤٧ كما عرفّه مؤسسوه. ونكتشف أن الفارق ليس فارقاً بسيطاً سطحياً أو فارق تكتيكي فرضه الزمن على هذا الكائن الحي ليتلائم مع ضرورات الحياة كما يحدث بشكل طبيعي، بل فارق جوهري وأساسي، لانعود معه قادرين على استعمال اسمه الذي نعرفه به دون أن تتسبب تلك التسمية في تضليلنا عن ما نتحدث عنه.

## حزب تحول إلى مافيا

فالبعث الذي عرّف نفسه يوماً كـ «حزب شعبي قومي يهدف إلى الوحدة والحرية والاشتراكية» وصل في نهاية الأمر، حين جاء الاحتلال، إلى أن يكون عصابة مافيا بكل ما في الكلمة من معنى. فصار الدور الوحيد الذي يقوم به هو حماية الرئيس وعائلته من غضب شعبه الذي ذاق الأمرّين في عهده الطويل. يستعمل الحزب لذلك بنفس الطرق التي طالما استعملتها المافية من عنف مفرط وتجسس يطال جميع أبناء الشعب وفساد مالي بلا حدود.





هكذا اكتسبت هذه المؤسسة أهدافاً جديدة، فصار هدف «الحرية» في الجهة المعاكسة تماماً، إذ اصبح الحزب مع مؤسسات الدولة للشرطة السرية التي يختلط بها تماماً، العائق الرئيسي أمام حرية الإنسان في العراق، حيث صار التفوه بنكتة أو كلمة غير مناسبة سبباً لاغتيال قائلها، بل وعائلته معه. لكن، قد. يجادل البعض بحق ربما، أن حرية الفرد لم تكن يوما موضع احترام في العراق، وإنما كان المقصود بالحرية، حرية البلاد من الاستعمار فقط. وأما الاشتراكية، التي يفترض أن تكون خطوة إلى الأمام بعد الرأسمالية، فقد تم الابتعاد عنها خطوات تاريخية طويلة، بتحويل العراق إلى الاقتصاد الإقطاعي، بل اللصوصي السابق لعهد القانون الذي وضعته الإنسانية يوماً قبل آلاف السنين في هذا البلد قبل غيره. فلم يعد هذا القانون سوى «جرة قلم» على حد تعبير «الرئيس».

أما «الوحدة»، جوهرة تاج الحزب القومي، فلم يتم التخلي عنها فقط، بل وجهت لها ضربة في صميم القلب مقابل مغامرة أمل منها «الرئيس» نهب نفط إخوانه الذين كان يريد الوحدة معهم، فمزق كل ما كان قد بقي لدى البعض من حلم واهم بها، وشق العرب الذين أراد توحيدهم وحولهم إلى أعداء، ولم يترك أمامهم سوى قبول حماية الجيوش الأجنبية من جنونه ووحشيته. وهكذا إذن أعاد البعث بقيادة صدام بلدين (على الأقل) بشكل مباشر إلى العيش تحت ضلال الجيوش الأجنبية، وكانت قبله خالية منها. هكذا إذن صار وجود البعث وبالاً على الحرية بتعريفها القطري المضاد للاستعمار أيضاً.

إضافة إلى ذلك فقد اختلف «حزب البعث» اليوم عن الأمس بأمور أخرى مثل موقفه من الدين. حيث ورد الدين في الكثير من أدبياته كمسألة سلبية يجب محاربتها بين الرفاق (مثلما في المؤتمر القطري التاسع في ١٩٨٢)، وهذا عكس موقف الحزب الحالي تماماً حسبما عبر عنه المختار في

نفس المقابلة أعلاه حين سؤل عن الموضوع فأجاب: «عقيدتنا دينية لم تتغير».

عندما تزايد العنف والإرهاب المصاحب للاحتلال صار المزيد من الناس يتردد في الخيار بين الاحتلال والبعث رغم أن الجميع فضل الاحتلال في البداية ورحب به، وشمل ذلك حتى الفلوجة والرمادي (الأنبار) وعنه وهيت على حد علمي الشخصي مباشرة من بعض سكان من هذه المدن، وهذا مؤشر خطير لموقف الشعب من البعث الذي كان حاكماً. لقد تغير الحال اليوم وصار الناس يقارنون بين الاثنين فيختلفون. وعلى أية حال، ليس أمر يفتخر به لحزب وطني أن يقارن الشعب بتردد بينه وبين الاحتلال. لم تكن تلك بالتأكيد أهداف وطموحات وأحلام ووعود الحزب الذي تأسس عام ٤٧ لجماهيره. فما الذي تغير، ومتى، وما الذي جرى لذلك الحزب؟

## المذبحة

في ١٧ تموز ١٩٧٩ أصابت حزب البعث مذبحة قضت تركت قيادته موزعة بين قتيل ومرعوب. فأطاحت بربع أعضاء مجلس قيادة الثورة وثلث القيادة القطرية وعشرات الكوادر المتقدمة، وأصابت الباقين بالذهول. كذلك تم تصوير المذبحة على شريط فيديو وزع على منظمات الحزب لنشر الرعب في الكوادر الدنيا وهي ترى قياداتها تساق كالخراف إلى المذبحة. هكذا صار الحزب فريسة للشلل التام!

## يكتب زهير الجزائري(*)

الرواية الحقيقية وردت في شريط فيديو وُزِّع على المنظمات الحزبية يتضمن وقائع اجتماع استثنائي للكادر المتقدم يعترف فيه عضو مجلس قيادة الثورة محيي عبد الحسين أمام الجميع بمؤامرة شارك فيها خمسة أعضاء من مجلس

(*) http://althakafaaljadeda.com/317/20.htm





قيادة الثورة، هم: محمد عايش، وغانم عبد الجليل، ومحمد محجوب، وعدنان الحمداني، وصاحب الاعترافات نفسه، ومعهم العضو السابق المسجون منذ ١٩٧٣ عبد الخالق السامرائي. وحسب الاعترافات التي سُجلت قبل ذلك أمام لجنة تحقيق يرأسها برزان التكريتي شقيق صدام، كان المتآمرون ينسّقون مع السفير السوري للإطاحة بالحكم عبر محمد عايش.

«ففي الاجتماع الاستثنائي للكادر القيادي في الحزب في قاعة الخلد في تموز ١٩٧٩ ظهر صدام قاضياً وحيداً وسط المنصة، في طرفها الأيمن متهم وشاهد، هو عضو القيادة القطرية ومجلس قيادة الثورة محيي عبد الحسين، يعترف على شركاء في مؤامرة. لم يكن المتهمون خمسة فقط، إنما كل من في القاعة متهم قد يرد اسمه في أية لحظة من الاعترافات، وقد يدخل الحرس الخاص ليأخذوه إلى جدار الإعدام خارج القاعة. ولكن عليه قبل ذلك أن يردد أمام الجميع قسَم الحزب».

ولضمان نشر الرعب والمشاركة في مسؤولية الجريمة نحو الأسفل بشكل مؤثر، أجبر الجميع على المشاركة في المذبحة. عن هذا يكتب إسماعيل القادري:

http://www.azzaman.com/azz/articles/2002/01/01-17/a99569.htm

«أمر صدام منظمات الحزب الحاكم إرسال مندوبين من مستوي فرقة حزبية وأعلي ليشاركوا في عملية إعدام رفاقهم من قيادة حزبه، وقيل أيضا بأن برزان إبراهيم الحسن (الأخ غير الشقيق لصدام) وكان آنذاك قد تسلم مسؤولية جهاز المخابرات العراقي قد تحمس للحد الذي أخذ معه ابنه محمد وكان صغيراً وقتها ليشارك في عمليات الرمي والقتل».

نعود إلى الجزائري:

«في مطبخ الرعب هذا لم يسأل أحد: كيف تحولت سوريا، التي كانت مرشحة قبل يومين لوحدة اندماجية مع العراق، إلى (جهة أجنبية) متآمرة؟

وكيف تحول قياديون مرموقون، بعضهم رشحه صدام بنفسه، إلى خونه ومتآمرين؟ وكيف تمكن رشوة وزراء، تحت أيديهم ميزانيات بعشرات الملايين، بمبالغ لا تساوي مرتبات مرافقيهم؟ وكيف يمكن لعبد الخالق السامرائي، السجين منذ سبع سنوات، أن يقود كل هذه المؤامرات من زنزانة محروسة جيداً؟ ولمَ يحدث كل هذا بعد يومين فقط من تسلم صدام للسلطة؟ الخوف المهيمن على القاعة حوّل كل هذه الأسئلة إلى صرخات مزايدة تطالب (القاضي) بمزيد من الحسم مع المتهمين. وقد كان بين المزايدين نائب الضابط علي حسين المجيد، الذي صرخ بصوت مولول محذرا القاضي من أن دابر التآمر لن يقطع ما دام عبد الخالق السامرائي حيا يرزق». (علي حسين المجيد هذا سيصبح فيما بعد «علي الكيمياوي» إثر ضربه الأكراد بالأسلحة الكيمياوية).

«كان الخوف هو الخميرة اللازمة لتحويل الخائفين إلى جلادين. ففي نهاية (المحاكمة)، وقف الشهود صفاً واحداً وراء صدام حسين مع رشاشاتهم، وبدأ القاضي بإطلاق الرصاصات الأولى (وهو يبكي)، وبعده بدأ بقية القادة ورؤساء الفروع والشُّعَب،.. من كل واحد خمس رصاصات على جثث الرفاق، الذين ماتوا قبل ذلك بالتعذيب.

كانت هذه الممارسة هي الفرصة الوحيدة للمساواة بين الجميع: أن يشاركوا معا في إعدام رفاقهم، ولا يبقى بعد ذلك فاصل بين مذنب وبريء وسيّء أو أسوأ. وكانت هذه المشاركة بداية لإلغاء تدريجي للفاصل بين البعثي والجلاد».

«في هذا الجو الذي تحول الخوف فيه إلى حماسة، ثبّت صدام المسافة بين (الرمز) وبقية القيادة: «ما ذنبي إذا كانت السفوح تريد موازاة القمة».

لم تقتصر هذه الاستعارات الرمزية عن (الجبل والسفوح) على انفعالات المحاكمة فقط، إنما ستتكرس هذه المسافة، لاحقا، في لغة التخاطب الرسمية





والحزبية بين القائد الرمز ورفاقه، بمن فيهم أقرب نوابه إليه، فحلّت كلمة (سيدي) محل (رفيق)، وحل الإذعان المبرمج محل الاحترام الرفاقي» - انتهى الاقتباس.

إذن هكذا بدأ تحول «البعثي» إلى «جلاد» والنتيجة الحتمية لذلك تحول «الحزب» إلى عصابة إرهابية.

## بعد مذبحة الحزب وحتى الاحتلال

لم يصدق الكثيرين قصة المؤامرة السورية غير المحبوكة (من روايتها مثلاً أن السوريين سلموا المتآمرين حقيبة بها أربعة أو خمسة آلاف دولار (فقط!) وعلى أية حال، فبعد ثلاث سنوات من المجزرة، تبين أن السبب الحقيقي لها لم يكن مؤامرة سورية بل هو، كما ورد في كلمات تقرير المؤتمر القطري التاسع «وجود من يريد تعطيل تسلّم الرفيق صدام حسين مسؤولياته الشرعية في القيادة الأمامية للحزب والثورة»!!

استمر صدام بعد ذلك في تشديد قبضته على قيادة الحزب بتغييرات في قوانين الحزب لتصبح جميع خيوط الترشيح للقيادات في يده ويد من يختارهم، ليكون معظمهم من أقاربه من الدرجة الأولى أو العاملين تحت إمرته في جهاز حنين ومكتب العلاقات العامة. وهكذا كان صدام يستغل كل تراجع في الحزب أمام سلطته لفرض المزيد من تلك السلطة عليه وإحكام قبضته على كل شؤون الدولة الهامة. لقد بدا ذلك مبالغاً به أحياناً واكثر مما يمكن أن يحتاجه، لكن الأيام أثبتت حكمة الدكتاتور، فتلك الإضافات والمبالغات التي أبعدت أي شخصية لها أي اثر للقيم الإنسانية والحضارية عن أية سلطة، ستلعب بلا شك دوراً في نجاة حكمه من انتفاضة الشعب في عام ١٩٩١ (إضافة إلى تعاون الجيش الأمريكي معه) وتمكينه من قمع المنتفضين الذين كانوا قد تمكنوا من الاستيلاء على السلطة في ١٤ من محافظات العراق الـ ١٨.

بعد استقرار السلطة في يده حرص صدام على الاحتفاظ منفرداً بسلطة الرقابة على رفاقه وثبتها في المؤتمر القطري التاسع حيث أشار «وهكذا تكون الرقابة التقليدية ضرورية للمستويات الحزبية التي تلي القيادة العليا وليس أعضاء القيادة العليا» كما يشير زهير الجزائري الذي يضيف أن صدام طبق مبدأ (أهل الخبرة تحت رقابة أهل الثقة). ونفذ هذا المبدأ عملياً بـ «إلزام قيادات الدولة والحزب بمستوى وزراء وأعضاء قيادة قطرية وقادة الفيالق بالإقامة في مناطق محددة من الدولة وعدم الإقامة في منازلهم الخاصة. وتقوم القيادة الأمنية المكونة من أقارب الدرجة الأولى باختيار سكرتير ومرافق وسائق ومأمور بدالة أي عنصر قيادي بعد صدام. وهناك قرار يمنع تزاور الوزراء وأعضاء القيادة القطرية لبعضهم إلا بعد أخذ موافقة المكتب الخاص للرئيس.. وهكذا تحولت حماية القيادة الحزبية إلى رقابة عليها من قبل العائلة».

- http://althakafaaljadeda.com/317/20.htm

**«الغرف المغلقة»**

يكتب حسن العلوي عن ستراتيجية حكم صدام ما يلي: «حكمه كان قائماً على نظرية الغرف المغلقة التي تقضي أن هذه الغرفة لا تعلم بما يجري في الغرفة الثانية ولهذا غرفة الإعلام لا تعرف شيئاً عن غرفة الأمن، والشخص في غرفة التربية لا يعرف شيئاً عن غرفة الاقتصاد. وكان صدام يعتبر أن كل غرفة مسؤولة عن نفسها ولا يجوز لها أن تعرف شيئاً عن الغرفة الأخرى وإذا احترقت الغرفة المجاورة عليك أن تعمل وتتصرف وكأنه لا يوجد حريق بجانبك حتى لا يتأثر عملك إذا انهارت وحدة من الوحدات الإدارية.

وكان صدام دائما يقتل رؤساء الغرف هذه. مثلاً غرفة النفط شكلوها وفق نظام دولة المنظمة السرية، وزارة النفط لم تكن مسؤولة عن النفط وإنما





هيئة أخرى اسمها هيئة اتفاقيات النفط رئيسها صدام حسين وسكرتيرها العام عدنان الحمداني، وهي التي تعرف المبيعات والأسعار وأين تذهب الواردات فأعدمه وبقيت الأسرار مع صدام حسين. وأعطى بعض المعلومات عنها لأخيه برزان التكريتي.

غرفة الأمن، وفيها أهم أسرار الدولة، تتألف من مدير الأمن وصدام، وكان ناظم كزار مديرها أعدم ١٩٧٣ وجاء بعده فاضل البراك وأصبح مدير أمن ومدير مخابرات وأعدم، وصارت كل الأسرار عند صدام حسين. وأيضاً في المكاتب العسكرية دائماً كان يقتل الموجودين في المكتب العسكري المسؤول وأعضائه يتم إعدامهم».

- http://www.alarabiya.net/Articles/2006/11/07/28880.htm

**النتيجة**

بهذه الطريقة تخلص صدام حسين من «رفاقه» فلم يبقِ منهم على قيد الحياة ممن شاركوه انقلاب ١٩٦٨ سوى عزت إبراهيم، وطه ياسين رمضان، وطارق حنا عزيز! في السنوات التالية أدام صدام حسين حكم عصابة «العائلة» بطرق إرهابية عبقرية وفي منتهى القسوة وانعدام أي اثر لأي وازع أخلاقي. النتيجة تحول «حزب» البعث إلى «مافيا» البعث. فإضافة إلى التشابه الشديد بين الأساليب المتبعة لدى الطرفين، فإن البعض قد نقل يوماً عن صدام حسين أن من بين الأفلام التي يفضلها وقد شاهدها مرات عديدة، أفلام آل كابوني التي تمثل تأريخ تلك العصابة في الولايات المتحدة. وللحقيقة فإن المشاهد لتلك الأفلام يلاحظ الشبه الشديد بين حركات قادة المافيا وبين صدام حسين، مع فارق ملحوظ في التوجيه والاقتصاد في العنف ومحاولات الابتعاد عنه مؤخراً واستثمار محصولاته بمشاريع قانونية، لصالح المافيا الإيطالية الأصل، التي لم تكن لها السيطرة التامة على محيطها كما كان كان لمافيا البعث في العراق،

حيث كان خط العنف المريض يتصاعد بلا عائق.

كانت خسارة العراقيين هائلة، لكن خسارة البعثيين المؤمنين بحزبهم ومبادئه كانت أكبر، فإضافة إلى خسارة الجميع للوطن، خسر هؤلاء حزبهم وسمعته وسمعتهم، فالجرائم كانت ترتكب باسمهم على أية حال.

واليوم، عندما جاءت الفرصة ليتخلص هذا الحزب ممن يجثم على أنفاسه، نراه يهب للدفاع عنه! انهم يفعلون ذلك أيضاً بنفس الطرق الإرهابية المحقّرة التي استعملها صدام للتعامل مع شعبهم، فيغتالون بعض عائلة القاضي لأنه طرد «الرئيس» من القاعة، وثم يهددون بـ «حرق بغداد» ليس فقط أن تم تنفيذ الحكم بـ «الرئيس» بل أيضاً أن تم تنفيذ استدعاء أحد الشيوخ من فريقهم للتحقيق، تماماً مثل «الرئيس» الذي قال انه لن يترك البلاد إلا كأرض بلا شعب!

هذه هي المجموعة التي تدعوا العراقيين ليقبلوا قيادتها من جديد. هذه هي المجموعة التي ينتفض العالم مغتاظاً لنقص الدقة في ظروف محاكمة أعضائها. هذه هي قيمة الشعب العراقي الذي يريدون تحريره، عندهم، وهذه هي قيمة بغداد التي طالما احتضنتهم حاراتها بالنسبة إليهم. الأول ارخص ثمناً من السلطة، والثانية أدنى شأناً من إزعاج شيخ بسؤال عما تفوه به.

هذه المافيا هي لا غيرها من «اجتث» حزب البعث، ليس اليوم وإنما منذ عام ١٩٧٩ وما تلاه، وبقسوة بالغة فلم تبق منه شيئاً له أية ملامح حزب سياسي. لذا لم يكن هناك حزب «بعث» لتجتثه هذه الحكومة اليوم، وما اسم هيئة «اجتثاث البعث» إلا تسمية غير موفقة. أن من يدافع عنه البعثيون اليوم هو بالضبط وحش فرانكنشتاين الذي اجتث حزبهم فقتل من قد يجرؤ على فتح فمه من قيادته وليحول الباقي المرعوب منها إلى عصابة تابعة له، وحوّل المنتمين إلى الحزب إلى جلادين وسجانين لشعبهم وجواسيس





عليه ولصوص لخيراته ليهبط به إلى الليل الطويل الذي تخيم عليه نتائجه حتى هذه اللحظة.

السؤال اليوم: هل يستطيع حزب البعث أن يستعيد كيانه كحزب سياسي، فيتخلى عن اسمه الكريه في ذاكرة الناس ويتخلى عن من يجلس على كراسي قيادته من أعضاء ممن لافضل لهم إلا جبن الصمت أمام قيادتهم وعمق الجهل وشدة القسوة والتخلف الحضاري، ويعتذر للشعب عن كل ما تسبب له من كوارث فاقت مجموع ما تسبب به أعداؤه، ويطالب المؤمنين به بالاقتصاص ممن وضعوا نفسهم بالدم والرعب قواداً لهم، فأوصلوهم إلى هذا الدور غير المشرّف؟

هذا ما سيقوله التأريخ، ولكن للبدء بذلك على البعثيون أولاً أن يواجهوا حقيقة قاسية هي أنهم بدفاعهم عن صدام وحاشيته لم يكونوا طيلة الوقت يدافعون عن حزبهم بوجه الاجتثاث، بل يدافعون بالضبط عن من اجتث حزبهم. أن مواجهة هذه الحقيقة القاسية هي بداية الخيط والحركة الأولى في المهمة المتناهية الصعوبة والخطورة نحو تصحيح هذا «الخطأ» المرير!

٢٠٠٦/١٢/٤

# العلم العراقي: المشكلة والحل

من مميزات المجتمع الضعيف، تماماً كما هو الحال لدى الشخص الضعيف: الشلل بوجه أية مشكلة وأي تحد، فيغرق في قدح ماء ويدوخ أمام ابسط المسائل.

تقف الحكومة العراقية أمام «مشكلة العلم العراقي» وهي مشكلة لم يخلقها مسعود البرزاني إنما أثارها فقط. عندما قرر إنزال العلم الذي تركه صدام كقميص عثمان، والتي أثارت ردود فعل حادة وتبادل للتهديدات وزادت الموقف المعقد تعقيداً رغم نفي مسعود للاتهام بنوايا انفصالية تقف خلف القرار.

المشكلة لم يخلقها مسعود فالمشكلة كانت وما زالت موجودة منذ سقوط صدام. ويمكن تلخيصها أن العلم العراقي الذي تركه صدام يمثل تحدياً ليس للشعب الكردي فقط، ولكن لكل من يمثل ذلك العلم ذكرى الإذلال والقهر والاحتقار، الذي كان يميز حكم صدام. فهو مازال يرفرف متحدياً الناس في طموحها نحو عيش كريم كباقي البشر في الأرض.

تعاملت الحكومة بتلكؤ وحذر في موضوع العلم فاختارت أحياناً أن ترفع كتابة صدام منه وأحياناً اكتفت أن تكتب العبارة بخطوط أخرى، وهو ما أشار إليه البرزاني حين قال أن العلم العراقي الحالي غير موحد في تشكيلته في العراق، مقارنة بعلم الرابع عشر من تموز وهو علم موحد ولايرتبط بذكريات أليمة للعراقيين، على العكس من العلم الحالي لأنه يعبر عن «فترة من اشد الفترات سواداً في تاريخ العراق». كما بين مسعود البارزاني واصفا إياه بأنه «علم البعث والأنفال والقصف الكيمياوي والمقابر





الجماعية وتجفيف الأهوار وتدمير العراق بأكمله».

كما أشار البارزاني وجلال الطالباني إلى الفراغ الدستوري المحيط بموضوع العلم والتلكؤ في تنفيذ المادة الخاصة بتغييره. وفعلاً كانت الحكومة العراقية السابقة قد أعلنت مسابقة لتصميم علم جديد يكون معبراً عن مختلف فئات العراقيين لكن المشروع اختنق ككثير غيره في غبار الإرهاب والفوضى.

ورغم أن تغيير العلم ليس أمراً غريباً على الثورات والانقلابات، فإن القرار لامس وتراً حساساً لدى مقالق العراقيين على مستقبل وطنهم ووحدته. وعدا الحساسية والقلق المذكور، وعدا المزايدات التي تستهدف الإضرار بالعراق وزيادة التوترات بين فئات شعبه، فهناك مشكلتان رئيسيتان في هذا الموضوع:

المشكلة الرئيسية الأولى الحساسة في الموضوع هي أن علم صدام اختبأ خلف عبارة «الله اكبر». فحين نشرت تصميم العلم العراقي الذي شاركت فيه في المسابقة المذكورة(*)، كتب أحد القراء راجياً أن لا نزيل عبارة التكبير من علمنا. واليوم بعد بضعة سنوات من التوتر والتناحر والقلق والطائفية فنحن أضعف كثيراً من اليوم الذي أردنا فيه تغيير العلم وصار حتى حذف تلك العبارة مسألة خطيرة يعترض عليها، ليس المغرضون فقط بل أيضاً الكثير من المسلمين حسني النية، مع أن اليد التي خطتها يد قتلت من المسلمين أنفسهم، ربما أكثر من أية يد أخرى في التأريخ. والسؤال هنا هل أن عبارة التكبير المقدسة تذكر قارئها بلفظ الجلالة أم تذكر بصدام الذي كتبها؟ لا شك أنها تذكر العراقي بصدام، حين يراها على العلم العراقي بالذات، وفي هذا الوقت بالذات حيث القلق حول المستقبل، فإن لذلك أثر لايحتمل مشكك بهزيمة الدكتاتورية.

(*) تصميم الكاتب للعلم العراقي الجديد:

http://www.doroob.com/&p=587

لحسن الحظ فإن في التأريخ الإسلامي والقرآن الكريم ما يوحي بالحل بل ويرشد إليه بشكل لا لبس فيه.

فقبيل تبوك، بنى منافق يعادي الإسلام ويدعيه مسجداً أراد به الفتنة، لكن الرسول (ص) لم يتردد في مواجهته، فورد ذكر الحادثة في سورة التوبة:

﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وتفريقاً بين المسلمين وأرصاداً لمن حارب الله والرسول من قبل وليحلفن أن أردنا إلا الحسنى والله يشهد انهم لكذبون (١٠٦) لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين (١٠٧)﴾.

ومن تفسير ابن كثير لتلك الآيات ننقل مايلي:

«سبب نزول هذه الآيات الكريمات، انه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله (ص) إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله (ص) مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، يماثلهم على حرب رسول الله (ص) فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله (ص) وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول: والله





لقد أصاب قومي بعدي شر وكان رسول الله (ص) قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله (ص) أن يموت بعيداً طريداً فنالته هذه الدعوة، وذلك انه لما فرغ الناس من أحد، ورأبي أمر الرسول (ص) في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي (ص) فوعده مناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله (ص) ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله (ص) إلى تبوك،

وجاءوا فسألوا رسول الله (ص) أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله (ص) إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، هم أناس من الأنصار... فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله (ص) مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي أو أخاه عامر بن عدي أخا بلعجلان فقال «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وأحرقاه»... فدخل أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه ناراً... فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل (والذين اتخذوا مسجداً ضرراً وكفراً) إلى آخر القصة. (...) وقوله (وليحلفن) أي الذين بنوه (إن أردنا إلا الحسنى) أي ما أردنا

ببنيانه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي فيما قصدوا وفيما نووا، وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء وكفراً ورفقا بالناس، قال الله تعالى: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ (...) وقوله (لا تقم فيه أبداً) نهي له (ص) والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه..». (انتهى الاقتباس من تفسير ابن كثير).

والقصة لا تحتاج إلى تعليق فمما لا شك فيه أن صدام الذي قتل من المسلمين أكثر من أي شخص آخر في التأريخ وأشعل حروباً بين الدول الإسلامية مثيراً الفتن والخراب بين المسلمين والمسلمين وبين العرب والعرب لهو اشد ضرراً ونفاقاً من أبو عامر المذكور أعلاه. وان كان الرسول (ص) لايرى ضيراً في إحراق مسجد، وهو بيت الله، أن كان بني على نفاق، وحتى لو ادعى بانوه وحلفوا انهم يريدون به الحسنى وخير الناس والدين، وتخليصاً لارتباط رمز ديني بأساس منافق، فلا شك أنه من الصحيح درأً للفتنة ومواجهة النفاق وتخليص رمز التكبير من ارتباطه بشخص مثل صدام حسين، بإلغاء عبارة التكبير التي كتبها على العلم.

المشكلة الثانية مشكلة فنية وهي الأبسط نسبياً وهي تمثيل العلم العراقي لكل فئات الشعب العراقي. فلا يمكن أن يحتوي العلم على ما يمثل كل فئة من عشرات الفئات المكونة للشعب العراقي. والحل لهذه المشكلة أن لا يحتوي العلم على ما يمثل أية فئة مباشرة وإنما يقتصر على تمثيل ما يرمز إلى العراق مثل النفط المتواجد في البلاد من شمالها إلى جنوبها، وما يرمز إلى طموح العراقيين بالسلام والمساواة، وهذه هي الفكرة التي استوحيت منها مشاركتي في مسابقة العلم العراقي التي لم تر النور، وما زلت أرى التصميم الذي قدمته وافياً كحل للأزمة.

٢٠٠٦/٩/٥





## أمسك خصمك متلبساً بقول الحق وامتدحه!

القانون الأخلاقي الأول في الجدال (debate) هو نفس القانون الأخلاقي الأول في كرة القدم: «اضرب الكرة وليس اللاعب المقابل». «لا توجه رصاصك إلى ساعي البريد حتى أن كانت الرسالة التي يحملها لك مزعجة لك». يقدم المبدأ نفسه بكلمات أخرى. لكن القانون شيء وتنفيذه شيء أتخر، خاصة إذا كان قانوناً أخلاقياً، كما نعلم جميعاً من خلال مراقبتنا لكل من ساحة كرة القدم وميادين الجدال وعدد الضحايا من السعاة على السواء.

في سفرة عائلية عراقية في هولندا جلست قرب مجموعة أصدقاء يسارية وبادرتهم مشاكساً وبدون مقدمات: من تظنون أكثر تصلباً في النقاش حين يتحدث مع الآخر: المتدينين أم العلمانيين؟ كان سؤالي بغرض الاستفزاز، ومن خلاله كنت أريد أن أقول أننا العلمانيين قد انجرفنا في توتير النقاش وإفساده حتى لم يعد سهلاً تميز أسلوبنا عن حدة وتعصب المتدين حين يناقش في دينه.

ثم ازداد التوتر وازدادت حدة النقاش مع تزايد العنف في العراق وغير العراق، وتزايد الصراع في كل مكان، وصار كل واحد يشعر بالخطر على العالم وعلى مبادئه التي يراها مهددة من قبل «الآخر».

في مثل هذا الجو من الضوضاء المتوترة لايسهل الاستماع إلى فولتير وهو يترنم: «اختلف معك في الرأي لكني مستعد للموت من أجل حقك في أن تقول ما تريده بحرية».

هناك طرق يعرفها الجميع لمنع النقاش. وضعهم المتناقشين في السجن أو إنقاذهم من حياتهم برصاصة، أو، وهي أكثر الطرق اقتصادية حين يكون العدد كبيراً، أخافتهم!

لكن الطرق المعروفة تفقد تأثيرها فوجب اختراع طرق جديدة تحل محلها. الطريقة الجديدة هي أن «تفسد النقاش» بتحويله إلى صراع متعصب، وتستبدل الكلمات العلمية الموضوعية بمسبات خشنة فتحل الحدة في الرأي والجدال، فلا يعود للموضوعية الهامسة من يسمعها، ولا يعود هناك مجال لقول كلمة حق، لأنها ستؤخذ على أنه يراد بها باطل. لقد منع النقاش حول الأديان مؤخراً بهذه الطريقة، فأنا مثلاً لم أجد المناسبة اللازمة لكتابة انتقاداتي التي أود طرحها للفكر الديني، ليس بسبب الخوف من الاضطهاد الديني والمتطرفين الدينيين، بل بسبب تحول هذا النوع من النقاش إلى معارك وتهجمات وتحزبات خربت الحد الأدنى من الثقة بين داخلي هذا المنتدى، فأخشى أن احتسب على الهجمة (الظالمة في أحيان كثيرة) التي تعلن على الإسلام اليوم، ويقودها في الغرب خاصة، رجال ونساء لهم ملامح النازية وعنفها وكذبها ورائحتها، ويقف معهم دون انتباه الكثير من الأبرياء المتمتعين بالمعركة.

يمكننا أن نحصل على كل ما نريد من أمثلة من أي حدث سياسي أو ديني أو اجتماعي. كمثال ما جرى مؤخراً في العراق، حين اتهم المعارضين لفدرالية الجنوب مؤيدوها بالعمالة لإيران، وبالمقابل اتهمت عضوة في البرلمان العراقي متحمسة، المعارضين للفدرالية الجنوبية بأنهم «صداميين»، وفي مناسبة سابقة وجه مؤيدوا مسودة الدستور نفس التهمة إلى رافضيها، فأتهم رئيس العراق الطالباني مثلاً، الرافضين لها بتهم من هذا النوع.. أن اللجوء إلى تحويل النقاش إلى معركة أو تبادل مسبة مؤشر ضعف المجادل وتهربه من الجدال الحقيقي، وحسناً يفعل فليس لديه خيار افضل.





يقول ارسطو في «الخطابات»: «إذا كان الرجل يخجل أن يكون عاجزاً على الدفاع عن نفسه جسدياً، فمن السخف ألا نعتبر مخجلاً أن يعجز عن الدفاع عن نفسه بالمنطق والكلام».

ولكن، ماذا يفعل الضعيف الذي يعرف انه سيخسر النقاش؟ الفكرة التي يعرفها السياسيون جيداً: «إن لم تستطع الرد بشكل جيد على نقطة عسيرة في النقاش، هاجم شخص المقابل. اتهمه بشيء ما. وما أن يرد عليك بالنفي أو بمهاجمتك حتى يتحول الجدال بعيداً عن النقطة الشائكة وينسى المشاهدون الموضوع الذي كنت ستخسر فيه».

«لا يوجد دفاع مقابل التشهير. ماذا ترد أن اتهمك أحدهم بأنك نازي؟ هل تحاول أن تبرهن له انك لست نازي؟ انك ستخسر في جميع الأحوال» هكذا يعلمنا جومسكي بتشاؤم.

وبالفعل يعلمنا تأريخ الانتخابات أن رئيس أمريكياً نصح مرشحاً عن حزبه لانتخابات محلية أن يثير شائعة على خصمه الخطير بأن هذا يمارس الجنس مع الخنازير. وحين قال المرشح «لكنه لايفعل ذلك، أليس كذلك؟» أجابه الرئيس: «بالطبع لا، ولكن كيف سيرد عليك؟» أن مجرد إثارة الموضوع ستسيء إليه كثيراً.

لكن المشاهدين النبهين، وهم في تزايد في العالم، لن يخدعوا بذلك، خاصة أن كان المقابل حذقاً ورفض تحويل وجهة الجدال عن الموضوع الذي جاء من أجله. ليس هذا المبدأ إذن أخلاقي فقط بل هو أساسي أيضاً للتمكن من إجراء جدال موضوعي مفيد، بل وللتمكن من إنجاز التفكير السليم حيث تتصارع الأفكار المختلفة في الذهن. لكن الدافع للعودة إلى النقاش الموضوعي المباشر أو غير المباشر، مثل الكتابة، ليس فقط لمحتواه الحضاري، ولكن أيضاً لتميزه بالقوة لأنه، وبالعكس من الأساليب التشهيرية، لا يتيح لمن يوجه إليه فرصة للهرب بتحويل النقاش إلى معركة شخصية بدلا من الموضوع.

مثالياً، يجب أن يحصل الرأي المقابل على الفرصة للدفاع عن نفسه بكل الحجج، حتى التي تبدوا بعيدة عن الواقع قليلاً. يتخذ هذا الموقف من يسمى بـ«محامي الشيطان»، والمقصود من هذا المصطلح فحص إمكانيات الدفاع عن أي رأي بكل الطرق الممكنة حتى التي لاتقتنع بها بنفسك. ويكون هذا الأسلوب مفيداً في استنفاذ كل الحجج التي يمكن لصاحب الرأي المقابل أن يأتي بها، وصولا إلى بناء موقف رأي ونقد قوي خال من الثغرات.

كيف نسلخ عن النقاش شخصانيته وتعصبه المفسدين ونعيد له موضوعيته وحيويته وحضارته... وقدرته على الإقناع ؟

نادراً ما استشهد بمدراء الشركات، لكن اسمحوا لي هذه المرة. فقد قرأت قبل فترة لمدير شركة يشرح سر نجاحه هكذا: «انتظر الفرصة لأمسك بالموظف لدي، متلبساً بإنجاز جيد، فامتدحه، فيجد نفسه مدفوعاً لتكرار نجاحه ليحافظ على سمعته الجيدة لدي».

ما رأيك يا صحابي أن نراقب خصمنا المعتاد المصرً على التحيز والمغالطة الكريهة في الجدال أو الكتابة، حتى يقول الحق، أو يكتب ما هو جميل، فنكتب له مهنئين؟ لنقف له «بالمرصاد» إذن، حتى نفاجئه متلبساً بالحق، فنثبته فيه برسالة أو تلفون أو بكلمة مديح!

٢٠٠٦/١٠/٣٠





# الزرازير والحساب

يحكى أن الزرازير كانت تعيش على شجرة لوز كبيرة، وكانت تدرك أن كثافة أوراق الشجرة تحميها من رؤية الصيادين لها، لذا فإنها لا تطير أبداً أن رأت صياداً يحوم بالقرب منها، حتى لو حاول أخافتها بإطلاق النار في الهواء أو الصراخ والتهويش بيديه. لذلك قرر الصيادين أن يختبئوا تحت الشجرة نفسها لخداع الزرازير.

جاء صياد واختبأ اسفل الشجرة وانتظر طويلاً. لكن الزرازير لم تطر. كانت قد رأت صياداً يتجه إلى اسفل الشجرة، ولم يخرج، إذن فهو مازال هناك! وهكذا نجت الزرازير في اليوم الأول.

في اليوم التالي جاء صيادين اثنين واختفيا لبرهة تحت الشجرة، ثم خرج أحدهما وذهب. لكن الزرازير لم تطر لأنها حسبت أن صيادين اثنين قد دخلا، ولم يخرج إلا صياد واحد، فهناك إذن صياد بقي تحت الشجرة.

في اليوم الثالث اختبأ ثلاث صيادين تحت الشجرة ثم غادرها اثنين. الزرازير لم تكن تعرف العد لأكثر من اثنين، لذا لم تستطع أن تميز بين الثلاثة الذي جاءوا والاثنين الذين ذهبا، فطارت لتلقى مصيرها على رصاص الصياد المختبئ.

هكذا دفعت الزرازير حياتها ثمنا لأنها لم تستطع العد لأكثر من اثنين.

الكثير من البشر يبدون غير قادرين أو غير راغبين في العد لأكثر من اثنين في رؤيتهم واتخاذ مواقفهم.

إنهم يقسمون العالم إلى نصفين دائماً: فبوش يقول «أما أن تكونوا معنا أو

مع الإرهاب». تماماً كما كان نظام صدام يقسم العراقيين إلى بعثيين وأعداء.

لكن مشكلة كسل الحساب لم تقتصر على بوش وصدام وسطحيي الاهتمام بالسياسة من الناس، بل تشمل الكثير من المثقفين أيضاً، وتظهر بشكل ميل إلى تقسيم مبسط للعالم إلى خير وشر، اسود وابيض، مع فلان أو ضده.

فمثلاً في الجدل الدائر حول فضيحة مذبحة حديثة، رفض البعض من هؤلاء استنكار الجريمة، بل امتنعوا عن قراءة المقالات التي تدينها وتجنبوا تفاصيل الأخبار حولها ورؤية أفلام الفيديو عنها. والسبب هو أن مثل هذا العمل يدين أميركا لذا فهو تأييد لصدام. فبالنسبة لهؤلاء في العالم أميركا وصدام فقط ولا ثالث لهما!

هذا المنطق شديد التبسيط، شديد العاطفة والكسول التفكير يناقض نفسه بنفسه. ففي حماسه الشديد ضد خصمه، يراه ممثلاً لكل الشر، فلا بد أن خصم خصمه يمثل كل الخير. ولحماية هذه النظرة السهلة الكسر، يلجأ أصحابها إلى بذل جهد نفسي وذهني شديد لتجاهل نواقص أبطالهم وتأريخهم وترهيم الحجج لتبرير أعمالهم.

فتجد لدى من كان من هؤلاء شديدي الكره لصدام، مؤلهين لأميركا، غير قادرين على رؤية وتقييم التصرفات والتأريخ الأمريكيين بأي درجة معقولة من الموضوعية. ومن الجانب الآخر، يرى من كره الاحتلال وتصرفاته وجرائمه في صدام البطل المخلص، ويبدع في تجنب الحقائق غير المناسبة والذكريات غير المستحبة.

لايخطر على بال هؤلاء وأولئك إمكانية وجود أكثر من شر واحد في العالم وان تلك الشرور تبقى شروراً حتى وان اختلفت فيما بينها. تعمل أدمغة هؤلاء وذاكرتهم بانتقائية عجيبة لتتذكر ما هو مناسب ونسيان غيره، ولاكتشاف التحليلات التي تؤدي إلى تأييد صحة نظريتهم الصعبة، دون التي تفندها.





استمع إلى جدل بين هذين الطرفين تجد كل منهما يقول ما هو صحيح غالباً عندما يتحدث عن عدوه، وينخفض منطقه إلى درجة مضحكة حين يتحدث عن بطله. وإن حاججته بجرائم بطله فإنه يكتفي عادة بأجوبة عامة أو أمثال أو حجج معاكسة عن جرائم الطرف الآخر. هو سعيد بنظريته البسيطة قليلة التفاصيل ويريد أن يبقى سعيداً!

ومن أشكال الكسل الذهني محدود الحساب والمبتعد عن التفاصيل، استعجالاً لاتخاذ موقف، التعميم حيث يفترض التفصيل والتمييز. وترى ذلك عند من يقول لك مثلاً «الأمريكان جهلة». أو من ينتقد البرلمان بشكل عام أو من يحب أو يكره «الدول الأوربية». صحيح أن في أميركا نسبة جهل عالية بالعالم، لكن فيها اعظم المفكرين والكتاب والصحفيين في العالم على الإطلاق. والبرلمان، أي برلمان حقيقي ولو بدرجة ما، كيان متصارع غير متجانس لا يصح الحكم عليه ككتلة واحدة، والدول الأوربية تعميم يجب أن لا يستعمل إلا بحذر شديد.

الصراع بين الزرازير والصيادين صراع بقاء: يريد الصيادون النجاة من الجوع بأن يضعوا أمام الزرازير معضلة تفوق قدرتها على الحساب لتتخبط في عشوائية كسمكة خارج الماء سهلة الصيد. وأمل الزرازير في البقاء هو في قدرتها على أن تحسب فوق ما يقدر الصيادون على خلقه من إشكالات وتفاصيل. في قدرتها على التفكير النشط المرن المميز للتفاصيل واكتشاف الطريق الضيق الذي يحيطه الخطأ من جانبيه، واستبيانه في كل متاهة ينجح الصيادون في قذفها إلى ساحة المعركة.

في القرار راحة وسعادة، وفي التردد إرهاق وقلق، ويبحث الجميع عن السعادة ويتجنب القلق. لكن السعادة السابقة لأوانها قد تكون خطيرة النتائج أحياناً، كما كانت لزرازير شجرة اللوز.

٢٠٠٦/٦/٥

## القراءة كترفيه عنيف، والمقالة كحلبة ملاكمة

كتبت بين الجد والهزل لصديق كان يعتذر أن كان أغضبني أن لايقلق فأنا «إن غضبت كتبت مقالة، فاحول ذلك الغضب إلى ما يسعدني».

وحين اقرأ في مواقع الإنترنت أجد غالباً من يكتب في المساء ليعيد الصفعات التي تلقاها نهاراً، ومن يقرأ ويقيم فإنما يفعل ذلك كمشاهد لجولة ملاكمة، جاء ليفرغ توترات يومه وإحباطاته ومقالقه بمشاهد العنف الثقافية. إنه يقيم ما يقرأ بقدر ما يكيل الملاكم الذي يحبه، الضربات إلى خصمه، خصم القارئ، ليخرج من قراءته، ليس بمعلومات إضافية أو وجهة نظر جديدة، بل بمتعة جديدة وابتسامة عريضة، أو تجهم في الوجه.

إنه يقلب المقالات كمن ينتقي الحلبات التي سيشاهدها. يمر على المقالة سريعاً، ملقياً نظرة سريعة من باب الحلبة نصف المفتوح ليرى أن كانت المقالة ـ الحلبة مرشحة أن تسره بانتصارات ملاكمه أم تثير الغم فيه حين يتلقى الرأي الذي يعتنقه، أو البطل الذي يحبه، اللكمات المستقيمة المؤلمة.

بعض المواقع الإلكترونية تتيح للقارئ المتحمس أن يشارك في النزال بلكمة يكيلها إلى الكاتب أو إلى خصم الكاتب، مستفيداً من إمكانية تقييم المقالة، فيعطيها الدرجة الدنيا أو القصوى، أو من خلال كتابة تعليق محطم أو مصفق.

كلنا يفعل ذلك بدرجة أو أخرى، رغم أننا جميعاً نؤمن بالمثل الأعلى في المباريات: «ليكن الفوز للأفضل».

لكن التوتر مستعجل للإفراغ بالتمتع، بينما الأمثال العليا يمكنها أن





تنتظر. لذا نفرح أن فاز فريقنا ولو بضربة حظ كما أننا سنتساهل عن بعض الغش البسيط هنا وهناك أن كان يساعدنا على الفوز.

لقد كتبت العديد من المقالات من مختلف الأنواع، ولاحظت أن المقالات الدراسية المليئة بالاستشهادات والتي تأخذ من وقتي أكثر من غيرها، ليست الأكثر شعبية بين القراء، رغم أنها من المفروض أن تقدم محتوى أغنى، ومساهمة اكبر في البحث عن الحقيقة.

لكن «الحقيقة» ليست بالشعبية التي نتصورها. يقول نيتشة: «لقد اثبت التأريخ أن حاجة الإنسان للوهم اكبر من حاجته إلى الحقيقة». ويبدو لي أن حاجة الإنسان ليست تماماً إلى «الوهم» بل لعلها الحاجة إلى الاطمئنان، والوهم الذي يسمح لنا أن نشكله حسبما نريد، اقدر عادة على تقديم هذا الاطمئنان السريع، من قدرة الحقيقة الحيادية القاسية على ذلك، خاصة عندما يكون التوتر والقلق عالياً مستعجلاً، كما هو الحال غالباً اليوم.

«الحقيقة» يمكنها هي الأخرى أن تعطي الشعور بالاطمئنان، إلا في الحالات الميؤوس منها تماماً. فالحقيقة تقدم جواً نهارياً مضيئاً يكشف الوحوش المخيفة وأسنانها اللامعة، لكنه يكشف أيضاً الطريق إلى الخلاص، ولعل هذا ما يدفع البعض للبحث عنها بحب وإصرار. ومثل هؤلاء يصعب على الوهم أن يعطيهم الأمان.

لكن «أمان الحقيقة» أمان محدود مهدد ويتطلب دائماً جهدا لتحقيقه، لذا فإن شديد القلق والمتعب لن يجد ضالته فيها غالباً، فيتحول إلى الوهم. لذا ليس من الواقعية أن نتوقع قارئ يقرأ من أجل الحقيقة المجردة في ظروف الحرب أو الإرهاب أو الاضطهاد الدكتاتوري، أو كاتباً يكتب من أجل تلك الحقيقة فقط.

ورغم أن الحقيقة المجردة هي أكثر الطرق كفاءة للوصول إلى حل، لكن الإنسان ليس حاسبة، ودماغه ليس قرص صلب يملأ بالمعلومات بضغطة

على لوحة المفاتيح. إنه يبحث عن المعلومات والأجوبة فقط حين يحار وتقلقه الأسئلة وتقض رقاده. يقول مثل فرنسي: «رجل سعيد، رجل لا يفكر».

فكيف الحل لهذا الإشكال: الحقيقة هي الطريق الأنسب لحل المشاكل، لكننا لا نفكر إلا عندما نقلق، وعندها نبحث عادة عن الوهم وليس الحقيقة! أو بعبارة أخرى أن الحافز للبحث عن حل، هو نفس الحافز لتجنب الحقيقة لحساب البحث عن الوهم، وكلما ازداد الحافز حدة، ازداد النشاط للبحث عن حل، وازدادت معه الرغبة في اللجوء إلى الوهم. فما الحل؟

يبدو لي أن خير ما نستطيعه مع طبيعتنا المتناقضة هذه هو أن نستعين بالوعي بهذه الإشكالية ليزيد من إرادتنا بالابتعاد عن الوهم الدافئ اللذيذ وتحمل البقاء قرب الحقيقة الباردة أطول مدة ممكنة. أن نراقب ميولنا، وأن نتفهمها... وتعالوا نتفق أن ننظر إلى أيدينا قبل أن نكتب أو نقرأ أو نقيم، لنر أن كانت تحمل قلماً أم ترتدي قفاز ملاكمة!

٢٠٠٦/٦/٥





# مسرحية يارة الصامتة

(قال إنسان لم اعد اذكر اسمه: إذا كانت الظروف هي التي تخلق الإنسان، فلنخلق ظروفا إنسانية.)

دفعتني المشاهد المرعبة التي ينقلها التلفزيون يومياً من العراق إلى قلق عميق، وأثارت عندي من جديد التساؤل القديم: أن كانت القسوة قد صارت جزءاً لا يتجزأ منا، وان كان العنف قد اخترق جلودنا لكثرة ما تشبع به محيطنا فوصل جيناتنا فاصبنا بمرض لا يرجى منه شفاء حتى أن رحلت أسباب العنف عنا.

أبدل ملابسي للخروج، وتدور في رأسي جمل من مقالة قرأتها تواً للباحث حميد الهاشمي ومقولات للمربي العراقي الراحل علي الوردي عن تجذر العنف في الشخصية العراقية. أؤكد لنفسي أني لم أجد فيها ما يقول أننا نرثه، لكن مع ذلك، فإن أحداً لم يطمئنني أيضاً بتوكيد زوال هذا الوباء بزوال بيئته وأننا لن نورثه لأطفالنا.

تقطع علي زوجتي أفكاري وهي تستعجلني الحركة لأننا قد تأخرنا. كان هناك احتفال بسيط بمناسبة انتهاء دورة مسرحية للأطفال كانت ابنتنا يارة قد دخلتها قبل بضعة أسابيع في بناء قريب من بيتنا.

كنا قد تأخرنا فعلاً. دخلنا الغرفة الصغيرة المظلمة ونحن نحاول أن لانثير أي صوت. وحين جلسنا أخيراً، انتبهت أن يارة كانت تجلس في آخر صف من كراسي يجلس عليها الأطفال الممثلون داخل المسرح، وهي تختلس النظر إلى والديها بخليط من الإحراج والسعادة، فيما كان أطفال

آخرون يؤدون بعض الحركات المسرحية الراقصة مع الموسيقى.

ما أن استقرينا على مقاعدنا وهدأ فينا إحراج تأخرنا حتى كانت الفقرة الثانية قد بدأت.

قام الطفل الذي يجلس أولاً في الصف وسار إلى كرسي مضاء في وسط المسرح، وبدأ يقرأ جريدة بصمت، وقد وضع في فمه صافرة صغيرة. يصدر من الصافرة صوت يعلو تدريجياً لذبابة يبدوا أنها تحوم حول قارئ الجريدة، الذي يتابعها بعينيه ثم يضربها بسرعة بجريدته، ويعود للقراءة بسلام.

قام الطفل التالي والتالي... وكل يبدأ بنفس الطريقة لينتهي بفكرة يبدوا أنه قد ارتجلها لمسرحيته الصامتة (البانتوميم) تدور حول كيف يتخلص من الذبابة: واحد يسحقها بجريدته، والآخر يصفقها بيديه وثالث يسقطها أرضاً ويبدأ القفز عليها بحذائه.

وصل الدور إلى يارتنا، فقامت تخفي ابتسامة خجولة، وجلست تقرأ الجريدة حتى جاءتها الذبابة نفسها ذات الأرواح السبعة، التي قتل الأطفال ستة منها لحد الآن.

نظرت يارة إلى الأعلى حيث تزمجر الذبابة، وأدارت رأسها يميناً وشمالاً كأنها تبحث عن شيء. وفجأة قامت من كرسيها وخطت إلى يسار المسرح بضعة خطوات، ثم التفتت وأشارت إلى الذبابة أن تتبعها.

يبدو أن الذبابة قد استجابت لها، فمشت يارة حتى نهاية المسرح، وفتحت شباكاً خيالياً في الظلام. أشارت إلى الذبابة تشجعها على الاقتراب، ثم راحت تحاصرها بكفيها وتدفعها باتجاه الشباك المفتوح.

صوت الصافرة المتناقص يفهمنا أن الذبابة قد خرجت فعلاً وذهبت في سبيلها ويارة تودعها بإشارات يدها وابتسامة ودية على وجهها، ثم تعود لمتابعة قراءة جريدتها بسعادة.





انطلقت الأكف بالتصفيق في الغرفة المظلمة وقام الممثلون الأطفال ينحنون للجمهور الصغير، أما أنا فكنت أطير فرحاً وفخراً.

همست وأنا احتضنها: «لحسن حظنا أنه لم يستطع اختراق الجينات، لحسن الحظ انه لا يورث».

ما معنى «يورث» يا بابا؟ وعن من تتحدث؟

لاشيء يا حبيبتي... أردت فقط أن أقول أن مسرحيتك كانت رائعة.. وأنها أسعدتني أكثر مما تتصورين.

# غيلان: تعويذتنا الواقية من الانهيار

قبل سنة ونصف وقعت لعائلة صديقي لطيف فاجعة من اشد فجائع حرب الإرهاب في العراق، حيث احترق أطفاله وزوجته أحياء في سيارة ضربتها صلية دبابة أمريكية، وأشعلت النار فيها في السوق في بعقوبة أمام نظر الناس، بل وأطلق القاتل النار فقتل رجلاً لم يتحمل منظر وصراخ الأطفال فحاول فتح باب السيارة لإخراجهم(*). حدث هذا في وضح النهار وفي سوق مزدحم، ولم يبق من تلك العائلة الكبيرة غير من قدر حظه أن لا يكون في السيارة: لطيف وأبنه البكر هزبر الذي كان ينهي دراسته في علوم الحاسبات في بغداد والصغير غيلان الذي كان يشارك ببطولة العراق للشطرنج دون ١٦ عاماً، والتي كان قد فاز بها قبل عام.

الثلاثة الذين نجوا من الكارثة وكتب عليهم تحمل الحياة بعدها، ردوا على المأساة بأن عقدوا بينهم اتفاقاً غريبا!

اخبرني لطيف، حين كنت أطمئن عليهم أن أولاده بخير. قال: «تراهنّا: من منا سينهار أولاً؟» لعلها أغرب مراهنة سمعت بها في حياتي، وأكثرها إثارة للدهشة أن يكون هناك بشر بهذه القوة ليبتكروا رداً على مثل تلك الضربة الساحقة. لقد كان كل منهم، شديد القلق على الاثنين الباقين أكثر من ألمه وقلقه على نفسه، فسعد الجميع بالاتفاق.

أمس وأنا أقرأ بأسف الكتابات المشحونة بالطائفية على الإنترنت واستلم الإيميلات التي تلومني أني لم اتخذ موقف الدفاع عن طائفتي في كتاباتي،

(*) http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?aid=20255





أصابني خوف حقيقي لم اعرفه على العراق، لكني أعذرت من كتب هكذا. تساءلت إلى متى سيصمد العقل في الإنسان العراقي أمام هذا المد الإرهابي الهائل المجهول؟ إلى متى سيتمكن العراقي من أن يراجع الحقائق بهدوء ولا يتسرع التهم فلا يسقط في آلاف الفخاخ التي نصبت له فـ«يصيب قوماً بجهالة» ويزيد الطين بلة؟ أن يبقى يتذكر أن من ينصب له تلك الفخاخ قوي للغاية ودنيء للغاية ومبدع للغاية؟

تساءلت... إلى متى يمزّق الرصاص أقرباءه ويبقى يقول: «ومع ذلك فليس هناك إثبات على أنها من الطائفة الأخرى»، والى متى سيستطيع الصمود أمام إغراء الانتقام، أي انتقام ومن أي كان، وإلى متى سيتمكن من الامتناع عن تفريغ غضبه وحزنه وجزعه في جسد شخص ما؟

إلى متى ستصمد الشجاعة بوجه الخوف الذي يعيد تجميع الناس وفق طوائفها وعشائرها لتعويض فقدان الأمان، واختراع العدو في المقابل؟ إلى متى يصمد العقل فلا يصدق هذا السيل الهائل من الإعلام الذي يدعوه كل يوم وكل ساعة إلى الجنون، فكم يوماً سيبقى يرفض هذه الدعوة ويبقى مصراً على اشتراط الإثباتات قبل الحكم؟ إلى متى سيصمد الإنسان في رأس المرء فلا ينحدر ليصبح وحشاً طائفياً مختلاً؟ إلى متى سيقول العقل أن هذا الذي قتل أخي بعد أن قرأ هويته وكان يرتدي ملابس الآخرين ليس إلا محتالاً يريدنا أن نقتل بعضنا؟ أيبقى العقل صامداً أم أنه لابد سينهار، وأن المسألة مسألة وقت؟

متى سيكون الانهيار، ومن سينهار قبل غيره؟ تذكرت رهان الثلاثي الرائع عمن سينهار أولاً، وفكرت أي عجب إن صمدوا حتى اليوم؟

لاشك أن القوة الرابطة التي يعود إليها فضل صمود هذا الثلاثي الرائع هو الحب المتبادل والإيثار والتربية الإنسانية لذلك الوالد الكبير. إنه التفكير بالغير. فقلق كل من الثلاثة على الاثنين الباقين وعلى بالبلاد يحميه من أن

يحطمه الغرق في الأحزان وهي تفيض كلما حل المساء.

فأما هزبر فيرجوني كلما اتصلت بهم أن أبقى على اتصال بأبيه فهو يحتاج إلي، وأما أبيه، فإضافة إلى قلقه على ولديه الباقيين، يبدو أن هم العراق مازال في رأسه اكبر من مصيبته. وها هو يوم تأبين عائلته يدعوا الجمهور المحتشد قائلاً: «من أراد أن يواسيني في محنتي هذه ومن تمنى أن تعود لي عائلتي وأحضن أطفالي من جديد فليخبرني ماذا فعل لأجل وحدة البلد وبناء البلد، وليفكر معي كيف نخرج البلد من هذا الليل الحالك»، ومازال حتى اليوم يفكر ويكتب ويحاول.

وحين كتبت مرة أسأله إن كان في العراق أم خرج منه، أجابني:

أنا في العراق أو العراق في... لا أعلم... ولكن بالتأكيد... لمدمعينا طعم دجلة والفرات!

بل أن هذا القلب المعصور ما زال فيه مكان رحب للقلق على الآخرين من أصدقائه، فكتب لي معلقاً على إحدى مقالاتي يقول: «آه يا حبيبي أكاد أحس قلقك كابوساً ثقيلاً يضاف إلى مصاب بغداد ومصاب عبد اللطيف».

لم أكتب هذا لأثير مشاعركم من أجل صاحبي بل لأدعوكم لتأمل المحور الأساسي الذي يستند إليه لطيف وهزبر الذي هو حتماً الصغير الكبير: غيلان. فلا شك عندي أن أخيه وأبيه، كلما عصفت بهما الذكريات الحارقة، ينظران إليه، فيخجل أي منهما أن يتكوم منهاراً وغيلان منتصب القامة.

قبل لحظات كنت أتصفح العدد الذي وصلني تواً من مجلة هولندية اشترك بها، فأوقف نظري رسم كاريكاتيري لفرهاد فوروتانيان لأرض تنشق وأناس يركضون شمالاً ويميناً، كل في جانبه، بعيداً عن الشق في الوسط، إلا رجل واحد يقف فوق الشق، رجله اليسرى هنا والثانية هناك، وهو





يرفض أن يترك مكانه الحيادي، ويرفض الاعتراف بالشق الذي بدأ يشقه هو أيضاً. كان يبدوا مصراً بشكل قاطع على أن يجعل من جسده رباطاً يوقف انفتاح الشق أو أن يمزق الشق جسده إلى قطعتين.

كم هو رائع وعميق هذا الرسم، وكم هو معبر عن الحال في العراق حيث يركض كل إلى طائفته وعشيرته وقوميته وقد تخلى عن العراق أو يأس منه، إلا البعض الذي يرفض الاعتراف بهذا الشق فيفضل أن يموت عراقياً على أن يعيش طائفياً.

هل هناك ما يكفي من هؤلاء العراقيين لإنقاذ العراق؟ حين كتب صديق لي قرأ قصة عائلة لطيف إليه مواسياً ومصدوماً لهول مصابه وصموده، أجابه لطيف:

«الأخ العزيز محمد المحترم

أشكرك على صدق مشاعرك وأؤكد لك بان في العراق قصص لو تسنى للناس الاطلاع عليها لعرفوا حقيقة هذا الشعب ولطمأنوا بأنه ما من قوة في الأرض تستطيع انتزاع إنسانية العراقي وحبه للبناء. ربما الصدفة كانت السبب في أن عرفتم قصتي ولكن قصصا عظيمة لايعرفها إلا أهلها اندثرت كدم هابيل، أخوك عبد اللطيف إبراهيم».

أي غيلان... أتدرى... أقول لك صدقاً، أني لا أعرف إلى أية طائفة تنتمي، لأني لم اعرف إلى أية طائفة ينتمي أبيك؟ غريب أن نعيش سوياً سنوات جامعة الموصل الطويلة الحميمة، ونثير بيننا كل تلك النقاشات الكثيرة دون أن نسأل بعضنا مثل هذا السؤال أليس كذلك؟ لكني يا غيلان ربما كنت أخشى لو أني سألت أباك مثل هذا السؤال أن يمزق وجهي، أن لم يكن بضربة بوكس غاضبة فبضحكة استخفاف مدوية. نعم يا غيلان لم يكن غريباً في ذلك الوقت أن نعيش سنوات معاً دون أن يسأل أحد مثل هذا السؤال.

أي غيلان... هل لك أن تغلق بوجهنا خيار سقوط العقل إلى هاوية الطائفية والغضب الأعمى كما أغلقت بوجه أبيك وأخيك خيار الانهيار؟

أي غيلان ألا تعلّم عقولنا الصمود بوجه التعب والخوف والإغراء بالعصبية؟ إلك أن تعلمنا الخجل، فيقسم كل منا أن يكون آخر من سينهار فيه الإنسان المفكر إلى مسخ متيبس ابله يدفعه الخوف والقهر إلى الضرب يميناً وشمالاً بلا تمييز، وتسيره الرغبة بالانتقام من أي كان، أن لم يجد مطلبه ؟

أي غيلان... نحن مثلك لا نريد أن نصير حمقى ووحوش، لكننا متعبون.. متعبون... متعبون..

آه غيلان معذرة... فليس لإنسان أن يذكر تعبه أمام إرهاقك ولامصيبته أمام جلال مصابك...

غيلان انك لم تترك لنا خياراً... سوى أن نقسم أن نبقى بشراً حتى الموت..

فلنحمل اسمك «غيلان» في أعناقنا وذاكرتنا، تعويذة ترد عنها السقوط، كلما انقضّ علينا الخوف وكلما فاض التعب...

... وكلما حل المساء...

الجيش الصغير والحلم القديم بالسلام

٢٠٠٦/١٠/١٠





## عن وردة سعدون وارض الخوف وميلاد المقاومات الثلاثة

هاهي ذي الجريمة البشعة في مدينة الصدر ترسل أمواجاً من الغضب تندفع من المركز متوسعة كما تتوسع موجات أثارتها حجارة القيت في بركة من الماء. الغليان المندفع يجهد لتحطيم الحواجز التي اقامها العقل في وجه الرغبة الوحشية بالانتقام... الانتقام من أي كان، حتى لو كان بريئاً، ما دام من الفريق الآخر.. ألم يكن ضحايا مدينة الصدر أبرياء كذلك؟ هذا المنطق الأعوج هو ما يأمل من قام بجريمته، أن يسود رؤوس الناس فتندفع بنفسها لتكمل دائرة القتل والانتقام ليفترس الشعب نفسه بنفسه.

إنه منطق أعوج لأن قتل الأبرياء لايواجه بقتل الأبرياء من الجانب الآخر، بل بالاقتصاص من القتلة فقط دون سواهم، فلا تزر وازرة وزر أخرى. هكذا كان العدل وهكذا سيبقى ولن يغيره فيضان الدم مهما طغى ولن يبرر الظلمَ الغضب مهما عظم.

أقرأ في الصحف عن إحراق بشر ومساجد وقصف متبادل ونداءات للحرب، فينقبض قلبي خوفاً على بلدي وناسي...لكني أبقى متمسكاً برهاني أن أكون آخر من يصدق أن أهلي وأصدقائي هم من ضعاف العقول والمجرمين، وأن سنياً سينتحر يوماً ليأخذ معه إلى الموت مجموعة من الشيعة لمجرد كونهم شيعة، أو أن شيعياً يمكن أن يعذب أو يقتل سنيّاً، لمجرد كونه سنّياً. من حاول وسيحاول إقناعي بذلك سيتعب طويلاً.

أنا مطمئن أن أهلي وجميع من عرفت، ليسوا هكذا..ولا حتى قريبين إلى أي شيء من هذا. لكني لست مطمئناً تماماً أنهم سيثق بعضهم ببعض مثلما أثق أنا. إن النافخ في الجمر وهو يصرخ «النار.. النار»، شخص

كاذب، لكنه لن يكون كذلك غداً، إن اتيح له أن يستمر في النفخ والصراخ حتى تشتعل النار فعلاً.

«لا لم ينجحوا يا صديقي... حتى الآن» كتب لي صديقي سعدون من مدينة الصدر ـ الثورة نفسها... مطمئناً، وكان يجيب عن تساؤلي في مقالتي السابقة إن كان المجرمون الذين فجروا السيارات الست قد نجحوا في أن «يقتلوا الأمل» في غد كريم العيش للعراقيين، بلا احتلال ولا دكتاتورية.

يستمر سعدون: «في مدينة الثورة وتحديدا في ساحة خمسة وخمسين أي في قلب المدينة مكان يتجمع فيه عمال البناء. هذا المكان تعرض لعشرات السيارات المفخخة تصور ولم يتزحزح مكان تجمّع هؤلاء العمال متراً واحداً. طريقي اليومي يمر بهذا المكان، وعندما تنفجر السيارة فيه نهاراً أعود لأمر عبره مساءً وصباحاً فلا يتغير المشهد» «نعم قل عدد العمال قليلاً».

«لكن وجود العمال في مكان التفخيخ قد لا يعني عدم قتل الأمل، وربما لن يعني. غير أنه على كل حال يعني وسيظل يعني أن في الجماهير البسيطة وفي الحياة البسيطة وفي كل الأشياء البسيطة ما هو أكبر من رهان القتلة، لا أعرف ما هو هذا الأكبر، غير أنني أراه يومياً كلما تضايقت من زحمات شوارع بغداد، الشوارع تزدحم بالسيارات وركابها، وجميع الركاب يعلمون أن الزحام مشروع مفخخة مؤجل، غير أنهم يزدحمون ولا يتوقفون. لم ينجح القتلة في إيقاف الناس... إلى الآن».

كل هذا يجب أن يثير فينا الأمل ويوحي لنا بالرد المناسب على الأخطار والتحديات. فإذا كان الشعب العراقي قد رد على الاحتلال باعتباره خطراً على البلاد بخلق مقاومة منظمة له، على الرغم من إشكالاتها واختراقها والكثير من علامات الاستفهام عليها، فإننا بحاجة إلى ذلك في وجه الخطرين الكبيرين الآخرين: الحرب الطائفية وعودة الدكتاتورية. يجب أن





تكون «مقاومة الانهيار الطائفي» و«مقاومة عودة الدكتاتورية» مقاومات منظمة تضع لنفسها أهدافاً محددةً تماماً مثلما هي «مقاومة الاحتلال» وأكثر. وللمقاومات الثلاث عدو واحد على الرغم من تعدد ألوانه.

والحقيقة ان هذه «المقاومات» موجودة تماماً وعميقة في نفوس الناس، لكنها تتحرق إلى من يأخذ على عاتقه أمر تنظيمها وسد نواقصها ووضع أهداف محددة لها يمكن من خلالها قياس نجاحاتها وفشلها. إن استمرار الإرهاب الهادف إلى تحريك الحرب الطائفية وتصاعده، يقدم لنا في الوقت نفسه سبباً للتفاؤل إضافة إلى ما يقدمه من ألم وخوف. فهذه الحرب الإرهابية تعني أيضاً أن الإرهاب لم ينتصر بعد وأن الطائفية لم تنتصر بعد، فكل معركة تعني أن هناك مقاومة. مقاومة تعي مصدر الخطر ومصرة على إبقائه أمام عينها على الرغم من كل التشويش.

لكنها للأسف مقاومة هلامية ليس لها شكل محدد يراها الناس من خلاله. إنها لا تضع نفسها أمام الناس بوضوح، ولا تستثمر مكاسبها لحث الناس على دعمها ورفدهم بالأمل كما يفترض. إنها مقاومة سلبية ليست لها أهداف محددة تسعى للوصول إليها، وتبقى تقتصر على رد الفعل على المبادرات المحفزة للطائفية والإرهاب. ومن الأمور الحاسمة الأهمية أن يعرف المواطن العراقي بكل خبر يمثل نصرا لمقاومة الحرب الطائفية، وأن يوضع مثل هذا الخبر في إطاره الصحيح ليلعب دوره في تشكيل صورة عن كيان تلك المقاومة لدى المواطن العراقي.

اليوم قرأت أحد هذه الأخبار المؤشرة إلى نهوض «مقاومة الانهيار الطائفي» في فتوى لثمانية علماء سنة في البصرة تحرم دماء العراقيين الشيعة جاء فيه: «دماء جميع العراقيين محرمة ولاسيما إخواننا الشيعة، ولا يجوز التعدي على الأنفس والأعراض والممتلكات والمقدسات». وحذر البيان من «الفتنة الطائفية» التى وصفها بأنها «أعظم العوامل التي تساهم في هدم

المجتمعات واقتلاع جذورها». وأوضح البيان أن «إزهاق النفس المعصومة في الإسلام من أعظم الجرائم وأبشعها، وتعد أمرا مناقضا للإرادة الإلهية». و«لابد أن نشيد بالموقف البطولي المتمثل بصحوة عشائر الأنبار بتصديهم لقوى (القتل والإرهاب والتهجير)».

مثل هذه المبادرات «السنية»، يجب أن يتم نشرها ليس فقط بين السنّة لتوجيههم بها بعيداً عن أخلاق الطائفية، وإنما أيضاً، وهذا لايقل أهمية، بين الشيعة لكي يتبينوا أن هناك حركة هامة بين إخوانهم السنة تقف معهم ضد هذه الحرب وضد القتل الطائفي، ليكون ذلك مصدر أمل لهم ودفعاً بزيادة مثل تلك المقاومة في داخلهم، والعكس صحيح بالقوة نفسها.

فبالتأكيد، ليست «مقاومة الحرب الطائفية» لدى الشيعة بأضعف منها لدى السنة، ولدينا الكثير من الدعوات المشابهة والفتاوى المماثلة لمبادرة علماء السنة في البصرة. ولا تقتصر تلك المبادرات على علماء الدين بل وأيضاً هناك التزامات قوية من الميليشيات الشيعية نفسها، والتي تتهم عادة بين السنة بكونها مصدراً للأرهاب الطائفي. نقرأ ذلك في بقية رسالة سعدون والتي لايعلم هو حتى هذه اللحظة أني سأستعملها في مقالتي هذه:

يروي سعدون حكاية مفادها أن «التيار الصدري منع أي رد فعل من قبل جيش المهدي» وهذا ما جعل البعض يعتبرهم لهذا السبب «بعثيين». يقول سعدون: «الجيد بالموضوع أن في التيار الصدري، والذي هو تيار جماهيري، من يستطيع إلى الآن أن يضبط نفسه وسط كل هذا الفزع، وعلى الرغم من خطورة التهمة بالبعثية في مدينة الثورة غير أنهم مصرون... حتى الآن.. على عدم الانجرار».

أفرحت هذه الحكاية سعدون فهي تنبئ بمولد «المقاومة الثانية» ـ مقاومة الحرب الطائفية ـ الأخت الثانية لـ «مقاومة الاحتلال». فهاهو ذا يبتهج





قائلاً: «عندما سمعت هذه الحكاية تشققت أرض قلبي التي كانت قد تحولت لصحراء، نعم تشققت وأعتقد أن شقوقها حدثت بسبب وردة أمل ستنبت فيها ستظهر عما قريب، وعلى الرغم من أن ستة صواريخ كاتيوشا انطلقت من الثورة باتجاه الصليخ أو الأعضمية ربما، غير أن شقوق أرض قلبي لم تتوقف».

نعم إن الصواريخ تنبئ أن الوعي لم ينتصر بعد، لكن القصة كلها تقول إنه لم يستسلم بعد أيضاً، ولذا فإن من واجبنا أن لاندعه يستسلم. إن من يجد نفسه، من خلال مبادئه وما يؤمن به وما يحب، مدعواً لنصرة هذا الاتجاه المقاوم للطائفية مدعو إلى التفكير والمبادرة من أجل العالم الذي يطمح إليه. إننا مدعوون إلى أن ننظر إلى العالم من وجهة نظر الطرف الآخر أيضاً. أن ننظر إلى الكوارث التي تنصب عليهم من جراء الإرهاب، وأن لانكتفي بالنظر إلى كوارث طائفتنا. أن لانتسرع الحكم أنـ «هم» المعتدون وأن «جماعتنا» يردون على اعتداءاتهم فقط. ولنلاحظ أن الناس الأبرياء غير المسلحين هم الضحايا في الطرفين، وهذه الحقيقة تنزع الوهم عن خرافة «الإنتقام»، فأنت تنتقم ممن يعتدي عليك وليس من الأبرياء، حتى إن كان هؤلاء من اقارب من تعتقد أنه المعتدي.

ليس هناك «اعتداء» و«انتقام» في هذه المجازر... هناك «اعتداء» و«اعتداء» فقط ومن يقول بغير ذلك منافق.

المعركة دائرة بين مريدي السلام في الوطن وبين مشعلي الحرب الطائفية. ويبدو ان مستقبل هذه المعركة سيحدد مصير العراق فليكن لكل منا دور في هذه المعركة. لننشر أخبار تلك المقاومة بين من يصل إليهم صوتنا، لننشر أخبار الأبرياء من ضحايا الجانب الآخر أيضاً بين رفاقنا، لننشر الأخبار الطيبة أيضاً عن الجانب الآخر، ولننشر شكوكنا بالتفسير الطائفي للأحداث. لتكن المعركة في العراق بين الطائفية و«مقاومة الطائفية» وليس بين شيعة وسنة،

وليكن أبطالنا أبطال «مقاومة الطائفية» وليس أبطال شيعة ضد السنة وأبطال سنة ضد الشيعة.

لنعمل على ان لانسمح لاشقياء ومتطرفي ومهووسي الطائفة الأخرى بفرض تصورنا عن تلك الطائفة، بل نأخذ فكرتنا عنها من خلال معتدليها وشجعانها الداعين إلى الحق فيها ومن خلال معرفتنا التأريخية بأعضائها كأصدقاء لنا وأقارب وأنساب لانحتاج لأحد لكي يصفهم لنا. لتكن حماستنا في نشر أخبارهم أقوى من حماستنا في نشر ترهات المجانين في الجانب الآخر، واي طرف ليس له مجانينه؟ وأي طرف لم تخترقه الفلول الداعية إلى التمزق، المستفيدة من الإرهاب؟

السؤال في نهاية الأمر هو: هل ستهدم زلازل الغضب التي ارسلتها تفجيرات مذبحة مدينة الصدر، منازلنا على رؤوسنا أم ستشق طاقتها الأرض التي يخنقها الإرهاب لترى وردة سعدون نور الحياة؟ هل من إمكانية لتوجيه عقلاني حضاري إنساني لكل طاقة الغضب والانتقام المتفجرة في داخل نفوسنا لتعصف بالاتجاه الصحيح لتخدم أسمى أمانينا؟ على قدرتنا على ذلك يتوقف مستقبلنا.

«هل هناك أمل؟؟»، كان سؤال الختام في رسالة سعدون وهو يتأمل وردته بقلق، ولكل منا وردته... فما نحن من أجل ورودنا فاعلون...؟

٢٠٠٦/١١/٢٩





# المصباح الوحيد في الشارع

في إحدى الليالي شاهد أحدهم رجلاً يبحث تحت عمود نور عن شيء ما. اقترب من الرجل وسأله عم يبحث فقال: أضعت مفتاحي. قرر صاحبنا أن يساعد الرجل، لكن وبعد وقت من البحث دون جدوى سأله: هل أنت متأكد أنك أضعته هنا؟ فقال الرجل: لا، ولكنه المصباح الوحيد في الشارع، فإن لم يكن مفتاحي هنا فلا أمل لي أن أجده.

أنا عراقي أعرف العراقيين وأعرف حق المعرفة أن المشاعر الطائفية في العراق ليس لها إلا أساس بسيط مثله مثل الميل الذي يحسه كل البشر بشكل عام: بعض التحيز إلى طائفتهم أو قوميتهم أو عشيرتهم أو دينهم. هذا التحيز الاعتيادي البسيط يُنتج النقاش الحاد حيناً واللطيف أحياناً والنكات اللاذعة حيناً والمسرة أحياناً. أنا أحكي في كل مناسبة النكتة الجميلة عن السنّي الذي ذهب إلى طبيب الأسنان وقال له «سني خايس»، فقال له الطبيب: وهل يوجد «سني» ليس خايس؟ صديقي «كوران» لا يعرف نكاتاً إلا عن الأكراد وإن سمع واحدة جديدة سارع إلى الاتصال بي ليحكيها لي وهو ينفجر ضاحكاً.

هذه النكات وهذا التمييز والنقاشات لا علاقة لها بالعنف والتفجير والإرهاب والانتحار. هذه الروح لا علاقة لها بتفجيرات مسجد «براثا» الوحشية إطلاقاً. هذه النكات والنقاشات وبعض الكتب والمقالات حيث تتبادل بعض التهم، هي أقصى ما نعرفه من عنف بين العلاقة الشيعية السنية في العراق، ومن يحاول أن يقنعنا بعكس ذلك فهو واهم. فعدا هذا لا نعرف من العلاقة بين الشيعة والسنة على التأريخ العراقي، الذي تخزنه

ذاكرتنا على الأقل، سوى الود والتعايش والتضحية المتبادلة والتعاون والوقوف في خندق واحد ضد الاستعمار وضد الظلم وضد كوارث الطبيعة والزمن.

هل هذا كلام صحيح أم أني أقنع نفسي بما أود أن اقتنع به؟ ما أنا متأكد منه أن العراق الذي عرفته كان يحوي شعباً اتصف بالطيبة والمحبة بشكل عام، أما أن كان قد بقي كذلك أم لا فأعترف أنه أمر يقلقني. لكن أن كان الأمر غير ذلك، وأن العراقيين أصبحوا شعباً طائفياً متناحراً يسيطر عليه العنف.. فالحال ميؤوس منه.

لذا، وحتى أن كانت هذه هي الحقيقة، فإني أرفضها وأبقى أؤمن بطيبة شعب العراق وسلامة نفسه، وأبقى أدافع عن إيماني هذا حتى أن صار خيالاً، فلعل هذا الخيال يتحقق ثانية ويصبح واقعاً من جديد، أن آمن به الكثيرون مثلي.

هذا هو مصباحنا الوحيد في هذا الشارع الطويل المظلم، وعلينا أن نؤمن أن المفتاح موجود تحته لكي لا يصيبنا اليأس. فنحن نعلم جيداً: إن لم يكن المفتاح تحت هذا المصباح، مصباح الطيبة والتسامح، فلا أمل لنا أن نجده.

٢٠٠٦/٤/٨





# الفهرس


* المثقفون أحفاد الزرقاء ..... ٥
* اليسار والإسلام: فرصة للتعاون في الوقت الصعب ..... ٨
* فتوى السيد الأخيرة ..... ١٢
* نسركم يقتات على الجيف أيها السادة! ..... ١٧
* الإيحاء بالدونية ..... ٢١
* إنتقم من الخطأ ..... ٢٧
* ما أيسر بيت قلته؟ هدية مشاغبة إلى الحزب الشيوعي .... ٣١
* لا ديمقراطية إلا في العراق: عشرة أدلة! ..... ٣٦
* دع الخجل وابدأ النفاق: دعوة عاجلة ..... ٤٠
* عهد شرف ضد التملق ..... ٤٥
* الوحي زار حاكم العراق في المنام ..... ٤٧
* إلقاء اللوم على البيادق: إلى أين نوجه أنظارنا في العراق؟ . ٥٠
* التوافق هو الحل... أن لم تكن هناك مشكلة ..... ٥٨
* إدارة الخلافات ..... ٦٣
* مشروع الدستور الديناميكي ..... ٦٥
* القواعد الأمريكية بين قلق العراقي وضمير ممثليه ..... ٧٠

* أشواك القنفذ ..... ٧٧
* الرنين الإعلامي: كيف يجعلونا نقبل أخباراً غير معقولة؟ ... ٨٤
* أبي يفتش عن جواب لحيرته ..... ١٠٢
* أبي يجد جواباً لحيرته ..... ١١٢
* من قتل اطفال النعيرية؟ ..... ١٢٢
* أرهاب بريء من الطائفية ..... ١٢٩
* كيف عادت صدام حسين يلوك النه؟ ..... ١٤٠
* البعث يدافع عن مجتثيه ..... ١٤٨
* العلم العراقي: المشكلة والحل ..... ١٦٠
* أمسك خصمك متلبساً بقول الحق وامتدحه! ..... ١٦٥
* الزرازير والحساب ..... ١٦٩
* القراءة كترفيه عنيف، والمقالة كحلبة ملاكمة ..... ١٧٢
* مسرحية يارة الصامتة ..... ١٧٥
* غيلان: تعويذتنا الواقية من الانهيار ..... ١٧٨
* عن وردة سعدون وأرض الخوف ..... ١٨٣
* المصباح الوحيد في الشارع ..... ١٨٩

# المصباح الوحيد في الشارع

يُنقّبُ صائب في ركام الأحداث حيناً ، وفي أعماق التاريخ حينا آخر ، بحثاً عن جواب معقول عن سؤالٍ بحجم العراق : متى تتوقف نواعيرُ الدم ورُحى الدمارِ عن الدوران، فيعيش العراقيُّ الحياة اللائقة بالإنسان؟
الكتابة عند صائب هي رحلة البحث عن الحقيقة والذود عنها وإزالة الضباب عن المرايا من خلال إضاءة ما هو معتمٌ في حياة الإنسان العراقي ..

الشاعر يحيى السماوي

كان صائب يعاني مثل، اللفيف من أصحابه الحالمين، من رؤية الهوّة الكبيرة بين واقع بلده وبين هالة رؤاه البعيدة! لكنه كان أكثرنا إحساساً بهذه المعاناة وأسرعنا إلى استشعار الخطر المحدّق الآتي!! ..
أرقبه.. هناك في أرضٍ استبدل بها مرغماً نواعير الفرات بطواحين الهواء! فأراه يعيش واقعه الممتد فوق الحقول الخضراء المنخفضة وجداولها المتشعبة ولكنّ جذوره بقيت على ضفة النهر قرب نواعير الفرات!..
أرقبهُ عن بعد، نفس الهمة التي تريد من زمانها ما لا يملكه لنفسه الزمان! كاتبٌ نهمٌ لا حدود لإبداعاته.. ظنّ أنه قد حمل معه إلى منفاه أحلامه ورؤاه، لكنه كان قد حمل بدلاً منها هموم العراق وآلامه!!

الشاعر سعد الحجي

صائب خليل صاحب قلم عراقي جريئ ومتحرر ومتابع نشيط جدا للقضايا العراقية الساخنة .. انه محلل ومدقق ماهر في اي قضية يتناولها ويعالجها بروح علمية وشفافية عالية .. انه يمتلك اسلوبه الخاص الذي يختلف عن غيره بالابتعاد عن الاطناب والانشائية ، فهو يعبر عن الافكار باختزال وحسن اداء .. وبعد كل هذا وذاك ، فان صائب خليل ينطلق من فكر انساني حر تقدمي وهو يبحث عن " ديمقراطية حقيقية " لعالم لم تزل تسوده شريعة الغاب حتى يومنا هذا .

الدكتور سّيار الجميل